

أحباب النساء

في أحوالهن وأهليهن والإسلام

تأليف

دكتور / محمد بدوي

القسم الأول

النشر

مستقر الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجاميزة ٩١٩٣٧٧
٤٢ ميلان الأوبلا - ت ١٠ ٩٢٠٨٦٨
المطبعة النموذجية
٦ مكتبة الشارونج بالصلبية الجديدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

مكانة المرأة في القديم والحديث

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله .

وبعد :

كان للمرأة في الجاهلية مكانة مرموقة ، ومنزلة عالية لا تدانى ، والدليل على هذا ما توارثناه من شعر الشعراء ونثر الأدباء الذى ، يتغنى بالمرأة ولا يفتر عن ذكرها والإشادة بها فى غدوه ورواحه ، وعساه ومصباحه ، وذكرها يصاحبه حيثما حلّ وأينما ذهب ، ونراه حتى فى أشد ويلات الحرب ، ومنازلة الأعداء يذكرها ولا ينساها :

ولقد ذكرتكم والرماح نواهل منى ويبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقييل الرماح لأنها لمعت ككبارق ثغرك المتبسّم
وعما يدل على عظم منزلتها أنها رقت حتى تسنمت عرش المملكة ،
فقد روى التاريخ أن كثيرات منهن وصلن إلى الملك والرئاسة ومنهن (زنوبيا)
ملكة (تدمر) التى كانت تنادى بـ (جان دارك) الصحراء ، والتى يقول فيها
المستشرق « وادنكتون » أنها من أصل عربى من بنى السبيدع ، وقد خضعت
لها القبائل ، وضرب بها المثل فى العزة والكبرياء ؛ فقليل أعز من « الزباء » .

ونقرأ فى القرآن الكريم سيرة « بلقيس » العظيمة وما كان لها من التجربة
وحكمة الرأي والمنزلة الديموقراطية فى قومها إذ كانت تستشيرهم فى كل معضلة
وتأخذ رأيهم فى كل أمر (أفنوني فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون)^(١)

إننا نقرأ هذه الآيات فنزداد إكباراً وإجلالاً وتقديراً للمرأة وما وصلت إليه من مركز مرموق لدرجة أنها كانت تستشار في الرأي ، ويرجع إليها إذا حزب القوم أمر ؛ فقد روى أن عمرة ابنة عامر الظرب كانت تقوم بالنيابة عن أبيها في أمور الفتاوى ، وكانت تقرر العصا إذا رأته سها ، وفي هذا يقول قائلهم :

لدى الحكم قبل اليوم ما تقررع العصا

وما علم الإنسان إلا ليعلمها^(١)

وإن المرأة منذ فجر التاريخ حتى اليوم قد برهنت على ذكاء عظيم ، ودقة إحساس تستثير الإعجاب ، ولقد ظهرت - كما أسلفنا - في ميادين النشاط الفكرى شاعرة فياضة بالوحى الإلهى ، وناثرة قديرة على إيقاظ أنبل عواطفنا الإنسانية ، واستطاعت أن تكون رئيسة وحاكمة وقائدة جيوش وسياسية محنكة ... كل شيء قد برزت فيه وسادت فيه الرجل ، وفاقتة أحياناً وتركت للناس فيه أحدىثة باقية وذكرأ خالداً^(٢) . ويروى التاريخ أن النساء قد اشتركن فعلا في حومة الوغى بعزيمة نادرة وشجاعة فائقة في بعض الغزوات ، كغزوة أحد ، بل كن يلقين بفلذات أكبادهن في المعركة ، وخير شاهد على هذا الخنساء ؛ فقد ضحت بأولادها الأربعة في سبيل نصرة الإسلام .

وإذا لم تشترك النساء بالأعمال الفعلية في الحرب فقد كن يقمن بالأعمال الهامة للمحاربين ، فيقدمن المحاربين الماء والزاد والسلاح ، ويحنن من أنفسهن عيوناً للجيش فيرقبن المؤخرة والجوانب لئلا يباغتهم العدو ، ومن أم أعمالهن تضميم الجراح ، فتن الطبيبات بالورثة ، والأواسى اللائى يعالجن المرضى ، ويرفعن الروح المعنوية في القتال بما يؤدين من خدمات جليلة وتضحيات نبيلة - ويرجع سر مهارة المرأة العربية في الطب إلى تنقلهن مع

(١) الأغاني ج ٤ ص ١٢٩

(٢) تحت المصباح الأخضر : ص ٦٥ توفيق الحكيم (مكتبة الآداب)

الرجال في الحروب ، وبين المتخاصمين ، وعنايتهم بشئون الأطفال ، الأمر الذي جعلهم يعرفون الحالات المرضية ، وفقهم في طبيعة الظواهر والتغيرات التي تصيب الإنسان ، وعلى العموم فإن جميع الأعمال والأعمال الخاصة بحياة السلم ورخاء الإنسانية كانت حيناً من الدهر وفي جذور التاريخ الإنساني من أعمال الحقل الذاتي (١) .

بما سبق يتضح دور المرأة في الحياة الجاهلية ومدى ما كان لها من الحقوق فلقد صورتها الشعراء في صورة كريمة تليق بمكانتها ، وكانت أول شيء يبدؤون به قصائدهم ، وبراعة استهلال يزينون بها أديهم وشعرهم . ومن الذين تغنوا بالمرأة (طرفة بن العبد) فلقد قدمها على أنها مناظرة للرجل (٢) ، وتحدث إليها الشعراء في إكبار وإجلال وتقدير ، يسبقون عليها حلل النبل والفضل ، ويصفون عليها سمات الذكاء والنجابة . وكان لها حقوق ، وعليها واجبات ؛ ومن أم حقوقها على الرجل أن يحميها ويمنع عنها الضيم ويشمرها بأنها تعيش في حمى حقيقي فتجد فيه كفايتها وترى فيه ملجأها وحماها الحصين ، ولم يكن الرجل ليحمي أهله فقط ؛ فالبيت عند العربي يتسع حتى يشمل القبيلة ، ومن هنا ، افتخر الشعراء بأنهم يشركون جاراتهم في طعامهم وما يذبحون أو يأكلون ، يقول حاتم :

وإني لأخزي أن ترى لي بطنة وجارات يتي طاويات ونحف

فهو يشرك جاراته في زاده ، ويعطيهم من الحقوق ما يعطيها أهله ، وهو يحميهم ضد المغيرين ، كما يدفع عنهم الجوع والمسغبة ، وكانت هذه الحماية تتضاعف إذا انقطع عنها المعين أو لم يكن لها بعل :

(١) د / على الهاشمي ، المرأة في الشعر الجاهلي : ص ٧٥ .

(٢) يراجع ديوان طرفة : ص ١٤ .

وما تشكيني جادة غير أني إذا غاب عني بعلمها لا أزورها
 سيلفها خيري ويرجع بعلمها إليها ولم يقصد على ستورها^(١)
 كما يفض طرفه ويمنعه من النظر إلى النساء الاجنبيات عنه وبخاصة
 الجارات :

وأغض طرفي إن بدت لي جادة حتى يوارى جادتي مشواها
 وأما واجبات المرأة ؛ فلم يكن العرب يرهقون نساءهم وفتياتهم بالأعمال
 والواجبات كما يفعل غيرهم من الشعوب الأخرى كاليونان والفرس ،
 وكانت تختلف حالة المرأة باختلاف الأسرة التي تعيش فيها ، فنساء الأسرة
 الراقية قل أن يقمن بالأعمال المنزلية وغيرها ، وكن يعتمدن على الإماء
 والخدم والحشم ، أما في الطبقات الوسطى والدنيا فكان يقمن بأنفسهن
 بالأعمال المنزلية . وفي جميع الأسر (عالية ومتوسطة ودنيا) كانت أعمال
 البيت كلها مسئولة مسئولية كاملة من المرأة .

ولما جاء الإسلام الخفيف ارتقى بالمرأة وبلغ بها أوج السكال ، ورفع
 من شأنها حتى تسنمت ذروة العلا ، ونظم حقوق المرأة وواجباتها وجعل لها
 دستوراً تلزم به ولا تحيد عنه ، ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال
 عليهن درجة والله عزيز حكيم^(٢) ، والدرجة هذه هي ما عناها القرآن الكريم
 بقوله : الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما
 أنفقوا من أموالهم ،^(٣) .

ووصى الرسول ﷺ بالمرأة خيراً وكرر التوصية بها في غير حديث ،

(١) شعراء النصرانية ص ١٣٠ .

(٢) سورة البقرة : ٢٢٤ .

(٣) سورة النساء : ٢٤ .

وقرر الإسلام لها نصيباً مفروضاً : « وللنساء نصيب مما ترك الوالدون والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً » (١)

وإذا قارنا بين المرأة العربية وأختها في الأمم الأخرى رأينا البيون شاسعاً بينهما ؛ ففي ظلال التنظيم اليهودية التي قامت على ما يقتضيه نظام الأمة الحربية من خضوع المرأة للرجل والرغبة في الذسل ، نرى المرأة تسبي وتباع ، وتورث ، والآباء أن يؤجروا أبناءهم لموعد ، وأن يبيعوا بناتهم القاصرات بيع الرقيق وأن يقتلوهن (٢) .

وبعض الأديان ترى أن المرأة هابطة المسكينة ، وأنها خلقت للرجل ، ففي رسالة (بولس) إلى أهل (كورنثوس) : « أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح ، وأما رأس المرأة فهو الرجل ، (٣) » .

وقد أثار المجتمعون في مجمع (ماكون ٥٨١ م) قضية ما إذا كان للمرأة نفس ، وهل تعدّ من البشر ، وبعد جدال طويل كان الجواب : أن لها نفساً وأنها بشر ، ولكنه كان بأكثرية قليلة وإن كانت الفكرة الغالبة عليهم أن المرأة خالية من الروح الناجية ما عدا السيدة مريم (٤) .

وفي الفرس لم تنل المرأة حظاً عالياً من الاحترام والتقدير ، فالفارسي أن يتصرف في المرأة كما يتصرف في السلعة ، بل لقد كان له أن يحكم عليها بالموت (٥) ، وكان قدماء الفرس يبيعون للرجل أن يتزوج بنته ، وأخته

(١) سورة النساء الآية :

(٢) حضارة العرب ٤٩٢ جستاف لوبون

(٣) الإصحاح ١١ : ٢ (٤) المرأة في الشعر الجاهلي

(٥) تحرير المرأة : ٢٣ صبح الأعشى ١٣ - ٢٩٥ وقصة الحضارة الفارسية ٦١

الشقيقة أو غير الشقيقة — كما كانوا يبيعون الامهات ويعتبرون ولادة الذكور ثروة ثمينة، ويرون ولادة البنات عاراً يجلب اللوعة والحسرة (١).

أما المرأة في نظر اليونان والرومان ، فقد انحطت مكانتها حتى بلغت الحضيض الأوهـد ، والدرك الأسفل ، فكانوا يعدونها للمتعة ، وعليها أن تطأ طيء رأسها في ذلة وخشوع للرجل ، وكان زوجها يملك مالها ويقيم عليها وصياً قبل موته ، وأبوها هو الذي يختار لها زوجها ، فإذا تزوجت ملكها زوجها (٢) .

ومن هنا كان الفرق شاسعاً بين المرأتين ، وكبيراً ما بين المتزلتين ، فبينما رأينا المرأة العربية تبلى السماكين (٣) وتهز الخافقين (٤) ، إذا بأختها في الأمم الأخرى ترسف في أغلال القيود ، وتهوى إلى قاع الحضيض : هـذى مشرقة وذاك مغرب ، شتان بين مشرق ومغرب

ولو أطلقنا ألقابنا العنان في هذه المقارنة بينهما لضائق علينا صفحات هذا الكتاب ، ولما اتسع المقام لإلقاء الأضواء على هذا الموضوع ، ولطخت مقدمة الكتاب على جوهر البحث ... فلندع هذا إلى مقامه ، ولكل مقام مقال .

والله ولي التوفيق .

د . محمد بدر معبدى

(١) انظر المرأة في الشعر الجاهلى ٥٧ .

(٢) انظر حضارة العرب لجوستاف : ٤٩٤ .

(٣) السماكان : نجمان معروفان .

(٤) الخافقان : الشرق والغرب .

تمهيد

لا أدري لماذا غفل علماء الأدب والشعر عن تسجيل تراث المرأة الأدبي والشعري ، وقصّر المفكرون والمؤرخون في إبرازه إلى حين الوجود ، انسد فراغاً كبيراً في المكتبة الأدبية ، ونضيف إلى التراث الإنساني تراثاً تليداً وطريفاً ما أحوجنا إليهما في حياتنا الأدبية والشعرية .

إن في المرأة قدرات خلاقة وحيوية ربما لا نجدها في الرجل ؛ فقد منحها قدرة الله الرقة والعذوبة ، وقد اقتضت وظيفة الأمومة أن تكون المرأة أكثر حساسية من الرجل وأسرع استجابة للوثرات العاطفية والوجدانية . وكثيراً ما تهتدى عن طريق شعورها وبصيرتها إلى حقائق قد لا يستطيع الرجل أن يهتدى إليها بعقله وتفكيره المجرد ، فالمرأة هي الواحة الخضراء في صحراء الحياة ، والمرأة قصيدة الدهر ، وأغرودة الأبد .

والناظر فيما ترمى إلينا من الأدب على بعد الزمن سواء في الجاهلية أو الإسلام وما بعدهما ، يرى عقداً نظيماً يتلألأ في جبين الأدب والشعر دلالة وروعة وبهاء ، فالمرأة هي الوحي الذي يلقي في خلد الأدباء والشعراء صوراً منتزعة من رؤى الأحلام ، يبعثها في أفئدتهم نسيماً عالياً وفكراً رائماً يتهادى على أسلات اللسان برداً وسلاماً ، يطمئن إليه القلب ويرتاح الخاطر . فالمرأة نخرة الأدب ، ورحيقه يرشقه الأديب والشاعر نشوة غامرة ، وما يفتبه منها إلا وفي فيه لحن سماوي يتذوقه القارئ . وقلّ أن تجد أدباً رفيعاً مجرداً عن ذكرها . ففيه من روحها حلاوة ، ومن دلالتها نغمة ، ومن سحرها رقة ،

ومن فتور عينيها هيمنة . ولقد سجل التاريخ لبعض النساء العربيات ما أثر
ونبوغاً في فترات زمنية متقطعة في العقل والعلم والأدب ، فخلت كتب التاريخ
والأدب بالأدبيات والشاعرات العربيات في شتى العصور والأزمنة .

ولم تقتصر العناية بالأدب على الرجال وحدهم فقد نبغ من النساء عدد كبير
ضربن بسهم وافر في الأدب ، وكن أمثلة تحتذى في قوة البيان وفصاحة
اللسان ، وقوة المعارضة . ومنهن — على سبيل المثال لا الحصر — الناقدة
الأدبية أم جندب امرأة إمام الشعراء « امرئ القيس بن حجر » فلقد كانت
أديبة نابغة فقد إليها الشعراء والأدباء ، فتدلى برأيها السديد ونظرها الناقد
في شعرهم . ومنهن الحنساء فقد كانت خطيبة مؤثرة ، وشاعرة بارعة ولعل سبب
قوتها الأدبية وتأثيرها يرجع إلى أنها مرت بتجارب وبأحداث كثيرة مختلفة ،
انعكس أثرها على نفسها فصقل أسلوبها وأضاف إليه الحسنة والتجربة
والصلابة وشدة الأسر .

وقد كانت السيدة عائشة زوج الرسول ﷺ من أفصح أهل زمانها
وأحفظهم للحديث ، فقد روت عن الرسول الكريم ألفين ومائتين وعشرة
من الأحاديث ، وروى عنها الرواة من الرجال والنساء ، ولها خطاب حماسية
رائعة ، كما كانت من أفقه الناس وأكثرهم حفظاً للشعر والأدب حتى قيل إنه
لم يوجد أحد أعلم منها في فقه أو شعر .

أما السيدة عائشة بنت عثمان بن عفان ، فقد رثت والدها بعد استشهادها
رثاء بليغاً مؤثراً ، يدل على تضلعها في الأدب وتمسكها ناصية الفصاحة والبلاغة .

ولا ينسى الأدب عائشة بنت طلحة ، فقد كانت مضرب الأمثال في النبوغ
في الأدب والحكمة وعلم النجوم ، وقد دخلت على هشام ذات يوم ، فقال لها :
ما أوفدك ؟ فقالت : حبست السماء المطر ومنع السلطان الحق ، فقال لها :

سأعرفك حَقِّكَ ، ثم بعث إلى مشايخ بني أمية فقال: إن عائشة عندي فاسمروا
معى الليلة ، فحضرُوا فما تذكروا شيئاً في أخبار العرب وأشعارهم وأيامهم
إلا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجم ولا أثار إلا سمته ، فقال لها هشام :
أما الأول فلا أنكره ، وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت « أخفتها عن خالتي
عائشة » فأمر لها بمائة ألف درهم وردّها إلى المدينة .

ومن شهيرات النساء في العصر الأموي : أم البنين زوجة الخليفة الوليد
ابن عبد الملك ، وقد عرفت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجّة وبعد النظر ،
وكانت لها مكانة ملحوظة في قصر الخليفة الوليد يستشيرها في مهام الدولة .

ومن شهيرات النساء في العصر العباسي والأندلسي : أم جعفر زبيدة بنت
جعفر المنصور العباسي ، وعليّة بنت المهدي ، والعباسة ، ولادة بنت المستكفي ،
وحمة بنت زياد ، ولبنى كاتبة المستنصر ، والأديبة الأشبيلية الفذة مريم بنت
أبي يعقوب التي اتخذت من بيتها محفلاً لمدرسة الأدب ، وندوة للأدباء حتى
غدت موضع الأنظار وموضع التجلّة والاحترام ، وتسابق الأمراء والوزراء
إلى تكريمها ونيل مودتها .

أما الشعر فحدث عنه ولا حرج ... فقد كان للنساء ميدان واسع في الشعر
البليغ الرصين الذي يختلف عن شعر الرجال في ابتعاده عن الغزل المكشوف
والمجون والخمر والهجاء ، والمدح الرخيص . وكان وحيه عندهن ما عرفت به المرأة
من عاطفة صادقة . وأروع ذلك الشعر في الرثاء ، فإنهن وإن كن قد شاركن
في جميع أبواب الشعر إلا أن باب الرثاء قد حلقن فيه لانه هو المجال الفسيح
الذي تنطلق فيه عواطف المرأة لانه نوع من النواح والبكاء ، وسلاح المرأة
دائماً دموعها ، وهي أول شيء تلجأ إليه إذا حزّبها أمر أو ألم بها مكروه ...

هذا ما أردت أن أقدمه لسكتاني د أدب النساء في الجاهلية والإسلام ،
وقد قسمت هذا القسم إلى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : ويشمل الأدب في العصر الجاهلي .

والثاني : يشمل الأدب في عصر صدر الإسلام وبنى أمية .

والثالث : ويشمل الأدب المولد أو المحدث . ويدخل تحته الأدب
في العصر العباسي والأندلسي . ونأمل أن نكون وفقنا فيما هدفنا إليه من
إظهار أدب المرأة ، إلى حين الوجود حتى ينفع الناس بهذا الكنز الثمين ،
والدر الدفين الذي اختفى عن الأنظار حقبة من الزمان .

وما ترفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

د . محمد بدر معبدى

أولاً - في العصر الجاهلي

لقد عرفت المرأة في شتى عصور الأدب العربي أدبية وناقدة وشاعرة ، وأن هناك درراً غوالى للمرأة العربية ما زالت ولا تزال وستظل تزهى بها مدى الأيام والشهور والحقب والدهور ، يضاف إلى ذلك ما اختبأ في بطون السكتب المجهولة ، وما خفى في خزائن السكتب التى عفا عليها الزمن وامتدت إليها يد التدمير والإفناء في عهد محاكم التفتيش - وأيام التثر والمغول وغيرها من الحقب المختلفة .

لقد كانت المرأة العربية وما تسكاد تسامى في ادتياد شعاب القول ، وعجم أعواده وكشف فنونه وشؤونه ، ودرك مواطن القوة والضعف فيه فاختمرت حومة البيان قائلة ناقدة : فإن نقدت فنقد القائل الحكيم ، أو قالت فقول البليغ العليم ، واشدد ما أخذت على فحول الرجال مواطن الزلل فيما ابتدعوه وتأنقوا فيه ، ولها من دقة النقد ولطف المأخذ ، ونفاذ الإدراك ، وحسن البديهة ما جعل لها في شتات مواقعها الرأى القاطع والسكلمة الفاصلة^(١) .

وقد روى أن امرأ القيس نازع علقمة بن عبدة الفحل الشعر فقال علقمة : « لملك الضليل »^(٢) : قد حاكت بينى وبينك امرأتك « أم جندب » قال امرؤ القيس : قد رضيت - فقالت لها : « قولا شعراً على روى واحد وقافية واحدة صفا فيه الخيل ، فقال امرؤ القيس :

خليلي ممراً بي على أم جندب لنقض لبانات الفؤاد المعذب

(١) المرأة العربية ج ١ : دار السكتب المصرية ١٧٢ الطبعة الأولى ١٩٢١ .

(٢) المراد بالملك الضليل : امرؤ القيس .

وقال علقمة :

ذهبت من الهجران في غير مذهب . ولم يك حقاً كل هذا التجنب
وأشدها فغلبت علقمة ، فقال لها زوجها : بأى شيء غلبتيه ؟
قالت لأنك قلت :

فلسوط ألحوب وللساق درة ولازجر منه وقع أهوج متعب^(١)
فجهدت فرسك بسوطك ومريته بساقك وزجرك وأتعبته بجهدك وقال
علقمة :

فولى على آثارهن بحاصب وعيبة شؤبوب من الشد مله
فأدركن ثانياً من عنانه يمر كمر السائح المتحلب
فلم يضرب فرسه بسوط ولم يمره ولم يتعبه بزجر ، وفي رواية أن
امراً القيس قال لأم جندب : بم فضلتك هلى قالت : فرس ابن عبدة أجود من
فرسك زجرت وضربت وحركت ساقيك ، وابن عبدة لم يصنع ما فعلت ،
فغضب من قولها وطلقها وخلف عليها علقمة^(٢) .

وكذلك فعلت الخنساء في نقدتها لشعر حسان كما سنشير إليه في ترجمتها.
وقد نبغ من النساء في العصر الجاهلي نساء كثيرات ، وكن أمثلة تحتذى في قوة
البيان وفصاحة اللسان ، وشاركت المرأة الجاهلية في جميع ضروب القول
فإذا تحدثت فإنما تنثر الدر من فيها ، حكيمة — وناقدة وخطيبة وموجهة
فما كنت شغاف الأفئدة واستولت على الوجدان والقلوب .

واقصد وصف النبي ﷺ رجالاً هم أمس الناس به ، وأطولهم لزماً له

(١) ذكر صاحب كتاب المرأة العربية (مذهب) بدلاً من (متعب)
وكلاهما بمعنى واحد .

(٢) كتاب الأغانى ج ٧ : ١٢١ : ١٢٢ (ساسى) .

وأملوهم قلباً منه ، وهم ملوك القول وفرسان البيان فلم يبلغ واحد من وصفه ما بلغته امرأة أعرابية مثل (أم معبد) .

ولئن اهتز رجال العرب بقوم منهم ، ضربوا الأمثال ونشروا مطارف الحكمة وكشفوا قناع الحقيقة فإن لنسائهم أن يعتززن بفريق منهن لا يقل عن أولئك شأناً ، ومن هؤلاء أمامة بنت الحارث ، وهند بنت الحس الأيادية ، والشعشاء السكاهنة ، والزبراء ، والمعجفاء بنت علقمة ، والجمانة بنت قيس ، وعصام الكندية ، وحذام بنت الريان وغيرهن من الأدبيات والنائرات ، ولو تتبعنا ذكرهن وأخبارهن لضاق بهن هذا الكتيب الضئيل ، والأمل إن شاء الله أن نفرّد لأدبيات وخطيبات العرب وناقداًتهن سفرأ خاصأ مطولأ لو امتدت بنا الأيام ، وصدقت الأحلام .

الفصل الأول

الوصايا

أسلوب الوصية

أسلوب الوصية في هذه الحقيبة كان ينجح إلى السجع تارة وإلى الازدواج تارة أخرى ، وكان السجع محبباً إليهم ، وذلك للاستعانة به على التأثير في الوصية ، ولما يقتضيه المقام من تأنيق في القول ، وربما كان بشيوع السجع راجعاً إلى ما فيه من نغم متعادل ، وردنة موسيقية ، فهو أعمق أثراً في النفس ، وأحلى إيقاعاً في الأذن ، والأذن أحد طريقتين تنفذ فيها الوصية إلى نفوس سامعيها ، وربما لأن السجع أشد مقاومة لعوامل الضياع من غيره لقربه من الشعر : فهو أسهل حفظاً ، وأكثر بالذهن لصوقاً . ومع السجع نرى تقصير الجمل والفصل بينها ، حتى تبدو كأنها فقرات أو جمل منفصلة ، وربما كان للارتجال أثره في هذا ، على أن تقصير الجمل في المواضع والوصية شيء تستدعيه طبيعة الموضوع حتى يتاح الموصي أن يتنفس وأن يستريح وأن يتدبر ما يقول ، وحتى يتيسر للسامع أن يتابعه ويفهم عنه ؛ إذ لو جاءت الجمل مفرطة الطول لضاق بها السامع وتخلف عنها وجهه في تتبعها ولو جاءت بالغة القصر لوقفت به فجأة دون ما يتوقع كأنما تعثر فسكره وزل^(١) .

كما نلاحظ الترادف أحياناً والتنوع في العبارات المعنى الواحد . وفي الترادف والتنويع تغيير يبعث على نشاط السامع ولذته . ونلاحظ قلة تعمقهم في استخراج

(١) الخطابة لأرسطو . وراجع الخطابة في صدر الإسلام ج ١ ص ٧٧

المعاني البعيدة ، وفي استقصاء الأفكار الوصية التي تحتاج كد خاطر ودرس علم ، وأنهن كثيراً ما يستخدمن السكنيات القريبة المنازل ، وميلن في الوصايا إلى سوق الحكم والأمثلة الحكيمة ليكون ذلك أدعى إلى قبول الوصية والإسراع إلى تطبيقها .

* * *

وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس (١) :

أى بنية ، إنك فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخلفت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكك عليك رقيباً ومليكاً ، فكونى له أمة يكن لك عبداً وشيكاً (٢) ، يا بنية احملى عنى عشر خصال تكن لك ذخراً وذكرأ : الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه . فلا تقع عينه فيك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح ، والسكحل أحسن الحسن ، والمساء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والحدو عنه عند منامه ، فإن حرارة الجوع ملهية ، وتنغيص النوم مغضبة ، والاحتفاظ ببيتته وماله ، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ، ولا تفشى له سرأ ، ولا تعصى له أمرأ ، فإنك إن أفشيت سره ،

(١) من ربات الفصاحة والبلاغة والرأى والعقل خطب الحارث بن عمرو ملك كندة ابنتها أم إياس بنت عوف بن محم الشيباني فزوجها أبوها منه فقالت أمامة لابنتها إن الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للعاقل ومعوثة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبوها ، وشدة حاجتهما إليها كنن أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال ، (بجمع الأمثال ٢ : ١٤٢ والعقد الفريد ٣ : ٢٢٣ .

(٢) وشيكا : أى سريع الإجابة .

لم تأمني غدريه ، وإن عصيت أمره أو غرت صدره ، ثم اتقى من ذلك الفرح إن كان ترحاً ، والا كتئاب عنده إن كان فرحاً ، فإن الخصلة الأولى من التقصير والثانية من التكدير ، وكوفي أشد ما تكونين له إعظماً ، يكن أشد ما يكون لك إكراماً ، وأشد ما تكونين له موافقة ، يكن أطول ما تكونين له مرافقة ، وأعلى أنك لن تصلى إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهو اه على هواك فيما أحببت وكرهت ، والله يخبر لك . اه .

والوصية المذكورة دستور للبرأة العاقلة التي تهحرص على سعادة عشها ويبتها ، وقد صدرت من أم مجرّبة محنكة حلبت الدهر أشطره ، وحرصت كل الحرص ، على أن تحقق السعادة - والرفاه لابنتها ، وتبين لها ما يجب عليها نحو زوجها لتدوم السعادة الزوجية ، وتتحقق السكينة والطمأنينة .

وقد جاءت الوصية مسجوعة إذ هو الطابع الذي كان يسود ذلك العصر . والوصية قلائد من الذهب جاءت عفو الخاطر ودون تكلف أو صناعة متعمدة ، كما زخرت الوصية بالتشبيهات والاستعارات مما أ كسب النص روعة وجمالاً ، كما عمدت أم إياس إلى التنويع في الأسلوب والخطاب فرة تجد النداء في قولها : أى بنية ، يتبعه الخبر المؤكد في قولها : إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت ، ، وأحياناً تجد الأمر في قولها : « فكوني له أمة يكن لك عبداً ، واحفظي له خصالاً عشرين يكن لك ذخراً ، كما نجد الخبر يتبعه النهى المؤكد في نحو قولها : « فلا تفشي له سراً ، ولا تعصى له أمراً ، كما نجد أسلوب الشرط في قولها : فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدريه ، وما أحسن أسلوب التحذير في قولها : ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً ، والا كتئاب إن كان فرحاً ، وهذا التنويع في الأسلوب والخطاب له أثره في التشويق واستثارة العواطف ولفت الأذهان ، وتنبيه المخاطب إلى ما يقال ، وما يجب أن يأخذ أو يعمل به .

وحبذا لو حفظت فتياتنا هذه الوصية وطبقنها في بيوتهن دون حساسية ،
إذا رأينا السعد يرفرف على بيوتهن ، فهو نص حيكم من أم أفنتها تجارب السنين
أرادت أن تضمن لابلتها الهناء في بيتها الجديد ، فوضح لها الحياة التي لم تألفها
من قبل ، ثم تنتقل إلى سرد ما يتوجب على المرأة نحو زوجها فتوصيها بمش
خصال جامعة ، خلاصتها : القناعة ، والطاعة ، والاعتناء بالمظهر اعتناء لا يخرج
عن الحد المطلوب المعتدل ، والنظافة ، وحسن التدبير ، والمحافظة على السر ،
ومراعاة حالة الزوج النفسية توفيراً لكرامتها واجتلاباً لهناءها (١) .

ووصفت أعراية كرم الأخلاق عند أمها فقالت :
« يا أمه ، من نشر ثوب الثناء فقد أدى واجب الجراء ، وفي كتمان الشكر
ججود لما وجب من الحق ، ودخول في كفر النعم » فقالت لها أمها :
« أى بذية : أطبت الثناء وقت بالجراء ولم تدعى للذم موضعاً ، إني وجدت
من عقل لم يجعل بزم ولا ثناء إلا بعد اختبار ، فقالت : يا أمه : ما مدحت حتى
اختبرت ، ولا وصفت حتى عرفت . قال الزوج : « ما وفيتك حقك ،
ولا شكرتك إلا بفضلك ، ولا أتيت إلا بطيب حسبك وكريم نسبك ،
والله أسأل أن يمتنى بما وهب منك » .

وهذا حديث امرأة عاقلة تعترف بفضل معلمها ، وتشيد بخلاله الكريمة ،
بعد أن عجمت عوده ، وسبرت غوره ، كما يدل حديثها على الاحترام المتبادل
بينها وبين زوجها ، وما أخرى فتياتنا أن يسلكن هذا السبيل ، ويمعن
وجوهن شطر هذا الدرب ، حتى يسعد الزوجان ، ويعيشا عيشة راضية .

(١) انظر الأدب الجاهلي من تأليف بالاشتراك مع الدكتور عبد الله العشري ،
مطبعة المنار — الرياض ١٩٧٨ .

وما أدوع نصيحة الجمانة^(١) بنت قيس بن زهير لجدها الربيع :
كان قيس بن زهير العبدى قد اشترى من مكة درعاً حسنة ، قسمى ذات
الفضول وورد بها إلى قومه فرآها همه الربيع بن زياد ، وكان سيد بنى زياد
فأخذها منه غصباً ، فقالت الجمانة بنت قيس لآبيها دعنى أناظر جدى فإن صلح
الامر بينكما ، وإلا كنت من وراء رأيك ، فأذن لها فأنت الربيع فقالت :

« إذا كان قيس أبى ، فإنك يا ربيع جدى ، وما يجب له من حق الأبوة
على إلا كالذى يجب عليك من حق البنوة لى ، والرأى الصحيح تبعته العناية ،
ويتجلى عن محضه النصيحة ، إنك قد ظلمت قيساً بأخذ درعه ، وأجد مكافأته
إياك سوء عزمه ، والمعاض منتصر ، والبادىء أظلم ، وليس قيس عن يخوف
بالوعيد ، ولا يردعه التهديد ، فلا تركن إلى منابذته ، فالحزم فى متاركته ،
والحرب متلفة للعباد ، كذهابة بالطارف والتلاد^(٢) والسلم أرخى للبال وأبقى
لأنفس الرجال ، وبحق أقول لقد صدعت بحكم ، وما يدفع قولى إلا غير
ذى فهم ، ثم أنشدت تقول :

أبى لا يرى أن يترك الدهر درعه وجدى يرى أن يأخذ الدرع من أبى
فرأى أبى رأى البخیل بماله وشيعة جدى شيعة الخائف الأبى

وقد لاحظنا فى أسلوب الجمانة الأدبية أنها حساسة فى استخدام الألفاظ
فاستهلّت حديثها باستعطاف جدها ، واستدراة حنانها ، فأثارت فى جدها حنان
الأب الكبير الحانى على بنيه وبناته ، وقد كانت مقدمة وصيتها براعة استهلال
وصلت بها إلى أعلى سويدها قلبه ، وكانت منطقية بارعة فى مناظرتها لجدها

(١) الجمانة بنت قيس بن زهير العبدى ، شاعرة من شواعر العرب فضلاً عن
أنها خطيبة لماحة وأديبة من أدبيات العرب راجع بلاغات النساء لطيف نور ص ١٢٩ .
(٢) الطارف والتلاد : الحديث والقديم .

لخذرتة من الظلم وعاقبته ، وأن المعادض منتصر والباديء أظلم ، وتستطيع أن تقول إن مناظرتها كانت عبادة عن مقدمات ونتائج ، أفحمت بها جدها ودفعته إلى الرضوخ إلى منطق الحق والإصاخة إلى صوت العدل .

ونلاحظ أن مناصحتها ومناظرتها خلت من السجع خروجاً على القاعدة المألوفة والعادة المتبعة في ذلك العصر ، وذلك أن الموقف موقف مناظرة ومجادلة ، والوقت ليس وقت صنعة أو زخرفة ، وإنما يحتاج إلى إبراز حقائق ناصعة تقنع الخصم بالبرهان والدليل .

الفصل الثاني

الوصف

الوصف عند العرب أكبر الفنون والأغراض التي تكلموا فيها ، وتفننوا في الإبداع في وصف كل ما يقع تحت حسيهم ، ويراه ناظرهم ، وتزخر به بيئتهم ، فوصفوا من الحيوان الإبل وافتنوا في ذلك بما لم تفقههم فيه أمة في وصف نفيس لديها ، ومن أبلغ وصاف الإبل : طرفة بن العبد .

كما وصفوا الخيل في ضروب خلقها وأحوال سيرها . ومن أشهرهم في ذلك امرؤ القيس وأبو دؤاد الإيماني ، ووصفوا منه أيضاً كواسر السباع ، وأوابد الوحوش ، وجوارح الطيور وصوادحها ، وخشاش الأرض وهوامها ، ووصفوا من النبات ضروبه وشيائه ، ومن السماء نجومها وكواكبها ، وسحابها ، وبروقها وأنوارها وأمطارها ، ومن الأرض سهلها وجبلها ، ومرابمها ومصايفها ، وخاصة الأطلال والديار والدمن ، وتعفية الرياح والأمطار لآثارها ، وشبهوها أحياناً برقم الكتب وصحائف الرهبان ، وبالوشم على ظاهر اليد ، وبالشوب الخلق أو المرقم ونحو ذلك .

ووصفوا أحوال الإنسان من ظعن وإقامة ، وقتال ونزال ومبارزة . كما وصفوا جماء المرأة وأخلاقها وطباعها ، والبارعات في هذا الفن : عصام الكندية وهند وجمعة بنتا الخس ، ونلاحظ أن وصفهن مستمد من البيئة وتشبيهاتهن مستوحاة مما يقع تحت ناظرهن ، وتدركه حواسهن فجاء وصفاً طبعياً غير متكلف ، وكما يمليه الخاطر بلا مبالغة ولا إغراق ، ويتجلى ذلك كما سيأتى في قول (عصام) نصف جمال أم لباس رأيت جبمة كالمرآة الصقيلة يزينها شعر حالك

كأذئاب الخيل المضفورة ، فالتشبيهات مأخوذة من يشتهن وما يشاهدنه في الصحراء من خيل ، وإبل ، وديار وأطلال ، وغناء الخائم ، ولمع البروق ، وهبوب النسيم إلى غير ذلك ، وقد جاء وصفهن فطرياً — كما قدمنا — خالياً من المبالغة المتعمدة التي تخرجه عن حد المألوف والمعقول ، فلم يعتمدن في وصفهن جناساً ، ولم يتكلفن طباقاً ، ولم يقصدن إلى تورية ، وما وقع ذلك من المحسنات ، على قلته ؛ فإنما كان عفواً لا تعمد فيه ، خلا بعضاً من سجع الكهان^(١).

كما نلاحظ أن أسلوب الوصف عند المرأة ينجح إلى التفصيل ، والتعليل الذي قد يخفى على العين العابرة ، والإسهاب في ذكر أوصاف الموصوف كلها سنحت لها الفرصة ، وفي هذا الميدان استطاعت المرأة أن تظهر من الإبداع في الوصف والقدرة على تفصيل أوصاف الموصوف بما قصر عنه باع الأدب الوصاف في بعض الأحيان ؛ وحينما نقرأ وصف المرأة ندرك مدى دقة وصفها ؛ وبلوغها أوج البلاغة التي يعجز عن بلوغها الواصفون ؛ ويقف دون إدراكها المترسلون .

* * *

وصف عصام الكندية لأم إياد بنت عوف بن علف الشيباني :

لما بلغ الحارث بن عمرو ملك كندة جمال أم إياد بنت عوف بن علف الشيباني وكانها وقوة عقلها ، أراد أن يتزوجها فدعا امرأة من كندة يقال لها عصام ذات عقل ولسان وأدب وبيان وقال لها : اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف ، فمضت حتى انتهت إلى أمها أمامة بنت الحارث فأعلمتها ما قدمت له فأرسلت أمامة إلى ابنتها وقالت : أي بنية ، هذه خالتك أتت إليك لتنظر بعض شأنك ، فلا تستري عنها شيئاً أرادت أن تنظر إليه ، من وجهه وخلق ، وناطقها فيما استنطقتك فيه . فدخلت عصام عليها فنظرت إلى ما لم تر عينها مثله قط ، بهجة وحسناً وجمالاً ، فإذا هي أكل الناس عقلاً وأفصحهم لساناً . فخرجت من عندها

وهي تقول : « ترك الخداع من كشف القناع ، فذهبت مثلاً » ، ثم أقبلت إلى الحارث فقال لها : « ما ورامك يا عصام ؟ » فذهبت مثلاً ، قالت : « صرح المخض عن الزبد » فذهبت مثلاً ، قال : أخبريني ، قالت : أخبرك حقاً وصدقاً : رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة ، يزينها شعر حالك ، كأذناب الخيل المضفورة ، إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن مشطته قلت عناقيد كرم سجلاها الواابل ^(١) وحاجبين كأنهما منخطا بقلم ، أو سودا بحمم ^(٢) قد تقوسا على عين الطيبة العبنسرة ^(٣) التي لم يرمعها فائض ، ولم يذعرها قسورة ^(٤) ، بينهما أنف كحد السيف لاصقول ، لم يخفيس به قصر ^(٥) ولم يبيض به طول ، حفت به وجنتان كالأرجوان ^(٦) . في بياض محض كالجمان ^(٧) مشق فيه فم كالخاتم : لذيد المبتسم ، فيه ثنايا غر ذوات أمشر ^(٨) ، وأسنان تبدو كالدرر ، وريق كالخمر له نشر الروض بالسحر يتقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان ، يحركه عقل وافر وجواب حاضر ، تلتقي دونه شفتان حمراوان كالورد ، يجلبان ريقا كالشهد ، تحت ذلك عنق كبابريق الفضة ، ركب في صدر كصدر تمثال دمية ^(٩) ، يتصل بهما عضدان متمثلان لحماً ، مكتنزان شحمًا ، وذراوان ليس فيهما عظم يُحس ، ولا عرق يُحس ، ركبت فيهما كفان ، دقيق قصبهما ، تعقد إن شئت منهما الأنامل وتركب الفصوص في حفر المفاصل ، وقد تربع في صدرها حقتان ، كأنهما رَمَأتان ، يخرقان عليها ثيابها ، تحت ذلك بطن طوى كطى القباطى ^(١٠) المدبجة ،

-
- | | |
|---|--------------------------------|
| (١) المطر الشديد الضخم العطر . | (٢) اللحم : الفحم . |
| (٣) المبهر : الرقيقة البشرة الناصعة البياض . | |
| (٤) تقصد الرماة من الصيادين . | (٥) لم يخفيس : لم يتأخر . |
| (٦) الأرجوان : صبغ أحمر . | (٧) الجمان : اللؤلؤ . |
| (٨) التحزير الذي فيها . | (٩) الدمية : الصورة المزخرفة . |
| (١٠) القباطى : ثياب كتان بيض كانت تعمل في مصر . | |

كسرى عكناً (١) كالقراطيس المدرجة (٢) تحيط تلك العكس بسحره كسندهن (٣) العاج المجلو ، خلف ذلك ظهر كالجدول ينتهى إلى خصر لولارحة الله لا يتر ، تحتها كفل (٤) يقعدها إذا نهضت وينهضها إذا قعدت كأنه دعص (٥) رمل لبسه سقوط الطل ، يحمله فخذان لفساءوان (٦) كأنهما نهضيد الجمان ، تحتها ساقان خدلتان كالبردى (٧) وشيئاً بشعر أسود كأنه حلق الزرد ، يحمل ذلك قدمان كخدو اللسان ، فتبارك الله مع صغرهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما ، فأما سوى ذلك فتركت أن أصفه غير أنه أحسن ما وصف واصف بنظم أو نثر . فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوجه إياها (٨) .

فما أبدع وصف عصام الكندية ، وما أرق حديثها ، وما أجمل التشبيهات الجمالية التي تتخلل القطعة ، إن القطعة كما وصفتها عصام أبلغ ما وصفه واصف بنظم أو نثر ، وقد حشدت عصام في هذه الخطبة حشداً من العبارات القوية الرنانة ، والألفاظ الضخمة والتشبيهات والاستعارات ، والتمثيل والصور ، فجاءت قطعة أدبية رائعة محكمة الصلابة والأسر .

وقد جرت كعادة عصرها في استخدام صنعة السجع في غير ما تكلف ولا تطيع أو تصنع ، وأضفت على العروس أبهى آيات الصفات الخلقية والخلقية التي يندشدها الرجل في المرأة ، من جهة كالمرآة الصقيلة وشعر حالك كالليل ، وحاجب كأنما خط بقلم ، وعين كعين الظبية الرقيقة ، وأنف كحد

(١) العكس جمع عكنة (كفرصة) وهى ما انطوى ونثنى من لحم البطن سمنا .

(٢) المدرجة : المطوية . (٣) المدهن : قارورة الدهن .

(٤) كفل : عجز . (٥) الدعص : السكثيب من الرمل المجتمع .

(٦) اللفاء : الضخمة الفخذين . (٧) خدلة : ضخمة ، البردى : ورق البردى .

(٨) المقد الفريد ٣ — ٢٣٥ ، وجمع الأمثال ٣ — ١٤٣ ، وجمهرة الأمثال .

٢ — ٢٧ ، نقلا عن كتاب جمهرة خطب العرب ج ١ : ١٤٤ .

السيوف الصفيلى ، ووجنات حمراء كالأرجوان ، وفم كالخاتم ، لذيذ الأبتسام ،
وأسنان كاللؤلؤ وريق كالخمر ، نشره يملأ الدنيا مسكاً وعطراً إلى غير ذلك من
الصفات الخلقية ، وقد بلغت الغاية ، وأدبت على النهاية ، فى وصفها خصر المرأة
بالضمور والنحول لدرجة أنه من شدة نحوله وضموره يكاد ينبتر ، وما أجمل
الاستعارة فى قولها : يخرقان عليها ثيابها ، وقولها : تحته كفلى يقعد بها إذا نهضت ،
وينهضها إذا قعدت ، ثم تتمجج فى آخر القطعة كيف تطبق قدمها اللتان كخدو
اللسان حمل هذا الشيء الثقيل وتسير به ، وأظن أن هذه الصفات التى ساقها
عصام ، ربما تنطبق على ما كان مألوفاً ومرغوباً من المرأة فى عصرها (من
غاظ الفخذين وامتلاء الذراعين والساقين ، وبطن ملى كسرى عكناً وتثنى من
لحم البطن سمناً) .

أما فى عصرنا الحالى فالمرغوب فى الفتاة ، القدر الرشيق الذى يشبه القباطى
المدججة والقرطيس المدرجة (كما حكى ذلك عصام) والبطن الذى تبرأ من
الشحم ، وليس الذى يتثنى من لحم البطن سمناً وقد وفقت عصام إلى حد ما فى
وصف أوصاف المرأة الجسدية والخلقية ، أما الصفات الخلقية والنفسية
فأوجزتها فى كلمات معدودات : لسان ذو فصاحة ، وبيان يحركه عقل وافر
وجواب حاضر ، وكأنما تشير إلى قول الشاعر :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وبهذا اكتملت الصورة الخلقية والخلقية التى رسمتها عصام لأم إياس
(العروس) فجاء لوحة فنية رائعة تخلب العقول وتأسر القلوب ، فلا غرو إذا
سارع الحارث بن عمرو إلى أبيها لخطبها فزوجه إياها (١) .

(١) فى مجمع الأمثال وجمهرة الأمثال أن الذى تزوج أم إياس هو الحارث
ابن عمرو والحارث هذا هو جد امرئ القيس وذكر صاحب العقد الفريد أن الذى =

ومن حديث وصف المرأة أيضاً :

أن جمعة^(١) وهند^(٢) ابنتا الخس وافتتا سوق عكاظ فاجتمعتا بين يدي القليس الكناني . فقال لهما : إني سائلكما لأعم أيكما أبسط لساناً وأظهر بياناً وأحسن للصفة إتقاناً ، قالتا سلنا عما بدا لك ، فستجد عندنا عقولا زكية وألسنة قوية وصفة جليلة ، قال القليس : أي ذكور الخيل أحب إليك يا جمعة ؟

== تزوجها هو عمرو بن حجر . وأنها ولدت له الحارث بن عمرو جد امرئ القيس غير أننا نلاحظ أنه قال في مقدمة هذا الوصف : دثم أقبلت عصام إلى الحارث فقال لها : ما ورامك يا عصام ؟ ، فيفهم منه أن الذي تزوجها هو الحارث بن عمرو . يرجع إلى كتاب العقد الفريد ٦ / ٨٣ ، كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهن ،

(١) جمعة شاعرة من شواعر العرب وأديبة من أديبات العصر الجاهلي وكانت تتردد دائماً على سوق عكاظ فتعرض شعرها ونثرها على القليس الكناني .

(٢) كما كانت أختها هند شاعرة وخطيبة ذات فصاحة وبلاغة وحكمة ، (راجع أعلام النساء ج ١ : ٢٠٦ و ج ٢ : ٢٣١ ، طبعة بيروت مؤسسة الرسالة) . وقد اختلف العلماء والمؤرخون في نسب هند وجمعة ، فمن قائل إنهما أختان وإنهما ابنتا الخس الإيادي ، ومن قائل إن هنداً هي ابنة الخس ، وأما جمعة فابنة حابس ، وهما جميعاً حكيمتان يضرب بهما المثل في جلال الحكمة وحسن البيان وفيهما يقول الجاحظ : من أهل الدهاء ومن أهل اللسن واللقن ، والجواب العجيب والكلام الصحيح والأمثال السائرة والمخارج العجيبة هند بنت الخس وهي الزرقاء وجمعة بنت حابس والقليس سيد من سادات كنانة ، وحكيم من حكمائها وكاهن من كهان العرب ، وبما عرف عنه أنه كان ينسأ الشهور فيحل حرامها ويحرم حلالها وفيه تقول هند بنت الخس :

إذا الله جازى منعاً بوفائه فجازاك عنى يا قليس بالكرم

المرأة العربية ج ١ : ١٧٨ .

انظر البيان والتبيين — نسخة خطية من ٨٨ — ٩٠

قالت أحب المنسوب جدّه (١) ، الأسيل خده (٢) ، السريع شده (٣) ، الطويل مدّه (٤) ، الشديد هدّه (٥) ، الجليل قدّه .

ثم قالت هند : هذا فرس خليق إن طالب لم يلاحق ، وإن جورى لم يسبق ، وإن بوهى لم يفق ، وغيره أحب إلىّ منه . قال القلس . فقولى :
قالت : أحب الوثيق الخلق (٦) الكريم العرق ، الكثير السبق ، الشديد الذاق (٧) ، يمر من البرق .
قال القلس :

فأى إناث الخيل أحب إليك يا جمعة ؟ قالت : أحب كل حيية الفؤاد ، سبوح جواد ، سلسلة القياد ، شديدة الاعتماد ، فى الدفع والاشتداد ، ذات هباب وثماد (٨) .

قال القلس كيف تسمعين يا هند ؟

قالت : هذه فرس صاحبها خليق ألا يفوته أمر ، ولا يهوله ذعر ، إذا شاء كرت ، وإذا هاب فر ، وغيرها أحب إلىّ منها .
قال : فقولى : قالت : أحب الشديد أسرها (٩) ، البعيد صبرها ، القليل

(١) أى الذى يذنبى نسبه إلى جواد كريم وكانت العرب تعزى بأنساب خيلها وتحفظها كما تحفظ أنساب الرجل ، راجع أنساب الخيل .

(٢) الأسيل خده أى أنه يطويل مسترسل .

(٣) شده : أى سريع عدوه . (٤) مدّه ، المد : بسط الجسم وارتفاعه .

(٥) هدّه : هدّ الفرس ضرب الأرض بحوافره .

(٦) الكريم العرق ، المحكم التسكوين .

(٧) الذلق : ذلق كل شيء حدته ومضاؤه .

(٨) الهباب : النشاط فى الأرض ، والثماد الحفر فى الأرض .

(٩) الأسر : قوة الجسم وإحكام الخلق .

فترها ، الجميل قدرها ، السريع مرها ، المخوف كرها .

قال القلمس : كلتا كما محسنة . فأى ذكور الخيل أبغض إليك يا جمعة ؟

قالت : أبغض كل بليد ، وادم الوريد^(١) ذا ركال شديد^(٢) لا ينهيك هارباً ، ولا تظفر به طالباً ، ولا يترك شاهداً ولا غائباً .

قال القلمس : كيف تسمعين يا هند ؟

قالت : هذا فرس إمساكه بلاء ، وعلاجه عناء ، وركوبه شقاء ، وغيره أبغض إلىّ منه .

قال فقولى : قالت هند : أبغض السريع البهر^(٣) ، البطيء الحصر^(٤) السكيت الطفر^(٥) . قال القلمس : كلتا كما محسنة .

فأى النساء أحب إليك يا جمعة : قالت أحب الغريرة^(٦) العذراء الرعبوبة العيطاء^(٧) الممكورة ، اللفاء^(٨) ، ذات الجمال والبهاء ، والستر والحياء ، البضة^(٩) الرخصة كأنه فضة بيضاء .

قال القلمس : كيف تسمعين يا هند ؟

قالت : وصفت جارية ، هى حاجة الفتى ، ونهية الرضا ، وغيرها أحب إلى منها ، قال فقولى : قالت أحب كل مشبعة الخلخال ، ذات شكل ودلال ، وظرف وبهاء وجمال .

(١) الوريد : عرق فى العنق . (٢) الركال : ضربك الفرس برجلك ليعدو .

(٣) البهر : انقطاع النفس . (٤) الحصر : الاتحباس عن المير .

(٥) السكيت الطفر : الفرس العاشر من خيل السباق وهو آخر خيل الحلبة .

(٦) الغريرة : الطيبة القلب .

(٧) الرعبوبة : الفتاة البيضاء الحلوة العيطاء : طويلة العنق .

(٨) الممكورة : الممتلئة الساقين فى بياض ولين ، واللفاء السمينة الطويلة .

(٩) البضة الرخصة ، المرأة الليثة الممتلئة .

قال القلمس : كلتا كما محسنة فأى النساء أبغض إليك يا جمعة ؟

قالت أبغض كل سافع بذية ^(١) جاهلة غبية حريصة دنية ، غير كريمة ولا سرية ^(٢) ، ولا ستيرة ولا حمية ، قال : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : وصفت امرأة صاحبها خليق ألا تصالح له حال ، ولا ينعم له بال ولا يثمر له مال وغيرها أبغض إلى منها ، قال فقولى : قالت أبغض المتجرفة الشوهاة ^(٣) ، المنفوخة الكبداء ^(٤) المنفص الوقصاء ^(٥) الحشمة الزلاء ^(٦) التى إن ولدت لم تنجب ، وإن زجرت لم تعقب ، وإن تركت طفقت تصخب .

قال القلمس : كلتا كما محسنة ، فأى الرجال أحب إليك يا جمعة ؟

قالت : الحر النجيب ، السرى القريب ، السمع الحسيب ، الفطن الأريب ، المصقم الخطيب ، الشجاع المهيّب .

قال القلمس : كيف تسمعين يا هند ؟

قالت : وصفت رجلاً شجاعاً ، سيّداً جواداً ينهض إلى الخير مساعداً ، ويسرك غائباً وشاهداً ، وغيره أحب إلى منه ، قال فقولى : قالت أحب الرّحب الدّاع ، الطويل الباع ، السخىّ النفّاع ، المنيع الدّفاع ، الدهمى ^(٧) المطاع ، البطال الشجاع الذى يحل باليفاع ^(٨) ويهين فى الحمد المتاع .

(١) السّافِع من النساء : الشديدة الصخب السيئة الخلق .

(٢) السرية : الشريفة .

(٣) المتجرفة : الشديدة الهزال .

(٤) المنفوخة : المتسعة البطن ، والكبداء المرأة الضخمة الوسط البهيمية المشى .

(٥) المنفص : المرأة البذيئة القليلة الحياء ، القليلة الجسم الكثيرة الحركة ،

والكثيرة الاختيال والمنفص والوقصاء : القصيرة العنق .

(٦) الحشمة : القليلة اللحم ، الدقيقة الساق والزلاء : الخفيفة الوركين .

(٧) الدهمى : الكريم .

(٨) اليفاع : المرتفع من الأرض وإنما يحل بها حتى يرى السامعون فاره فيسرعون

إليه لكرمه ونجدته .

قال : كلتا كما محسنة ، فأى الرجال أبغض إليك يا جمعة ؟ قالت :
أبغض السآلة اللئيم ، البغيض الزنيم^(١) الأشوه الدميم ، الظاهر المعصوم^(٢)
الضعيف الحيزوم^(٣) قال : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : ذكرت رجلاً
خطره صغير ، وخطبه يسير ، وعيبه كثير وأنت ببغضه جدير ، وغيره
أبغض إلى منه .

قال فقولي : قالت : أبغض الضعيف النخاع^(٤) ، القصير الباع ، اللاحق
المضياع الذى لا يكرم ولا يطاع ، فقال أحسنتهما ، وأجملتهما فبارك الله فيكما ،
ووصاهما وحباهما^(٥) .

وقد وفقت الأدببتان أيما توفيق في وصف الخيل ذكورها وإناثها ،
وأحبها وأبغضها وصفاً يقصر عنه الخيال معددتين مآثر ومكارم الخيل
في غدواته وروحاته وكيف أنه في سبقه كأنه يمر من البرق في خفة ونشاط
وحدة ومضاء ، كما حذرا من الفرس المتبلد ، المنتفخ الوريد الذى لا يسير
إلا بعد ركل شديد ، كما أنه لا يسر صاحباً ، ولا ينجى هارباً ، ولا يترك
شاهداً ولا غائباً .

كما وفقت الأدببتان في وصف النساء أحسن وأبغضهن إلى القلوب في لوحة
فنية بادرة ترسم صورة ناطقة لما يجب أن تكون عليه المرأة خالقاً وخالقاً ،

(١) والزنيم : الشرير .

(٢) المعصوم : بقايا الخضاب .

(٣) الحيزوم : الصدر أو وسطه وضعفه كناية عن الحق وضيق الأفق .

(٤) تريد بالضعيف النخاع : العاجز الذى لا يستطيع حولا ولا طولا .

(٥) راجع كتاب بلاغات النساء ص ٥٨ : ٦٢ ، بغداد ١٣٦١ هـ ، وانظر

المرأة العربية ج ١ ص ١٧٨ : ١٨١ الطبعة الأولى ١٩٢١ م .

وقد قدمت لنا في باب وصف النساء طاقة موفقة فينانة في رياض الأدب ،
وشجرة مورقة في حدائق البيان ، وجدولا فياضاً في بحار الحكمة الهادفة في
طراز جزل متين وأسلوب خلاب رصين يعجز عن وصفه المنشئون ويقصر
عن بلوغه الكتاب والمنسولون .

* * *

وفي رواية أخرى ذكر صاحب كتاب الأمل أن رجلاً أتى هند بنت
الخنس^(١) الإيادية يستشيرها في امرأة يتزوجها ، فقالت :
انظر رمكاء جسيمة^(٢) أو بيضاء وسيمية في بيت جد ، أو بيت حد ، أو بيت
عز ، قال : ما تركت من النساء شيئاً ؟ قالت بلى : « شر النساء تركت : السويداء
الممرض^(٣) والخيبر المحياض^(٤) والكثيرة المظاظ^(٥) وقيل لها أي النساء أسوأ ؟
قالت : « التي تقعد بالغناء وتملأ الإنياء وتمتدق^(٦) ما في السقاء ، قيل : فأى النساء
أفضل ؟ قالت : التي إذا مشيت أغشيت^(٧) وإذا نطقت صرصرت^(٨) متوركة
جارية في بطنها جارية تتبعها جارية ، قيل : فأى الغلمان أفضل ؟ قالت : الأسوق
الاعتق^(٩) الذي إن شب كأنه أحق ، قيل فأى الغلمان أفسل ؟^(١٠) قالت :
الأويقص القصير العضد^(١١) العظيم الحاوية^(١٢) ، الأغبير الغشاء الذي يطبع
أمه ، ويمصى عمه ،^(١٣) .

(١) انظر ترجمتها السابقة ص ٢٠ .

(٢) الرمكاء : السمراء والرمكة كحمرة لون الرماد .

(٣) الممرض التي تمرض كثيراً . (٤) الكثيرة الحيض .

(٥) المظاظ ، منازعتها ومشادتها زوجها . (٦) تمتدق : تخرج .

(٧) أغشيت : أثارت الغبار في مشيتها . (٨) صرصرت : أحدثت صوتها .

(٩) الأسوق : الطويل الساق ، والاعتق الطويل العنق . (١٠) الأفسل : الأرذل .

(١١) الأويقص : تصغير أوقص وهو من يدنو رأسه من صدره .

(١٢) الحاوية : المعدة . (١٣) انظر الأمل ج ٢ : ٢٦٠ .

وقيل لها أى الرجال أحب إليك ؟ قالت : السهل النجيب ، السمع الحسيب
الندب الأريب^(١) السيد المهيّب ، قيل لها : فهل بقي من الرجال أفضل من هذا ؟
قالت بلى الأهيف الهفوف^(٢) الأنف العياف ، المفيد المتلاف ، الذى يخيف
ولا يخاف ، قيل لها فأى الرجال أبغض إليك ؟ قالت الأورث النشوم^(٣) الوكل
الستوم ، الضعيف الحيزوم اللئيم الملوم ، قيل لها فهل بقي أحد شر من هذا ؟
قالت نعم : الأحمق النزاع المضاع المضاع الذى لا يهاب ولا يطاع . قالوا :
فأى النساء أحب إليك ؟ قالت : البيضاء العطرة ، كأنها ليلة قرة . قيل :
فأى النساء أبغض إليك ؟ قالت : المنفص القصيرة التى إن استنطقتها سكنت
وإن سكنت عنها نطقت^(٤) .

وقال لها أبوها يوماً : أى المال خير ؟ قالت : النخل الراسخات فى الوحل ،
المطعمات فى المحل . قال وأى شيء ؟ قالت : الضأن قرية لا وباء بها ، تنجبها
رجالاً^(٥) وتحلبها علالاً^(٦) وتجزئها جفلاً^(٧) ولا أرى مثلاً مالا ،
قال : فالإبل مالك تؤخرينها ؟ قالت : هى أذكاء الرجال ، وإدقاء الدماء ،
ومهور النساء ، قال : فأى الرجال خير ؟ قالت :

خير الرجال المرهقون كما خير تلاح البلاد أوطاؤها^(٨)

(١) الندب : الخفيف فى الحاجة والظريف والنجيب .

(٢) المراد به رقة الخاصرة ونحوها . (٣) الأورث : الأحمق .

(٤) ذيل الأمالى : ١٢٠ .

(٥) الرجال : جمع رخل كحمل وكنف وهو الأنثى من أولاد الضأن .

(٦) علالا يقال عالت الناقة وهى أن تحلب أول النهار ووسطه وآخره ، والاسم
علال ككتاب .

(٧) الجفال : الكثير من الصوف .

(٨) المرهق : الرجل الذى ينشأه الناس .

قال أيهم ؟ قالت : الذى يُسأل ولا يسأل ، ويضيف ولا يضاف ، ويصلح ولا يصلح ، قال : فأى الرجال شر ؟ قالت : د الثطيط الثطيط^(١) الذى معه سوط^(٢) الذى يقول أدركونى من عبد بنى فلان فأنى قاتله أو قاتلى ، قال فأى النساء خير ؟ قالت التى فى بطنها غلام ، ويجلس على وركها غلام ، ويمشى وراءها غلام ، قال فأى الجمال خير ؟ قالت السَّبَّحَل الرَّجْل^(٣) الراحلة الفحل قال : أرأيتك الجذع^(٤) ، قالت : لا يضرب ، ولا يدع ، قال : أرأيتك الثنى^(٥) قالت : يضرب وضرا به أنى^(٦) قال أرأيتك السَّدَس^(٧) قالت : ذاك العرس^(٨) .

(راجع ذيل الأمالى)

وقيل لها أى النخيل أحب إليك ؟ قالت : ذو الميعة الصنيع^(٩) ، السليط^(١٠) التليع^(١١) الأيد^(١٢) الضليع^(١٣) الملهب السريع . فقيسل لها أى الفيوث أحب إليك ؟ قالت ذو الهيدب المنبعق^(١٤) ، الأضخم المؤتلق^(١٥) ، الصخب المنبتق^(١٦) ، وقيل لها ما مائة من المعز ؟ قالت : مويل يشف الفقر من ورائه ،

(١) الثطيط الذى لا الحية له ، والثطيط كثير الكلام يأتى بالخطأ والصواب من غير معرفة .

(٢) سوط : تصغير سوط . (٣) السَّبَّحَل الرَّجْل : البعير الضخم .

(٤) أرأيتك : أخبرنى ، الجذع : البعير يكون فى السنة الخامسة .

(٥) الثنى : البعير يكون فى السادسة وألقى ثنيته . (٦) والصواب أنى : أى بطىء .

(٧) السدس : البعير إذا كان فى الثامنة . (٨) العرس : الأسد .

(٩) تقول ماع^١ الفرس يبيع إذا جرى ، وصنعة^٢ الفرس : حسن القيام عليه

والصنيع ذلك الفرس . (١٠) السليط : الشديد ، والتليع : الطويل العنق .

(١١) الأيد : القوى ، والضليع وصف من ضلع^١ كفضض ضلاعة ، وهى القوة

وشدة الأضلاع . (١٢) الهيدب : السحاب المتدلى والمنبتق : الملىء بالمطر .

(١٣) المؤتلق من أثلق البرق إذا لمع .

(١٤) والصخب : شدة الصوت ، المنبتق : المتفجر

مال الضعيف ، وحرفة العاجز ، قيل فما مائة من الضأن ؟ قالت : « قرية لا حمى بها ، قيل : فسا مائة من الإبل ؟ قالت : بنح^(١) جمال ومال ، ومنى الرجال ، قيل : فما مائة من الخيل ؟ قالت : طغى من كانت له ولا يوجد ، قيل فما مائة من الحير ؟ قالت عازبة الليل^(٢) لا ابن فيحلب ولا صروف فيجز ، إن ربط (غيرها) أدلى^(٣) وإن ترك ولى ، وقيل لها : من أعظم الناس في دينك ؟ قالت : من كانت لى إليه حاجة . (شرح العيون ١٨٤)

وقالت هند : « أخبث الدواب ذئب الغضا^(٤) وأخبث الأفاعى أفعى الجذب ، وأسرع الظباء ظباء الحلب^(٥) وأشد الرجال الأعرج^(٦) ، وأجمل النساء الفخمة الأسيلة^(٧) ، وأقبح النساء الجمجمة القفيرة^(٨) وآكل الدواب

(١) بنح كقند أى عظم الأمر ، وبجشم تقال وحدها وتكرر بنح بنح الأول منون مكسور ، والثانى مسكن ، ويقال فى الافراد بنح ساكنة الخاء وبنح مكسورة وبنح منونة مضمومة ، ويقال بنح بنح مسكنين وبنح بنح منونين مكسورين وبنح بنح مكسورين مشددين منونين وهى تقال عند الرضا والإعجاب بالشئ .

(٢) يقال جمل عازب أى لا يروح على الحى من الغروب وهو الغيبة والذهاب وقولها (خرى المجلس أى بما تحدثه من التهيق المزعج) .

(٣) الإدلاء : أى أخرج قضيبه ليجول ، العير : الحمار .

(٤) الغضا : شجر له جمر يبقى طويلا .

(٥) الحلب : نبت ، قال حمزة : العرب تسمى ضروبا من البهايم بضروب من المراعى تنسبها إليها فيقولون : ظبي الحلب وتيس الريلة (نبات شديد الخضرة) وشيطان الحماطة (والحماطة كسحابة . شجر شبيه بالتين وهو أحب شجر إلى الحيات) .

(٦) العرجف بالتحريك ذهاب السمن . (٧) الطويلة المسترسلة .

(٨) الجمجمة مؤنث الجمهم : الوجه الغليظ المجتمع السمع والقفرة : القليلة القففر وهو الشعر .

الرغوب^(١) وأطيب اللحم عوذ^(٢) ، وأغظ المواطىء الحمى على الصفا ،
وشر المال ما لا يذكر ولا يزكى^(٣) وخير المال سكة مأبورة^(٤) أو مورة
مأورة^(٥) . (راجع مجمع الأمثال : ١٧٤)

وقد جاءت لغة « هند » مسجوعة بحكمة الصنعة في السجع وهى تشبه أسلوب
السكاهنات إلى حد بعيد ، ولعل هند تعلمت السجع في هذا المقام إذ رأته
ضرورياً يساعدها على تحقيق غرضها المنشود وهو إعجاب السامعين بها ، لأن
للسجع رنيناً موسيقياً ، ووقفاً جميلاً مؤثراً في النفس ، تجذب موسيقاه قلوب
السامعين ، وتملك عواطفهم وتخدر وعيهم ، وتحدثهم بما تزعم أنها عالمة به
ومحيطة بمعرفة إحاطة السوار بالمعصم ، فيسمع الناس قولها ويدعون لإيـه
مصدقين بما يقول غير متبصرين في نقد ما يسمعون وتقصى معانيه .

كما نلاحظ أنها تميل إلى الغموض والغرابة ، ولعلها تعلمت في ذلك أيضاً
ليذهب الناس في كلامها مذاهب متشعبة ، وطرائق مختلفة ، وفي هذا ما يضاف
على مكانتها الاجتماعية الاحترام والتقدير والإكبار والإجلال ، وهذا ما يبر
المرأة ويرضى غرورها :

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يفرهن الشاء
والنقد الذى يوجه إلى هند أنها ركزت على الماديات أكثر من المعنويات

(١) الرغوب : كل مرضعة . (٢) العوذ ما عاز باللحم من العظم .

(٣) زكى كرضى نا وزاد كوكا يزكو . وذكى تذكية : سمين

(٤) المأبورة : المستصلحة من أبرت النخل إذا لقحته وأصلحته .

(٥) مأورة : أى كثيرة الولد .

والرواية هنا (فى معرض حديث هند وجمعة ابنتى الخس غير الرواية التى
أوردنا فيما مضى عن كتاب بلاغات النساء ، وأثبتناها إتماماً للفائدة) .

وأهتمت بالمظهر دون الجوهر لأن المرأة بطبيعتها مواهبة بالزينة وبالمظهر الخلاب وتفرها الظواهر وإن ساء المخبر فالجواهر الزائفة الحسنة الشكل المنسجمة ؛ ففي وصفها المرأة مثلاً ركزت على ما تتمتع به المرأة من محاسن جسمية ، وصفات أنثوية كأن تكون بيضاء أو سمراء ومن بيت مشهود له بالمجد ، وأسوأ امرأة عندها هي السويداء الممرض ، والخيراء المحياض الخ .

وكنا نتوقع أن تهتم بالمعنويات أكثر من هذا كأن تكون المرأة المختارة محنكة واعية ، وعلى قدر كبير من الدراية والمعرفة كفاطمة بذت مر الخثمية ، والشفاء بذت عبد الله ابن عبد شمس القرشية العدوية وغيرهما ، ولكن يبدو أن طبيعة البيئة وطبيعة العصر كانت تقتضي ذلك ، فلم تكن هناك مدارس يتردد عليها الناس ليتعلموا ولم تكن ثمة حاجة تستدعي أن يتعلم النساء وأن تتشقف الفتيات لأن الحكم الغالب على الناس شيوع الأمية .

ومثل هذا يقال في وصفها للبال والجمال والخيل والذئاب والظباء ، فكلمها أوصاف مستوحاة من البيئة العربية ، وهى وإن كانت بارعة إلا أنها لم تكن تبلغ دقة الوصافين الحضريين فضلاً عن الأدباء الذين عاشوا معهم في البيئة نفسها فإنهم حلقوا في هذا الفن وجالوا في الوصف جولات فوصفوا الطبيعة الناطقة والطبيعة الصامتة ، والطبيعة الحية والمتحركة ، (١) .

* * *

وبما يجرى مجرى هذا الوصف قول ماوية امرأة حاتم :
أصابتنا سنة^(٢) اقشعرت^(٣) لها الأرض ، واغبر^(٤) أفق السماء ، وراحت
الإبل حـدباً^(٥) حدابير^(٦) ، وضنت المراضع على أولادها فما تبض^(٧) (٤)

(١) المرأة في الشعر : ١٦٤ . (٢) اقشعرت الأرض : أقحلت .

(٣) الحدب : جمع أحذب ، وهو ما دخل صدره وخرج ظهره ، وإنما تظهر الإبل كذلك إذا اشتد بها الجوع لا محال المراعى . والحدابير : جمع حدبار — بكسر الحاء — وهى الناقة الضامرة أو التى ذهب سنابها . (٤) تبض : تسيل .

ببطرة ، وحلفت السنة^(١) المال ، وأيقنا بالهلاك . فوالله إنا لنرى ليلة صنبور^(٢) بعيدة ما بين الطرفين ، إذ تضاعى^(٣) صبيتنا جوعاً ، عبد الله وعدى وسفانة . فقام حاتم إلى الصبيين ، وقت أنا إلى الصبية . وأقبل يملأني بالحديث ؛ فعرفت ما يريد ، فتناومت ، فلما تهورت^(٤) النجوم ، إذا شيء قد رفع كسر البيت^(٥) ثم عاد . فقال حاتم : من هذا ؟ قالت : جارتك فلانة ، أتيتك من عند صبية يتعاونون عواء الذئاب ، فما وجدت معوّلاً إلا عليك يا أبا عدى . فقال : أعجلهم فقد أشبعك الله وإياهم ! فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشى جنائبها أربعة ، كأنها نعامة حولها رئالها^(٦) . فقام حاتم إلى فرسه فوجأ^(٧) لبسته بمديّة نحر . ثم كشطه عن جلده ، ودفع المديّة إلى المرأة ، فقال لها : شأنك ! فاجتمعنا على اللحم المشوى نأكل . ثم جعل يمشى في الحى يأتهم بيتاً بيتاً فيقول هبوا أيها القوم ، عليكم بالنار ، فاجتمعوا . والتفع في ناحية ينظر إلينا . فوالله ان ذاق منه منزة^(٨) وانه لأحوج إليه منا . فأصبحنا وما على ظهر الأرض من الفرس إلا عظم وحافر . فأنشأ حاتم يقول :

مهلاً نوارٍ ألقى اللوم والعذلاً ولا تقولى لشيء فات ما فعلاً
ولا تقولى لمال كنت مهلكه مهلاً وإن كنت أعطى السهل والجبل
يرى البخيل سبيل المال واحدة إن الجواد يرى في ماله سبلاً^(٩)

(١) التحليق : وجع يصيب الخلق وتلك كناية بديمة عن الفقر والمسغبة ، تقول : أن المال من لبل وخيل ومال انقطع صوته .

(٢) ليلة صنبور باردة شديدة الريح .

(٣) تضاعوا : تضاعوا .

(٤) تهورت : انحدرت إلى المغرب .

(٥) العكسر : الشقة السفلى من الخباء .

(٦) الرئال — جمع رأل — أولاد النعام . (٧) وجأ : قطع .

(٨) ان نافية بمعنى ما والمزعة القطعة من اللحم .

(٩) العقد الفريد ج ١ ص ١٠٨ والميداني .

وامرأة حاتم تصور لنا في هذه الباقية النثرية كرم هذه العائلة الحاتمية فقد ضربت المثل الأعلى في الجود والكرم (لأن الكرم وإن اشتهر به العربي إلا أنه في رأي كان كرمًا محدوداً بدليل أنه لم يشتهر به في الجزيرة العربية كلها إلا حاتم وعائلته) .

فلقد كانت غنية بنت عفيف أم حاتم الطائي من أسخى النساء وأقراهن للضيف وكانت لا تمسك شيئاً تملكه ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها ومنعوها مالها ، ومكنت دهرًا لا تنال شيئاً مما تملكه ، حتى إذا ظن إخوتها أنها قد وجدت ألم الحاجة وارعوت أعطوها صرمة من إبلها فجاءتها امرأة من هوازن تسألها ، فقالت لها دونك هذه الصرمة تخفيها فقد والله مسنى من ألم الجوع ما آليت معه ألا أمنع الدهر سائلاً شيئاً ثم أنشدت :

لعمري إنى عضنى الجوع عضه	فما آليت إلا أمنع الدهر جائعاً
فقلوا لهذا اللأيمى اليوم اعفى	فإن أنت لم تفعل فعرض الأصابع
فإذا عسيتم أن تقولوا لاختمكم	سوى عذلكم أو عذل من كان صانعاً
وماذا ترون اليوم إلا طبيعة	فكيف بتركى يا ابن أم الطبايع

وكانت سفانة بنت ابنها حاتم بكبتها وأبها في الجود ، وكان أبوها يعطيها الصرمة من الإبل فتبها كلها ؛ فقال لها أبوها ، يا بنية : « إن الغويين إذا اجتمعوا في المال أنلفاه فإما أن أعطى وتمسكى ، وإما أن أمسك وتعطى ، فقالت : والله لا أمسك أبداً ، فقال : وأنا والله ما أمسك أبداً ، قالت : فلا نتجاوز فقاصمها ماله وتباينا^(٢) .

(١) ذيل الأمالى ٣٣ وانظر المرأة العربية والمرأة في الشعر الجاهلى ٣٦٢ .

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة .

ونأخذ من الآيات التي تمثل بها حاتم :

مهلاً نوار ألقى اللوم والعذلاً (الآيات)

أن المرأة العربية كانت ضنينة بمال زوجها حريصة عليه وليس من الصواب أن يدعى الرجل أنها لامتة على السكرم وأنه خالفها . ليتخذ من ذلك ذريعة إلى تعظيم نفسه ، لأن هذا التخيل منقصة له ، إذا كان الشعراء صادقين في تصويرهم للوم النساء على الجود ، وربما كان هذا منهن حرصاً على مال الزوج وربما كان بخلاً ، وهذا لا ينفي أن بعضهن كريمات وإن كن قليلاً .

ولعل السر في تفوق الرجال على النساء في السكرم أن الرجل أكثر اختلاطاً بالمجتمع من المرأة ، وأكثر تعارفاً بالناس منها ، وتضطره الظروف في بعض الأحيان إلى السفر والترحال — بحكم عمله — رقد تبهره بعض أياد يقوم بها نحوه بعض الناس لتكريمه ، وهذا لا بد أن يشكر هذه الأيادي بضرب أمثلة أكثر كرمًا وأريحية ، أما المرأة فهي قليلة الاحتكاك إذ هي متفرغة لبيتها الذي تود أن تدعمه بكل ما أوتيت من ثروة وترى إنفاق شيء منها في السكرم يهدد بيتها ويفلس ميزانيتها ، كما عرفت المرأة بحسن التدبير ورعاية المال من قديم الزمان ، والرجل قد يغفل عن كل هذه الأمور أحياناً فلا يهتم إلا لإرضاء لإخوانه والظهور أمامهم بمظهر حاتم الطائي .

ولما فارق رسول الله ﷺ مكة مهاجراً إلى المدينة ، وخرج معه صاحبه أبو بكر ورأته عبيدة بن أريقط . فمروا على خيمة أم معبد — وكانت امرأة برزة جلدة تحسبي بفناء السكبة ، ثم تسقى وتطعم — فسألوها لحماً وتمراً ليشتروه منها ، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك . وكان القوم من ثملين مسننين^(١)

(١) مسننين : أى أصابهم القحط .

فَنظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى شَاةٍ فِي كَسْرِ الخِيَمَةِ ، فَقَالَ : مَا هَذَا يَا أُمَّ مَعْبُدٍ ؟
قَالَتْ : شَاةٌ خَلَفَهَا الْجَهْدُ عَنِ الْغَنَمِ . قَالَ : هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ ؟ قَالَتْ : هِيَ أَجْعَدُ
مِنْ ذَلِكَ . قَالَ : أَتَأْذِنِينَ لِي أَنْ أَحْلُبُهَا . قَالَتْ : بَأبَى وَأُمِّي أَنْتَ نَعَمْ ، إِنْ رَأَيْتَ
بِهَا مِنْ حَلَبٍ فَاحْلُبِيهَا . فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالشَّاةِ فَمَسَحَ ضَرْعَهَا وَسَمَّى اللَّهَ وَدَعَا
لَهَا فِي شَاتِهَا . فَتَنَاجَسَتْ (١) عَلَيْهِ وَدَسَتْ وَاجْتَرَّتْ ، وَدَعَا بِإِنَاءٍ يَرْبُصُ (٢)
الرَّهْطَ ، فَحَلَبَ فِيهِ ثَدَجًا حَتَّى غَلِبَهُ الثَّمَالُ (٣) ثُمَّ سَقَاهَا حَتَّى رَوَيْتَ وَسَقَى
أَصْحَابَهُ حَتَّى رَوَوْا . ثُمَّ شَرَبَ آخِرَهُمْ . وَقَالَ : سَاقِي الْقَوْمِ آخِرَهُمْ ، فَشَرَبُوا
جَمِيعًا عَالَسًا (٤) بَعْدَ نَهْلٍ . ثُمَّ أَرَاضُوا (٥) . ثُمَّ حَلَبَ فِيهِ ثَانِيًا عَوْدًا عَلَى بَدَنِ
حَتَّى مَلَأَ الْإِنَاءَ . ثُمَّ غَادَرَهُ عِنْدَهَا وَبَايَعَهَا وَارْتَحَلُوا عَنْهَا فَقُلَّ مَا لَبِثَتْ حَتَّى جَاءَ
زَوْجُهَا أَبُو مَعْبُدٍ يُسَوِّقُ أَعْنَزًا حُسَيْلًا عِجَافًا (٦) هَذَا لَا مَخْشَنَ قَلِيلٍ (٧)
وَلَا نَسْقًا (٨) بِهِنَ . فَلَمَّا رَأَى أَبُو مَعْبُدٍ اللَّبَنَ عَجِبَ وَقَالَ : مَنْ أَيْنَ هَذَا يَا أُمَّ مَعْبُدٍ ،
وَالشَّاةُ عَازِبَةٌ حِيَالٍ ، وَلَا حَلُوبَةَ فِي الْبَيْتِ ؟ فَقَالَتْ : لَا وَاللَّهِ ، إِنَّهُ (مَرْبُوعٌ) رَجُلٌ
مُبَارَكٌ كَانَ مِنْ حَدِيثِهِ كَيْتٌ وَكَيْتٌ قَالَ : صَفِيهِ لِي يَا أُمَّ مَعْبُدٍ . فَقَالَتْ :

رَأَيْتَ رَجُلًا ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ ، أَبْلَجَ (٩) الْوَجْهَ ، كَحَسَنِ الْحَقَاقِ ، لَمْ تَعِيبْهُ

-
- (١) تَنَاجَسَتْ : سَالَتْ .
(٢) يَرْبُصُ الرَّهْطُ : يَكْفِيهِمْ أَمْدًا
(٣) الثَّمَالُ — بِكسر التاء — جَمْعُ ثَمَالَةٍ — بَضْعُهَا — مَا يَمْلَأُ اللَّبَنَ مِنَ الرِّغْوَةِ
(٤) إِذَا اسْتَقَى الْإِنْسَانُ مَرَّتَيْنِ فَالْأُولَى النَّهْلُ وَالثَّانِيَةُ الْعَمَلُ .
(٥) أَرَاضُوا أَيْ شَرَبُوا مَرَّةً أُخْرَى .
(٦) حِيَالٌ : جَمْعُ حَائِلٍ وَهِيَ الَّتِي انْقَطَعَتْ عَنِ الْحَمْلِ ، وَعِجَافٌ : جَمْعُ عِجْفَةٍ
— بِكسر الجيم — وَهِيَ الْمَهْزُولَةُ .
(٧) قَلَّةُ الْمَخِّ كُنْيَاةٌ عَنِ الضَّعْفِ وَالْمُزَالِ .
(٨) النَّقَا : جَمْعُ نَقَاوَةٍ — بضم النون — وَهِيَ الْخِتَارُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .
(٩) وَجْهٌ أَبْلَجٌ وَضَاءٌ أَغْرٌ .

شجلة^(١) ولم تَزُرْ به صُفلة^(٢) ، وسيما قسيما ، في غيليه كَصَج^(٣) ، وفي أشفاده وطَف^(٤) ، وفي صوته صَحَل^(٥) ، وفي عنقه سَطع^(٦) ، وفي لحيته كثائة . أحور^(٧) ، أكل ، أزج ، أقرن^(٨) . إن صمّت فعليه الوقار ، وإن تسكّم سماء وعلاه البهاء ، فهو أجمل الناس وأبهام من بعيد ، وأحلام وأحسنهم من قريب ، حلواً المنطق ، فصل ، لا نزر ولا هذر^(٩) ، كأن منطقهم خرزات نظم يتحدّرن ، ربعة ، لا لثناؤه من طول ، ولا تقنّجهم العين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قدأ . له رفقاء يحفون به ، إن قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا إلى أمره ، محفود محشود^(١٠) ، لا حابس ولا مفنّد ﷺ .

قال أبو معبد : هو والله صاحب قریش الذي ذكر لنا من أمره بمكة ما ذكر ، ولو كنت وافقته لالتصمت محبته ؛ ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً . والمقطوعة النثرية السابقة تعد وثيقة أدبية وتاريخية ، صورت لنا صفة

(١) الشجلة : ضخامة في البطن .

(٢) الصفلة : دقة الجسم وشدة نحوله .

(٣) المدحج : شدة سواد العين في شدة بياضها .

(٤) الوطف : غزارة أشفار العين وطولها .

(٥) الصحل : شديده بالبحر في الصوت وألا يكون حاداً .

(٦) سَطع العنق طولها في جمال .

(٧) أصل الحور أن تسود العين كلها ولا يكون ذلك إلا في البقر والظباء

ثم استعير لعين الإنسان إذا غلب سوادها على بياضها .

(٨) الأقرن : المقرون الحاجبين .

(٩) النزر : القليل الذي لا يعجب به من القول .

(١٠) المحفود الذي يخدمه أصحابه ويعظمونه ويبادرون إلى طاعته والمحشود

الذي يحف به من معه .

الرسول ﷺ الخلقية والخالقية كأننا نراه ونشاهده ، كما تروى لنا حدثاً بارزاً مهماً من أحداث الهجرة النبوية المباركة ، وتنقل إلينا عبر الأيام والقرون — معجزة خارقة من المعجزات العظيمة التي اختص الله بها نبيه محمداً ﷺ وأيده بها ، كما تقدم لنا جانباً مضيئاً من أخلاق الرسول الكريم ومعاملته لأصحابه والناس ، بدت لنا واضحة جليلة . فيما ضربه — في المقطوعة — من أمثلة رائعة وإيثار جم وكرم في العطاء ، وكيف أنه ﷺ آثر أم معبد وقدمها على نفسه وصحابته ، رغم جهدهم واحتياجهم للسقاء والغذاء وما يروى عطشهم ، وبيل أوامهم ، ويسد رمقهم — وكيف أنه لم يفكر في نفسه أولاً — كما يفعل القادة الأنانيون ، بل فكر في المرأة المضيفة أولاً . إذ أنها صاحبة البيت ، وصاحبة الشاة ، ثم فكر في صحابته ، وأخيراً سقى نفسه ، وساق لنا أدباً رقيقاً نموذجاً في الإيثار وهو قوله : « ساقى القوم آخرهم شرباً » ،

كما نلاحظ جانباً اجتماعياً هاماً في آخر القطعة ، فلم يرد الإناء فارغاً — كما يفعل بعض البخلاء حينما يأكلون ويشربون ثم يتركون أو يردون الإناء حاوياً الوفاض — بل ضرب مثلاً أعلى في الكرم والسماحة ، فدعا بالإناء ثم حلب فيه ثانياً عوداً على بده ليغادر المنزل وقد امتلأت رحبته بالخير العميم ، والفيض الكثير ، ثم اكتملت جوانب الخير بمبايعته التاريخية لأم معبد وإسلامها ، وهذا الجانب يبين مدى أهمية المرأة في المجتمع ومشاركتها في أمر حيوي سجله القرآن .

* * *

ووجه رسول الله ﷺ إلى طيء فريقاً من جنده يقدمهم على عليه السلام . ففرع عدى بن حاتم الطائي . وكان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ — إلى الشام ، فصبح على القوم ، واستاق خيلهم ونعمتهم ورجلهم ونسيامهم إلى رسول الله . فلما عرض عليه الأسرى نهضت من بين القوم سقانة بنت حاتم فقالت :

يا محمد ، ملك الوالد ، وغاب الوافد ، فإن رأيت أن تسخلى عني ولا تشمت بي
أحياء العرب ! فإن أبي سيد قومه ، يفك العاني ، ويقتل الجاني ، ويحفظ الجار
ويحمي الذمار ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ،
ويحمل السكّل^(١) ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد في حاجة فردة
خابراً . أنا بنت حاتم الطائي . فقال النبي ﷺ : يا جارية ، هذه صفات المؤمنين
حقاً ، لو كان أبوك مسلماً أترحمنا عليه . خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم
الأخلاق . وقال فيها : ارحموا عزيزاً ذل ، وغنياً افتقر ، وعالمأ ضاع بين جهال .
وامتن عليهما رسول الله بقومهما فأطلقهم تسكرياً لها ولا لغيرها . فاستأذنته في الدعاء له .
فأذن لها . وقال لأصحابه : اسمعوا وعوا . فقالت : أصاب الله ببرك مواعقه ،
ولاجعل لك إلى لثيم حاجة ، ولا سلب نعمة عن كريم قوم ، إلا وجعلك سبباً
في ردما عليه ، فلما أطلقها رجعت إلى أخيها عدى وهو بدومة الجندل .
فقالت له : يا أخى ائت هذا الرجل قبل أن تملكك حباته ، فإنى قد رأيت
هدياً ورأياً سيفلب أهل الغلبة ، ورأيت خصلاً تعجبنى : رأيت يحب الفقير ،
 ويفك الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير ، وما رأيت أجود
ولا أكرم منه . فإن يكن نبياً فليسلق فضله ؛ وإن يكن ملكاً فلن تزال في
عز الين . فقدم عدى إلى رسول الله ﷺ ، وأسلمت سفانة^(٢) .

وكانت جرة سفانة وشجاعتها سبباً لنجاتها ونجاة قومها ، كما أن جرأتها
كانت سبباً في استدراج عطف الرسول الأمر الذي ساقها وأخاها إلى نور
الإسلام الوضاء ، ولو أنها جبت ولم تنطق ببنت شفة لتعرضت للملاك هي
وقومها ولما حظيت بشرف الإسلام .

كما تبين لنا هذه اللاوحة الأدبية صفات العربي الكريم متجلية في شخصية
حاتم الطائي ، وكيف أنه يتصف بسماة كريمة يدعو إليها الإسلام كما أخبر

(١) السكّل العائل واليتيم (٢) الأظاني ج ١٦ ص ٩٣ وإنسان العيون ج ٢ ص ٢٨٥

ذلك الرسول الكريم ﷺ فهو : « يفك الأسير ، ويقتل الجاني ، ويحفظ الجار ويحمي الذمار ويفرج عن المسكروب ويطعم الطعام ويحمل الضعيف ويعين على مصائب الدهر » .

كما تعبر المقطوعة عن شخصية سفانة الاجتماعية وما تتميز به من نظرات ثاقبة ، ولمحات نفاذة ، وقدرة أدبية على صوغ أسلوب الاستعطاف الذي ملك قلب الرسول ، واستولى على وجدانه .

ولا تقل هذه المقطوعة عن سابقتها في الأهمية الأدبية التاريخية فهي تصور شجاعة المرأة العربية في العصر الجاهلي وتقدم مثلاً رائعاً لمسارتها وجرأتها فهي تقتحم معضلات الأمور في إقدام فريد ، وعزم وطيد ولا غرو في ذلك ولا عجب فهي ابنة حاتم الطائي .

ويروى لنا الأغاني موقفاً تاريخياً يدل على شجاعة المرأة العربية ومدى قوتها وصبرها .

« كان عمرو بن هند قد أقسم ليحرقن من بني حنظلة مائة فأحرق ثمانية وتسعين ثم أقبل وافد من البراجم فأكل به تسعة وتسعين ، ثم قدمت عليه امرأة من بني حنظلة ، فقال لها من أنت ؟ فقالت : ما أنا بأعجمية ، ولا ولدتي المعجم ، قال فمن زوجك ؟ قالت هوذة بن جروول قال أين هو ؟ قالت : هذه كلبة أحرق ، لو كنت أعرف مكانه حال بيني وبينك ، فقال أما والله لو لا مخافة أن تلدى مثلك لضرفتك عن النار ، فقالت : أما والله الذي أسأله أن يضع وسادك ، ويخفض مهادك ، ويسلبك ماسكك ، ما قتلته إلا نساء أعاليها ثدى ، وأسافلها حلى ، قال : اقدفوها في النار ، فالتفتت فقالت : ألا ترى يكون مكان عجوز ، فلما أبطنوا عليها قالت : « صارت الفتيان حمماً فأحرقت^(١) » .

(١) الأغاني ١٩ / ١٢٩ وراجع بجمع الأمثال ١ - ٢٦٠ .

ولما قتل جساس بن مرة كليب بن ربيعة ، وقفت جلييلة بذت مرة في المناحة
وقفه تذيب الصخر — وكانت أخت القاتل وزوج القاتل — فقال نساء
الحى لأخت كليب : أخرجى جلييلة عن مأتك ، فإن في قيامها شامة وعاراً
علينا عند العرب . فقالت لها : يا هذه ، أخرجى من مأتنا ، فأنت أخت
واترنا ، وشقيقة قاتلتنا . فخرجت وهي تجر أعطافها . فلقيها أبوها مرة ،
فقال لها : ما وراءك يا جلييلة ؟ فقالت : تُكَلِّدُ العدد ، وحزن الأب ، وفقد
حليل ، وقتل أخ عن قليل . وبين ذلك غرس الأحقاد وتفتت الأكباد .
فيقال لها : أو يكف ذلك كرم الصفع ، وإغلاء الديات ؟ فقالت : أمنية مخدوع
ورب الكعبة : أربابُ بدن^(١) تدع لك تغلب دم ربها ؟

قالوا : ولما رحلت جلييلة البكرية الشيبانية قالت أخت كليب : رحلة المعتدى ،
وفراق الشامات ! ويل غداً لآل مرة ، من السكرّة بعد السكرّة ! فبلغ جلييلة قولها
فقالت : وكيف تشمت الحرة بهتك سترها ، وترقش وترها . أسعد الله جدّ
أختي ، أفلا قالت كفثرة الحياء ، وخوف الأعداء ؟ ثم أنشأت تقول :

يا ابنة الأقوام إن لمت فلا	تعجلى باللوم حتى تسألى
فإذا أنت تبينى الذى	يوجب اللوم فلومى واعذلى
إن تسكن أخت امرئ ليمت على	شفق منها عايه فافعللى
جلّ عندى فعل جساس فيا	حسرتى عما انجلى أو ينجللى
لو بعين فُدريت عيني سوى	أختها فانفقات لم أحفل

(١) البدن : جمع بدنة — بفتح الباء والذال — الناقة أو البقرة تهدي إلى مكة
ثم أطلقت على كل عظيم جسيم من الإبل والبقر .

تحمّل العين أذى العين كما	تحمّل الأم أذى ما تعلى ^(١)
يا قتيلاً قوض الدهر به	سقف بيتي جميعاً من عل ^(٢)
هدم البيت الذي استحدثته	وانثنى في هدم بيتي الأول
ورماني قتله من كذب	رؤية المصمى به المستأصل ^(٣)
يا نسائي دونكن اليوم قد	خصني الدهر برُزه مُعْضِل
خصني قتل كليب بلظي	من ورأى ولظي مستقبلي
ليس من يبكي ليوميه كن	إنما يبكي ليوم ينجلي
يشتفي المدرك بالنار وفي	دركي ناري ثكل المشكل
ليته كان دمي فاحتلبوا	دراً منه دمي من أكل ^(٤)
فأنا قاتلة مقتولة	ولعل الله أن يرتاح لي

وحديث جليلة يصور لنا نظام المجتمع الجاهلي وما كان يسوده من عداة وضغائن وئذات ، وأنه كان مجتمعاً يثور لأنفه الأسباب ، ويغضب لأذى الأسباب ، ويغضب لأذى الأشياء ، كما تصور لنا قوة شخصية المرأة العربية ومدى تأثيرها في قومها ، فهي تستطيع أن تعلن الحرب بكامة واحدة ، وأن تنهيا بإيمامة موحية .

فإن إشارة واحدة قدقت بها امرأة فأصابت موطن الحس من الرجال ،

(٢، ١) يقال اعتلت الأم أى نهضت بحملها تقول إن العين تحمل أذى اختها كما تحمل الأم راضية أذى حملها ، أما هي فاعساها تعمل وقد أصيب عيناها معاً .
وروى في هذا البيت : أذى ما تعلى وما بين يديك أوجه وأمثل
(٣) السكشب : القرب ، وأصمى الرمية إذا أنفذها .
(٤) الأكحل : عرق في الذراع إذا نزع لا يرقأ .

فهاجت لها الحرب أربعين عاماً لم يدر فيها ضرع ، ولم يكتهل بين أثنائها فتى ،
وقد حدث : أن البسوس ابنة منقذ — خالة حساس بن مرة سيد بنى بكر —
نزل بها ضيف من ذويها يدعى سعداً ، فأفسحت دارها له ، وأناخت بحظيرتها
ناقته ، فما كاد يطعن بالرجل مقامه حتى انطلقت ناقته ترعى ، وقادها حينها
إلى حمى الكليب بن ربيعة صهر حساس وفتى العرب وسيد تغلب ، ولم يكن
لأحد غير حساس أن يرعى إبله حمى كليب ، فلما بصر بها كليب غريبة بين إبله ،
أنفذ سهمه في ضرعها ، فانطلقت تعدو وهي تشخب دماً وإبناً حتى نزلت بفناء
البسوس ، فلما استبان ما بها صاحت وأعولت واندفعت تقول :

لعمرك لو أصبحت في دار منقذ لما ضم سعد وهو جار لأبياتي
ولكنني أصبحت في دار غربة متى يعد فيها الذئب يعد على شاتي
فيا سعد لا تفرر بنفسك وارتمل فإنك في قوم عن الجار أموات
ودونك أذوادى فإنى عنهم لراحلة لا يفقدون بنياتي

وقد سمع حساس تلك الكلمة الأخيرة فأصابته الوتر الحساس من قلبه ،
وقال : « اسكني أيتها المرأة فليقتل غداً جمل هو أعظم عقراً من ناقة جارك » ،
وما زال يتوقع غرة من كليب حتى أنبىء بانفراده فاعتقل رجمه وخرج للقائه ،
فلما أبصره طعمته ودق صلبه وأبى عليه المساء أن يباخه ، ومن أجل ذلك قامت
حرب البسوس وفيها استمر القتل أربعين عاماً حتى كاد يلحقهما الدثور في أثرها
وما عصفت بها إلا حكمة واحدة كانت خليقاً بها أن تذهب لحينها لولا أن
نسجت امرأة وحاكتها على امرأة ، كما يتبين منها الظلم الصارخ الذي يوقعه
المجتمع الجاهل على امرأة مثل جلييلة البكرية ، فما ذنبها ، وماذا جنته حتى ينبذها
المجتمع الجاهل ويناصبها العداة ؟ إن مثل هذه المرأة كانت جديرة بالإشفاق
والرعاية بدلا من الزايرة والاحتقار ، واسكنه المجتمع الجاهل .

ولما صدع سعد بن أبي وقاص جيش الفرس بالقادسية ، أتته
حرقة بذت النعمان بن المنذر في حفدة من قومها وجواربها — وهن
في زيها ، عليهن المسوح والمقطعات السود متهربات — تطلب صلة ،
فلما وقفن بين يديه أنكرهن سعد . فقال : أيكن حرقة ؟ قالت : هأنذا .
قال : أنت حرقة ؟ قالت : نعم ، فما تكرارك في استفهامي ؟ ثم قالت : إن
الدنيا دار زوال لا تدوم على أهلها انتقالا ، وتعقبهم بعدد حال حالا ؛
كنا ملوك هذا المصر ، يجي لنا خراج ، ويطيعنا أهله مدى الإمرة ،
وزمان الدولة ، فلما أدبر الأمر وانقضى ، صاح بنا صائح الدهر فشق
عصانا ، وشدت شملنا . وكذلك الدهر يا سعد ، إنه ليس يأتي قوماً بمسرة ،
إلا ويعقبهم بحسرة . ثم أنشأت تقول :

فبينما نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سـوقة نتنصّف
فأفّ لدنيا لا يدوم نعيمها تقلّب تارات بنا وتصرف

فقال سعد : قاتل الله عدى بن زيد كأنه ينظر إليها حيث يقول :

إن للدهر صولة فاحذرنا لا تبين قد أمنت الدهورا
قد يبيت الفتي معافي فيردى واقعد كان آمناً مسروراً

وحدثوا أن عمرو بن معديكرب — وكان من قصاد النعمان وزواره —
دخل عليها وهي بين يدي سعد . فلما نظر إليها قال : أنت حرقة ؟ قالت :
نعم . قال : فما دهمك ، فذهب بجودات شيمك ؟ أين تنابع نعمك ، وسطوات
نقمك ؟ فقالت : يا عمرو ، إن للدهر عثرات وعبرات تعثر بالملوك وأبنائهم
فتخفضهم بعد رفعة ، وتفردهم بعد مَنعة ، وتذلهم بعد عز . إن هذا الأمر كنا
نتنظره ، فلما حل بنا لم ننكره قالوا : فاما انصرفت من لدن سعد لقيها نساء

القادسية ، فقلن لها : ما فعل بك الأمير ؟ قالت : أكرم وجهي ، وإنما يكرم
السكريم السكريم ^(١) .

وحرقة في درتها الأدبية الحكيمة بدت حكيمة لامعة من حكيما العرب
اللائي حلبن الدهر أشطره ، فألقت علينا أمثلة رائعة من الحكمة لا يقدر على
حسن صوغها إلا البليغ ، يتجلى ذلك في عبارات رائعة ، وأسلوب سهل
كقولها : الزمان لا يأتي بمسرة إلا ويعقبها بحسرة ، إن للدهر لعثرات ، تعثر
بالمالوك .

وقد جاءت هذه الحكم صدى لصفاء فطرتها ، وكثرة تجاربها ، وقدرتها على
استخلاص العبرة ، كما تدانا على وافر عقلها ، وتوقد ذكائها ، وثاقب فكرها .
ونلاحظ أن حرقة تبدو وكأنها فيلسوفة أخلاقية في حكمها ، فقد مزجت
الحكمة بالفلسفة ، وربطت بينها وبين الروح والأخلاق مما يعطى لحكمها
قيمة فلسفية ، وقيمة روحية وخلقية ، كما تعطى محاورتها مع عمرو قيمة
تاريخية ، وقيمة اجتماعية فضلا عن القيم الأدبية والبيانية التي انتشرت بين
غضون كلماتها .

* * *

ولما قتل الحارث بن ظالم المرسي خالد بن جعفر العامري ، لحق بحاجب بن
زرارة التميمي يعتصم به من بني عامر ، فاتبعه رجال منهم ، حتى إذا كانوا ببعض
الطريق ، عثروا بامرأة تميمية تجني السكاة ؛ فتعرفوا منها أمر الحارث ، ومكانه
من حاجب ؛ ثم احتجزوها عندهم . فترقبت حتى أنست غرة من القوم فأفلتت .
وانطلقت تعدو إلى حاجب . فأخذت تهديه حديث القوم . فقال لها : أخبريني
أي قوم أخذوك ؟ قالت : أخذني قوم يقبلون بوجوه الظباء ، ويدبرون بأعجاز
النساء . قال : أولئك بنو عامر . قال : فحدثيني من في القوم ؟ قالت : رأيتهم

يغدون على شيخ كبير لا ينظر بما فيه حتى يرفعوا له من حاجبيه . قال : ذلك
الأحوص بن جعفر . قالت : ورأيت شاباً شديد الخلق ، كأن شعر ساعديه
خلق الدرع يعدم^(١) القوم بلسانه عذم الفرس العضوض . قال : ذلك
عتبة بن بشير بن خالد . قالت : ورأيت كهلاً إذا أقبل ومعه فتیان يشرف
القوم إليه ، فإذا نطق أنصتوا . قال : ذلك عمر بن خويلد ، والفتيان ابناه
زُرعة ويزيد . قالت : ورأيت شاباً طويلاً حسناً إذا تكلم بكلمة أنصتوا لها .
ثم يؤلون^(٢) إليه كما تؤل الشول^(٣) إلى غلامها . قال : ذلك عامر بن مالك .
قالوا : وجاء القوم فكانوا كما قالت وقال^(٤) .

ومن حديث المرأة التيمية التي وصفت قومها يتبين لنا مدى حذق العرب
في الوصف ، ومهارتهم في معرفة الرجل من وصفه ، فكانوا يستدلون بهيئة
الإنسان وشكله ولونه وقوله على أخلاقه وفضائله ورذائله ، كما كانوا يعرفون
رجال القبيلة ونساءها من وصفهم ، وقد نبغ في ذلك من العرب من لا يحصى
عددهم . ولهم في ذلك نواذر شتى منها ما يقال من أن أولاد نزار ذهبوا إلى
الأفعى الجرهمي ليحكم بينهم في ميراث أبيهم ، وبينما هم في الطريق إذ رأى
مضر كلاً قد رعى ، فقال : إن البعير الذي رعى هذا أعور ، فقال ربيعة : هو
أزور ، وقال إباد هو أتر ، وقال أثمار هو شرود ، وبعد قليل لقيهم رجل
ينشد بعيره فوصفوه كما تفرسوا ، فتعلق بهم وذهبوا إلى الأفعى الجرهمي ،
فقال : كيف وصفتموه ولم تروه ؟ فقال مضر : رأيته يرعى جانباً دون آخر
فعرفت أنه أعور ، وقال ربيعة رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة

(١) العذم : عض الفرس وهي استعارته لحدة اللسان .

(٢) ألّ في مشيه : أسرع .

(٣) الشول : جمع شائلة ، وهي ما أقي عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر .

(٤) الأغاني ١٠ / ١٨

فعرفت أنه أزور ، وقال إباد رأيت بعره مجتمعا فعرفت أنه أبت ، وقال أنمار رأيت به يرعى المكان الملتف ثم يحوزه إلى غيره فعرفت أنه شرود ، فقال الجرهمي لصاحب البعير أطلبه من غيرهم ، ثم قال لهم أحتاجون إلى وأنتم كما أرى ؟ وهكذا فالقطعة أثر أدبي عظيم يدل على قوة الخيال والحافظة والذكاء عند العرب فقد كانوا يميزون بين أثر الرجل والمرأة والشيخ والشاب ، والأعمى والبصير واللاحق والسكيس (١) .

* * *

وحدث أبو بكر بن دريد قال (٢) : كان قَيْل من أقبال حمير مُنْع الولد دهرأ ، ثم ولدت له بنت ، فبنى لها قصراً منيعاً بعيداً عن الناس . وוכל بها نساء من بنات الأقبال يخدمنها ويؤدبنها ، حتى بلغت مبلغ النساء ، فنشأت أحسن منشاء وأتمه في عقلها وكألها . فلما مات أبوها مأسسها أهل بخلاقها (٣) . فاصطنعت النسوة اللاتي ربينها وأحسنن إليهن . وكانت تشاورهن ، ولا تقطع أمراً دونهن . فقلن لها يوماً : يا بنت السكرام ، لو تزوجت أتم لك الملك ! فقالت : وما الزوج ؟ فأخذت كل واحدة تصف العذب الهنيء من صفات زوجها . فقالت : أمهلني أنظر فيما قلتن . فاحتجبت عنهن سبعة ، ثم دعتهن ، فقالت : قد نظرت فيما قلتن فوجدتني أمسسه رقي ، وأبشبه باطل وحق . فإن كان محمود الخلاق ، مأمون البوائق ، فقد أدركت بغيتي ، وإن كان غير ذلك فقد طالت شقوتي . على أنه لا ينبغي إلا أن يكون كفواً كريماً ، يسود عشيرته ، ويرب (٤) فصيلته ، لا أتقنع به عاراً في حياتي ، ولا أرفع به شئراً

(١) الوسيط ص ٤١ (٢) القيل : الملك من ملوك حمير .

(٣) الخلاف : السكورة أو الإقليم وهو لليمن خاصة .

(٤) يرب فصيلته يحفظها ويرعاها ويربها .

لقومى بعد وفاتى . فعلمى كنهه فابغى به ، وتفرقن فى الأحياء ، فأيتسكن أتنى
بما أحب فلما أجزل الحياء ، وعلى لها الوفاء . فخرجن فيما وجهتهن له — وكن
بنات مقاول ذوات عقل ورأى — لجأتهما لإحداهن — وهى عمر طة بنت
زُرعة ابن ذى سخنفر — فقالت : قد أصبت البغية . فقالت : صفيه ،
ولا تسميه ، فقالت : غيث فى المحل^(١) ، ثم قال فى الأزل^(٢) ، مفيد مبيد .
يصلح النائر ، وينعش العائر ؛ ويغمر الندى ؛ ويقتاد الأبي ، عرضه وافر ،
وحسبته باهر ، غرض الشباب ؛ طاهر الأثواب . قالت : ومن هو ؟ قالت :
سبرة بن عوال بن شداد بن الهمال . ثم خلت بالثانية . فقالت : أصبت
من بغيتك شيئاً ؟ قالت : نعم . قالت : صفيه ؛ ولا تسميه . قالت : مصاصم^(٣)
النسب ؛ كريم الحسب ؛ كامل الأدب ؛ غزير العطايا ؛ مأوف السجايا ؛ مقبيل
الشباب ، خصيب الجناب . أمره ماض ، وعشيرته راض . قالت : ومن هو ؟
قالت : يعلى بن هزال بن ذى جردن . ثم خلت بالثالثة فقالت : ما عندك ؟ قالت :
وجدته كثير الفوائد ، عظيم المرافد^(٤) يعطى قبل السؤال ، وينيل قبل أن
يستأنل . فى العشيرة معظم ، وفى الندى مكرم ، جهم الفواضل ، كثير النوافل^(٥) .
بذل أموال ، محقق آمال ، كريم أعمام وأخوال . قالت : ومن هو ؟ قالت :
رواحة بن محير بن مضحى بن ذى ملاحلة . فاختارت يعلى بن هزال

(١) المحل : الجذب والقحط .

(٢) الثمال : الغياث ، والأزل : الضيق والشدة .

(٣) المصاصم الخالص من كل شئ وهو مصاصم فى قومه إذا كان ذاكى
الحسب خالصاً فيهم .

(٤) المرافد : جمع مرقد — بفتح الميم وضمها — المعروفة .

(٥) النوافل — جمع نافلة — ما زيد على العطاء .

فزوجته ، فاحتجبت عن نساها شهراً . ثم برزت لهن فأجزلت لهن الحياء ، وأعظمت لهن العطاء ^(١) .

* * *

وفي كلام الذسوة الذى رواه أبو بكر بن دريد نرى صورة فنية من الصفات التى ترغبها المرأة العربية فى الزوج وهو أن يكون سيداً فى قومه ذا حسب ونسب ، جواداً كريماً مكتمل الفتوة ، حسن السيرة إلى غير ذلك من السجایا والطباع التى تعز بها القبيلة وتفتخر بها . فهى لوحة فنية تظهر فيها آمال الزوجة وأحلامها فى الزوج :

١ — فالزوج الشاب أثير مستحب لأنه أدنى إلى الزوجة سناً وأشبه بها خلقاً وميلاً .

٢ — وأن يكون الزوج حسن السيرة حادبا على الزوجة رقيقاً ، وأن الزوجة لترجو أن يكون زوجها مرحاً لتجد الأناس فى قربه والراحة فى مشرته .

٣ — وأن يكون الزوج متحلياً بالفضائل من كرم وشجاعة وألفة فهى تؤثره مسيحاً حتى تحقق آمالها وتعيش فى حياة ناعمة ، وتريده شجاعاً ليكفل لها الشهرة والسيادة والأمان والطمأنينة ^(٢) .

وبهذه الباقية السابقة ينتهى حديث الوصف النساءى وإذا أردنا أن نتكلم فى الوصف ونستطرد فى الحديث عنه لضاق بنا هذا الكتاب ، فالوصف غرض واسع النواحي بعيد ما بين الأطراف ، وقلما يلم النائر أو الشاعر بأطرافها جميعاً فضلاً عن الإجادة فيها ، ولكل من الأدباء الوصافين فن

(١) آمالى القالى ج ١ ص ٨٠ — ٨٢ .

(٢) د . الحوفى : ١٧١ .

أو فنون من الوصف تستأثر بنفسه ، وتظهر فيها براعته ، وذلك بحسب البيئة التي تغلب فيها ، والظروف التي اكتنفته واتصت بإحساسه ، وتغلغلته آثارها في مجرى حياته ، فكان يمثلها بصره وعقله ، وينبض بها قلبه ، ويفيض لتذكرها شعوره فلا ينتظر من الأديب أو الشاعر إلا أن يجيد في الناحية التي هيأته لها نفسه ، فجعلتها مناط شاعريته ، ومهبط وحيه ، ومصدر إحساسه ومثار آماله وآلامه (١) .

الفصل الثالث

أدب الكواهن

وكان الكاهنات في أدبهن يملن إلى استخدام السجع ، والتكلف في صوغ عباراته ، وكثيراً ما يمتزج أدبهن بالمثل والحكمة مع عدم تعمقهن في استخراج المعاني البعيدة ، واستقصاء الأفسكار الدقيقة التي تحتاج إلى كدٍّ خاطر أو درس علم ، ونظراً لأن أدب الكهانة من الأدب الخاص ، فكان التأنيق مقصوداً في انتقاء الألفاظ المناسبة الوزن ، المتشابهة في النغم والجرس ، وإن كن في بعض الأحيان يعتمدن في تأدية المعنى إلى ألفاظ تطابقه ، حسبما يتفق ، وكما يكون . مع قصرٍ في الجمل ، أو توسطٍ فيها ، كما نلاحظ أنهن يستخدمن الكناية القريبة المنال (كطابع النثر الأدبي في هذه الحقبة) .

ولأن أدب الكهانة من الأدب الخاص كما أسلفنا ، فكانت لغة الكهانة تلبس من شعور بالتفوق والأفضلية والسمو الروحي على من يستصبحون بهديها ، فهي في نظر أصحابها ونظر من يدينون بها لغةٌ خاصةٌ مختارة ، لها سند من قوة علوية مُلهمة ، تتخذ منها أداة لفض أختام الغيوب ، وهتك أستارها ، ومن ثمَّ كان لا بد أن تستعين بما تستعين به (كدية الزار) من التأثير في النفوس الضعيفة المستسلمة ، لتشعل تفكيرها ، وتحدّر عقلها ، وتلمبها عن تبدين التدليس والتلبيس ؛ وتسوقها إلى الإذعان والقبول ؛ مستغلة تشوقها إلى معرفة أسرار الغد ، ومطالعة صحف المجهول . لذلك تراها تعتمد على المواربة والرمز والإبهام والاستغلاق مرة ، وعلى الفسح والطنين

والجلجلة والتهويل والإغراب أخرى ، حتى تتحقق الغاية المقصودة منها (١) .
والذي يبدو أن أكثر ما جاءنا عنهم مخترع مصنوع ، ولكن بحجته
على هذه الصورة بعينها ؛ دليل على أنهم هكذا كانوا ينطقون ، وهكذا كانوا
يخطبون ، وإلا لما اتفقت روايات الرواة ، ومن قد نحلوه بعض الأقوال
والخطب ، على أنهم كانوا يسجعون هذا السجع ، وإذا صح أن هذا السجع
مصنوع ، فهو لا ينفي أن الأصل مصنوع أيضاً ، لأن من أراد محاكاة شيء
أفرغ جهده وحنقه في بحبته على شكله .

وحسبك دليلاً على ما كان للكمان من سجع عرفوا به ما جاء في الآثار :
أن النبي ﷺ قضى بديعة في جنين ، فقال أحدهم : يا رسول الله كيف ندي
من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، فمثل ذلك يطل .

فأنكر عليه الرسول ﷺ هذا الأسلوب ، قائلاً : « أسجعها كسجع
الجاهلية » وفي رواية أخرى « أسجعها كسجع الكمان » فجعل السجع مختصاً
بالكمان بمقتضى الإضافة ، كما يقول ابن خلدون .

ومعنى هذا أنه كان للكمان سجع ، وأن صورة هذا السجع كانت معروفة
في صدر الإسلام (٢) .

وإنما بغض هذا السجع - فوق التكلف والتعسف - أن الكمان
الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون إليهم ، وكانوا يدعون الكمانه ،
وأن مع كل واحد منهم رئيس من الجن ، كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع .

(١) صور البديع للدكتور على الجندى ، والخطابة في صدر الإسلام
د . محمد طاهر ص ٧٨ .

(٢) الخطابة في صدر الإسلام ج ١ ص ٧٩ .

ألا ترى أن ضمرة بن ضمرة ، وهرم بن قرطبة ، والأقرع بن حابس ،
ونفيل بن عبد العزى ، وربيعة بن حذار كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع
فوق النهى .

والاستكراه فى ذلك لقرب عهد العرب بالجاهلية ولبقيتها فيهم ، وفى
صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم .

وقد كان الخطباء تنسكهم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون فى تلك الخطب
أسجاع كثيرة ، فلم ينهوا منهم أحداً .

* * *

ومن الأدبيات السكواهن : الشعثاء ، وطريفة الخير التى تسكنت بسيل
العسرم ، وخراب سد مأرب ، والزبراء ، وكاهنة ذى الخلصة التى تسكنت
بما فى بطن رقية بنت مجشم ، وسلمى الهمدانية ، والعجفاء بنت علقمة
والعُفَيراء .

ولإليك أمثلة من أديهن :

خطب الكواهن

والسكاهنات الخطيبات كما أسلفنا يتناولن في حديثهن موضوعات عديدة ،
وكلاما مستوحاة من البيئة الجاهلية ومستقاة من جوها .

ففي حديث الشعثاء السكاهن يتبين فيها شخصية المرأة العربية واضحة كل
الوضوح ، وأن لها ذاتيتها المحترمة ورأيها المقدر ، فكان يؤخذ رأيها في
الزواج ، ولا ترغم على اختيار شخص معين مهما كانت الظروف .

كما تدل على أن هناك في الجاهليات نساء محنكات مجربات يرجع إليهن في
معضلات الأمور (كعثمة بنت مطرود البجليّة فقد كانت ذات عقل ورأى
مستمع) وكيف أن مخالفة هؤلاء النسوة المجربات الناصحات يورث الحيرة
ويعقب الندامة ، وقد تجلى لنا ذلك الأمر جلياً في مخالفة خودٍ أختها عثمة
وضربها بنصائحها عرض الحائط بما هرّضها إلى فشلها في حياتها الزوجية ،
وأخذها أسيرة ذليلة ، وقد اعترفت خود بذنبها وبكت بكاء مرّاً وأنشجت
نشيجهاً محرّناً ، فلما سئلت عن ذلك قالت : إنما أبكى على عصياني أختي وتركى
قولها : « ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل ، فقد اهتمت خود
بالمظهر البراق ، والمنظر الزائف ، ولم تنظر إلى شرف الجوهر ، وطهر المعلن
فكان مصيرها كما قال الشاعر :

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسدهصور
ويمججك الطير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطير

وقد رجعت في آخر الأمر إلى منطق العقل فاختارت أبا نواس مع سوء

خالقته ، لأنها نظرت حينئذ إلى الخبز وضربت صفحاً عن المظهر وقبالت الرجل الذي يحميها ويدافع عن قبياتها ، وهذه هي الروح التي كانت تسود تطلعات المرأة العربية ورغباتها ، فتختار المرأة العربية الرجل القوي الذي يزودها العشرة ويحمي القبيلة .

ونراها في نشوانها هذا صادقة في وصفها تجيب نداء العقل وتريث في الاستجابة لنداء العاطفة .

* * *

وكانت عثمة بنت مطرود البجالية ذات عقل ورأى مستمع في قومها ، وكانت لها أخت يقال لها : خود ، وكانت ذات جمال وميسم^(١) وعقل ، فخطب سبعة إخوة غلبة من بطن الأزود خوداً إلى أبيها . فأتوه وعليهم الخلال اليمنية ، وتحتم النجائب الفرس^(٢) ، فقالوا : نحن بنو مالك بن مخفيلة : ذى النسخيين ، فقال لهم : انزلوا على الماء ، فنزلوا ليلتهم ، ثم أصبحوا غادين في الخلل والهيثة ، ومعهم ربيعة^(٣) لهم يقال لها الشحفاء : الكاهنة^(٤) ، فرشوا بوصيد^(٥)ها يتعرضون لها ، وكلهم ومسم جميل ، وخرج أبوها ، فجلسوا إليه ، فرحب بهم ، فقالوا : بلغنا أن لك بنتاً ، ونحن كما ترى شباب^(٦) ، وكلنا يمتنع الجانب ، ويمنع الراغب ، فقال أبوها : كلسم خيار ، فأقيدوا نرى رأينا ، ثم دخل على ابنته ، فقال : ما ترين ؟ فقد أتاك هؤلاء القوم ؟ فقالت :

(١) الميسم والوسامة : أثر الحسن .

(٢) النجائب : جمع نجيب ، وهو البعير والفرس إذا كانا كريمين عتيقين ، والفره : (كعقل وركع وكتب) جمع فارة ، وهو من الدواب الجليد السير النشيط الخفيف .

(٣) الربيعة : الحاضنة .

(٤) الوصيد : الفناء (بالكسر) والعتبة .

« أنكر حتى على قدرى ، ولا تشطط فى مهرى ، فإن تخطئنى أحلامهم ، لا تخطئنى أجسامهم ، لعل أصيب ولداً ، وأكثرُ عدداً ، نخرج أبوها ، فقال : أخبرونى عن أفضلكم .

قالت ربيبتهم الشعثاء الكاهنة : « اسمع أخبرك عنهم : هم إخوة ، وكلهم أسوة ^(١) .

أما الكبير فقالك ، جرى فأنك ، يتعب السنابك ^(٢) ، ويستصغر الممالك . وأما الذى يليه فالغممر ، بحر غمر ^(٣) ، يقصر دونه الفخر ، نهش ^(٤) صدق .

وأما الذى يليه فعلقمة ، صليب المنجمة ^(٥) ، مزيج المشتمة ^(٦) ، قليل الجمجمة ^(٧) .

وأما الذى يليه فعاصم ، سيد ناعم ^(٨) ، جلد صارم ، أبى حازم ، جيشه غانم ، وجارؤه سالم .

وأما الذى يليه فتواب ، سريع الجواب ، عتيد الصواب ^(٩) ، كريم

(١) الأسوة : القدوة .

(٢) السنابك : جمع سنبك كمنفذ ، وهو طرف الخافر ، أى أنه يجهد الخيل فى حومة الوغى .

(٣) الغمر : معظم البحر ، والكريم : الواسع الخلق .

(٤) النهش : الأسد ، والكريم .

(٥) من عجم العود إذا عضه ليعرف صلابته من خوره .

(٦) المشتمة : مصدر شتم ، والمعنى : أنه فى حوز من أن يشتم ويسب عرضه ،

لحسن فعله وكرمه خلقه . (٧) الجمجمة : إخفاء الشيء فى الصدر .

(٨) نعم كسمع ونصر وضرب فهو ناعم : أى ذو تنعم وترفه .

(٩) العتيد : الحاضر المهيأ .

النَّصَابُ^(١) ، كَلَيْثُ الْغَابِ .

وَأَمَّا الَّذِي يَلِيهِ ، فَدُرُكٌ ، بِذَوْلِ لِمَا يَمْلِكُ ، عَزُوبٌ^(٢) عَمَّا يَتْرُكُ ، مِغْنَى وَمِيهْلَكُ .

وَأَمَّا الَّذِي يَلِيهِ ، فَجُنْدُلٌ ، لِقِصْرِهِ مَجْدُلٌ^(٣) ، مَقْلٌ^(٤) لِمَا يَحْمِلُ ، يَعْطَى وَيَبْذُلُ ، وَعَنْ عَدُوهِ لَا يَنْكَسِلُ^(٥) .

فَشَاوَرْتُ أَخْتَهَا فِيهِمْ ، فَقَالَتْ أَخْتَهَا عَثْمَةُ : « تَرَى الْفَتَيَانَ كَالنَّخْلِ ، وَمَا يَدْرِيكَ بِالْدَخْلِ ، اسْمَعْنِي كَلِمَةً : إِنَّ شَرَّ الْغَرِيبَةِ يَعْلَنُ ، وَخَيْرُهَا يُدْفَنُ ، أَنْ كَحَى فِي قَوْمِكَ ، وَلَا تَغْرُرْكَ الْأَجْسَامُ ، فَلَمْ تَقْبَلْ مِنْهَا ، وَبَعَثْتَ إِلَى أَبِيهَا : أَنْ كَحَى مَدْرَكَ ، فَأَنْ كَحَى أَبُوهَا عَلَى مَائَةِ نَاقَةٍ وَرُحَامَتِهَا ، وَحَمَلَهَا مَدْرَكَ ، فَلَمْ تَلْبِثْ عَنْدهُ إِلَّا قَلِيلًا ، حَتَّى صَبَّحَهُمْ فَوَارِسٌ مِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ كِنَانَةَ ، فَاقْتَتَلُوا سَاعَةً ، ثُمَّ إِنَّ زَوْجَهَا وَإِخْوَتَهُ وَبَنِي عَامِرٍ أَنْ كَشَفُوا ، فَسَبَّوْهَا فِي مَن سَبَّوْا ، فَبَيْنَمَا هِيَ تَسِيرُ ، بَكَتْ ، فَقَالُوا : مَا يَبْكِيكَ ، أَعْلَى فِرَاقِ زَوْجِكَ ؟ قَالَتْ : قَبَّحَهُ اللَّهُ ، قَالُوا : لَقَدْ كَانَ جَمِيلًا ! قَالَتْ : قَبَّحَ اللَّهُ جَمَالَ لَا نَفْعَ مَعَهُ ، لَأَنَا أَبْكِي عَلَى عَصِيَانِي أَخْتِي ، وَقَوْلُهَا :

تَرَى الْفَتَيَانَ كَالنَّخْلِ وَمَا يَدْرِيكَ بِالْدَخْلِ

وَأَخْبَرْتَهُمْ كَيْفَ خَطَبَوْهَا ، فَقَالَ لَهَا رَجُلٌ مِنْهُمْ يَكْنَى أَبَانُ وَاسٌ ، شَابٌ أَسْوَدُ أَفْوَهٌ^(٦) مُضْطَرِبُ الْخَلْقِ : أَرْضَيْنِ بِي ، عَلَى أَنْ أَمْنَعَكَ مِنْ ذُنَابِ الْعَرَبِ ؟

(١) النَّصَابُ : الْأَصْلُ . (٢) بِعِيدٌ .

(٣) جَدْلُهُ : صَرَعُهُ عَلَى الْجِدَالَةِ (كَسْحَابَةٍ) وَهِيَ الْأَرْضُ .

(٤) حَامِلٌ . (٥) نَسَكَلَ عَنْهُ كَضَرْبٍ وَنَصْرٍ وَهَلَمٌ : نَسَكَسَ وَجِبْنَ .

(٦) الْأَفْوَهُ : وَصَفَ مِنَ الْفَوِّهِ بِالتَّحْرِيكِ ، وَهُوَ سَعَةُ الْفَمِ .

فقلت لأصحابه : أ ك ذلك هو ؟ قالوا : نعم ، إنه مع ما ترين لينسج الحليمة^(١) ،
وتنسجيه القبيلة ، قالت : هذا أجمل جمال ، وأكمل كمال ، قد رضيت به ،
فزوجوها منه .

(بجمع الأمثال للميداني ١ : ٩١)

* * *

قال عبد الملك بن عبد الله بن بدرون في شرح قصيدة الوزير عبد المجيد
ابن عبدون ، التي قالها في رثاء دولة بني الألفطس بالأندلس :
كان أول من خرج من اليمن في أول تمزيقهم ، عمرو بن عامر : مُزَيَّقِيَاء^(٢) ،
وكان سبب خروجه ، أنه كانت له زوجة كاهنة ، يقال لها « طريفة الخير » ،
وكانت رأت في منامها أن سحابة غشيت أرضهم ، فأرعدت وأبرقت ،
ثم صهقت ، فأحرقت كل ما وقعت عليه ، ففزعوا طريفة لذلك فزعاً شديداً ،
وأنت الملك عمراً ، وهي تقول :

« ما رأيتُ اليومَ ، أزال عني النومَ ، رأيت غيماً رعداً وبرقاً^(٣)
طويلاً ، ثم صعق ، فساوق على شيء إلا احترق » .
فلم أرأى ما داخلها من الفزع سكنتها ، ثم إن عمراً دخل حديقة له ،
ومعه جاريتان من جواريه ، فبلغ ذلك طريفة ، فخرجت إليه وخرج معها

(١) الزوجة .

(٢) لقب بذلك ، لأنه كان يلبس كل يوم حلتين ، ويمزقها بالعش ، يكره
العود فيهما ، ويأنف أن يلبسهما غيره .

(٣) رعدت السماء وبرقت (كنصر) ، وأرعدت السماء وأبرقت ، وأنكر
الأصمى ...

وصيف^(١) لها اسمه سنان ، فلما برزت من يديها عرض لها ثلاث مناجيد منتصبات على أرجلهن ، واضعات أيديهن على أعينهن — وهى دواب تشبه اليرابيع^(٢) — فتعدت إلى الأرض واضعة يديها على عينيها ، وقالت لوصيفها : إذا ذهبت هذه المناجيد فأخبرنى ، فلما ذهبت أعليها ، فانطلقت مسرعة ، فلما حارضا خليج الحديقة التى فيها عمرو ، وثبت من الماء سلحفاة . فوقعت فى الطريق على ظهرها ؛ وجعلت تروم الانقلاب فلا تستطيع ، وتستعين بذنبيها ، فتحتو التراب على بطنها من سجنباته ، وتقذف بالبول قذفاً ، فلما رأتها طريفة جلست إلى الأرض ، فلما عادت السلحفاة إلى الماء ، مضت إلى أن دخلت على عمرو وذلك حين انتصف النهار ، فى ساعة شديدة الحر ، فإذا الشجر يتكفأ من غير ريح ، فلما رآها عمرو استحميا منها ، وأمر الجاريتين بالتنهى ، ثم قال لها : يا طريفة ؛ فكهنت وقالت : « والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الشجر لها لك ، ولعمودن الماء كما كان فى الزمان السالك » .

قال عمرو : ومن خبرك بهذا ؟ قالت : « أخبرتنى المناجيد ، بسنين شدائد ، يقطع فيها الولد الوالد » .

قال : ما تقولين ؟ قالت : « أقول قول النذمان^(٣) لها ، لقد رأيت سلحفاً^(٤) ، تجرف التراب جرفاً ، وتقذف بالبول قذفاً ، فدخلت الحديقة ؛ فإذا الشجر من غير ريح يتكفأ » .

(١) وصيف : أى خادم .

(٢) اليربوع : دويبة نحو الفأرة لكن ذنبه وأذناه أطول منها ، ورجلاه أطول من يديه عكس الزرافة .

(٣) يقال : سلحفاة وسلحفاه وسلحفاء ، ويقال أيضاً سلحفاء ساكنة اللام مفتوحة الحاء .

قال عمرو : وما ترين ؟ قالت : « داهية داهية ، من أمور جسيمة ، ومصائب عظيمة » .

قال : وما هو ؟ ويلك ! قالت : « أجل » ، إن فيه الويل ، وما لك فيه من قَيْل^(١) ، وإن الويل فيما يحى به السيل ، فألقى عمرو نفسه عن فراشه ، وقال : ما هذا يا طريفة ؟ قالت : « هو كخطب جليل ، وحزن طويل ، وخلف قليل » ، قال : وما علامة ما تذكرين ؟ قالت : « إذهب إلى السد ، فإذا رأيت مجرذاً يُكثِرُ يديه في السدِّ الحفرَ ، ويقلب برجليه من أجل الصخر ، فاعلم أن غمرَ الغمر^(٢) وأن قد وقع الأمر » . قال : وما هذا الذي تذكرين ؟ قالت : « وعدت من الله نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نكال ، فبخيرك يا عمرو فليكن الشكل^(٣) » .

فانطلق عمرو فإذا الجرذ يقلب برجليه صخرة ما يقلبها خمسون رجلاً ، (كذا) فرجع إلى طريفة فأخبرها الخبر وهو يقول :

أبصرت أمراً عاذني منه ألمٌ وهاج لي من هوله برحُ السقم^(٤)
من مجرذ كفحتل يخنزير الأجم أو كبش صرم من أفاديق الغنم^(٥)

(١) قال قيلا : نام في القائلة ، وهي نصف النهار ، والمراد هنا الإقامة والمكث .

(٢) الغمر : الماء الكثير .

(٣) الشكل : كسبب وقفل الموت والهلاك . (٤) البرح : الشدة .

(٥) الأجم : جمع أجمة ، وهي الشجر الكثير الملتف ، والصرم : الجماعة والفرقة تجمع على فرق ، وجمع البجع أفراق ، وجمع جمع البجع أفاديق ، والجلاميد : جمع جلود كمصفور الصخر .

يسحبُ صخرًا من جلاميد العرم له مغاليبٌ وأنسابٌ قضم^(١)

ما فاته سحلا من الصخر قهم^(٢)

فقلت طريفة : وإن من علامات ما ذكرت لك أن تجلس فتأمر بزجاجة فتوضع بين يديك ، فإن الريح تماؤها من تراب البطحاء^(٣) ، من سهلة^(٤) الوادى ورملة ، وقد علمت أن الجنان مظالمه لا يدخلها شمس ولا ريح .

فأمر عمر بزجاجة فوضعها بين يديه ولم يمكث إلا قليلا حتى امتلأت من تراب البطحاء ، فأخبر عمر وطريفة بذلك ، وقال لها : متى يكون هـلك السد ؟ قالت له : فيما بينك وبين سبع سنين . قال : ففي أيها يكون ؟ قالت : لا أعلم بذلك إلا الله ، ولو علمه أحد لعلمته ، ولا تأتي على ليلة فيما بيني وبين سبع السنين إلا ظننت الهلاك في غدها ، أو في مسائها ، ثم رأى عمرو في نومه سيل العرم ، وقيل له : آية ذلك أن ترى الحصباء في سعف النخل ، فنظر إليها ، فوجد الحصباء فيها قد ظهرت ، فعلم أن ذلك واقع ، وأن بلادهم ستخرب ، فحكم ذلك وأخفاه ، وأجمع على بيع كل شيء له بأرض مأرب^(٥) وأن يخرج منها

(١) العرم : السد يعترض به الوادى (ومن معانيه أيضا المطر الشديد ، والجرذ ، وواد جاء التيل من قبله) .

(٢) سحله كمنع : قشره ونفخته ، وقصمه : كسره .

(٣) البطحاء والأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

(٤) السهلة بالكسر : تراب كالرمل .

(٥) مأرب : مدينة باليمن ، وكانت في الزمان الأول قاعدة التباينة ، وهى مدينة بلقيس ، بينها وبين صنعاء نحو أربع مراحل ، وتسمى سبأ ، بإسم بانها سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان .

هو وولده (١) ، نخرج ، ثم أرسل الله تعالى على السد (٢) السيل فهدمه .
(شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون ص ٩٨)

* * *

(١) وقد خشي أن يستنكر الناس عليه ذلك ، فأمر أحد أولاده إذادهاء
لما يدهوه إليه أن يتأبى عليه ، وأن يفعل ذلك به في الملا من الناس ، وإذا لطمه
يرفع هو يده ويلطمه ، ثم صنع طعاماً ، وبعث إلى أهل مأرب أن عمرواً صنع
يوم مجد وذكر ، فاحضروا طعامه . فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنه
الذي أمره بما أمر ؛ فجعل يأمره بأمر فيتأبى عليه ، وينهاه فلا ينتهي ، فرفع عمرو
يده فلطمه على وجهه ، فلطمه ابنه ؛ وكان اسمه ملكاً ، فصاح عمرو : واذا له ،
يوم نخر عمرو يهيج صبي ويضرب وجهه ، وحلف ليقبضه ، فلم يزالوا بعمرو
يرغبون إليه حتى تركه ، فقال : والله لا أقبل بموضع صنع بي فيه هذا ، ولا بيعن
أموالي حتى لا يرث منها بعدى شيئاً ، فقال الناس بعضهم لبعض : اغتصموا غضب
عمرو ، واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى ، فابتاع الناس منه كل أمواله التي
بأرض مأرب ، وفشا بعض حديثه فيما بلده من شأن سيل العرم ، فقام ناس من
الأزد فباعوا أموالهم ، فلما أكثروا البيع استنكر الناس ذلك ، فأمسكوا أيديهم
عن الشراء ، ولما اجتمعوا إلى عمرو أمواله أخبر الناس بشأن سيل العرم ، ولما
خرج عمرو من اليمن خرج لخروجه منها بشر كثير ، فنزلوا أرض « عك »
فحاربهم « عك » . فارتحلوا عنها ، ثم اصطالحوا وبقوا بها حتى مات عمرو بن عامر ،
وتفرقوا على البلاد ، فمنهم من صار إلى الشام ، وهم أولاد « جفنة بن عمرو بن عامر »
ومنهم من صار إلى يثرب ، وهم أبناء قبيلة « الأوس والخزرج » ، وأبوهما حارثة
ابن ثعلبة بن عمرو بن عامر ، وصارت « أزد الشراة » إلى أرض الشراة ؛ وأزد
عمان إلى عمان ، وصار ملك ابن فهم إلى العراق ، ثم خرجت بعد عمرو بن عامر
من أرض اليمن طيء ، فنزلت جبلى طيء : أجأ وسلي ، ونزلت ربيعة بن حارثة
ابن عمرو بن عامر تهامة ، وسموا خرواعة ، لانخزاهم من إخوانهم ، وتمزقوا
في البلاد كل ممزق .

(٢) كان السد فيما يذكر قد بناه لقمان الأكبر بن عاد ، وكان رصفه بالحجارة =

وقال أبو الفرج الأصهباني في الأغاني :

وسارت القبائل من أهل مأرب حين خافوا سيل العرم ، وغلبهم منزيقياء ،
ومعهم طريفة السكاهنة ، فقالت لهم :

« لا تؤمّثوا مكة حتى أقول ، وما علمني ما أقول إلا الحكيم المحكم ،
رَبُّ جميع الأمم ، من عرب وعجم » .

قالوا لها : ما شأنك يا طريفة ؟ قالت : خذوا البعير الشَّدقم^(١) ، نخضّ به
بالدم ، تسكن لكم أرض جُرهم^(٢) ، جيران بيته المحرم .

(الأغاني ١٣ : ١٠٥)

* * *

ودوى الميداني في مجمع الأمثال قال :

ألفت طريفة السكاهنة إلى عمرو بن عامر الذي يقال له : « منزيقيان
ماء السماء » ، وكانت قد رأت في كهانتها^(٣) أن سدّ مأرب سينخرّب ، وأنه

== السد بالرصاص والحديد ويقال : إن الذي بناه كان من ملوك حِمَير ، وذلك
أن الماء كان يأتي أرض سبأ من الشجر وأودية اليمن ، فردموا ردماً بين
جبلين ، وحبسوا الماء ، وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض .

(١) الواسع الشدق .

(٢) وكانوا يسكنون مكة ، فأرسل إليهم عمرو : أن افسحوا لنا في بلادكم
حتّ نقيم قدر ما نستريح ، ونرسل رواداً إلى الشام وإلى الشرق ، فحينما بلغنا أنه
أمثل لحقنا به ، فأبى ذلك جرهم إباء شديداً ، وقالوا : لا ، والله ما نحب أن ينزلوا
فيضيقوا علينا مراتبنا ومواردنا ، وكانت الحرب بين الفريقين ، وانهمرت جرهم
فلم يغلت منهم إلا الشريد .

(٣) كهن كهانة بالفتح ، فهو كاهن ، وحرفته السكاهنة بالكسر .

سبأقي سيل الحرم ، فيخرب الجنتين^(١) ، فباع عمرو بن عامر أمواله ، وسار هو وقومه حتى انتهوا إلى مكة ، فأقاموا بمكة وما حولها ، فأصابهم الجنى ، وكانوا يبكد لا يدرون فيه ما الجنى ، فدعوا طريفة فشكوا إليها الذي أصابهم ، فقالت لهم : قد أصابني الذي تشكون ، وهو مفرق بيننا . قالوا : فما تأمرين ؟ قالت :

« من كان منكم ذا همٌ بعيد ، وجمل شديد ، ومزاد^(٢) جديد ، فليلق بقصر عمان المشيد^(٣) ، فكانت أزدُ عمان .

ثم قالت : من كان منكم ذا جلد وقعر^(٤) ، وصبر على أزَمات الدهر ، فعليه بالأراك^(٥) من بطن ممر^(٦) ، فكانت خزاعة .

ثم قالت : من كان منكم يريد الراسيات في الوحل ، المُطعمات في المحل^(٧) ، فليلق ببئر ذات النخل ، فكانت الأوس والخزرج .

ثم قالت : من كان منكم يريد الخمر الخمر ، والمالك والتأخير ، ويلبس الديباج والحريز ، فليلق ببصرى وغوير ، (وهما من أرض الشام) ، فكان الذين سكنوها من آل سجفنة من غسان .

(١) قال تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية » جنتان عن يمين وشمال ،

(٢) المزاد والمزايد : جمع مزادة ، وهي الراوية .

(٣) المشيد : المرفوع ، قال مسلم بن الوليد في رثاء يزيد بن يزيد :
أما هدت لمصرعه نزار بلى ، وتقوض المجد المشيد

(٤) قسره على الأمر : قهره .

(٥) الأراك : القطعة من الأرض ، وموضع بعرفات ، وجبل .

(٦) بطن مر : مر بن أد بن طابخة .

(٧) المحل : الجذب والقحط .

ثم قالت : من كان منكم يريد الشياح الرفاق ، والخيل العناق ، وكثوز
الأرزاق ، والدّم المهرق ، فليأحق بأرض العراق ، فكان الذين سكنوها آل
كجديمة الأبرش ، ومن كان بالحيرة وآل محرق^(١) .
(مجمع الأمثال ١ : ١٨٩)

ونلاحظ من حديث طريفة الخير الآتي : أن العرب كانوا يعرفون علم
الاحياء فهم يعرفون الحيوان وسلوكياته والرياح ونواحيها واتجاهاتها ،
وما يستدل من هذه العلوم من نتائج تخبر عن حدوث أمر ما وهذا يتضح في
قولها : « لقد رأيت ساحفاً تجرف التراب جرفاً ، فدخلت الحديقة » فإذا
الشجر من غير ريح يتكفأ ، وقولها : « فإذا رأيت جرداً يكثر يديه في السد
الحفر فاعلم أن غمر الغمر » .

وقولها في صفة الرياح « وإن من علامات ما ذكرت لك أن تجلس فتأمر
برجاجة فتوضع بين يديك ، فإن الريح يملؤها من تراب البطحاء النخ » .

ومن هنا نرى أن الأمر ليس مرتبطاً بالسكمانه ، واسكنه نتيجة مستنبطة
من خلال دراسات عملية للبيئة وما تحتويه من جبال وأشجار وغيرها يستدل
بها على التوقعات المنتظرة ، وشبهه بهذه الأوصاف المذكورة ما يحدث في
عصرنا الحديث من تحركات بعض الأشياء ، والهزات الخفيفة التي تحدث غالباً
قبل الزلازل .

كما نلاحظ أن الحاكم في هذه الفترة كان يحترم رأى الكاهنات ويقدرهن
وفي هذا اعتراف بمكانة الكواهن ومنزلتهن العلمية في هذا الزمان .

(١) هو عمرو بن هند لأنه حرق مائة من بني تميم .

حديث زبراء الكاهنة مع بني رثام من قضاة

كان ثلاثة أبطن من قضاة مجتورين^(١) بين الشجر وحضر موت :
بنو ناعب ، وبنو داهن ، وبنو رثام ، وكانت بنو رثام أقلهم عدداً ، وأشجعهم
لقاءً ، وكانت لبني رثام عجوز تسمى خويلة ، وكانت لها أمة من مولدات
العرب ، تسمى زبراء ؛ وكان يدخل على خويلة أربعون رجلاً ، كلهم لها
محرم ، بنو إخوة ، وبنو أخوات ، وكانت خويلة عقيماً ، وكان بنو ناعب ،
وبنو داهن متظاهرين على بني رثام ، فاجتمع بنو رثام ذات يوم في عرس لهم ،
وهم سبعون رجلاً ، كلهم شجاع بئيس^(٢) ، فطعموا وأقبلوا على شرابهم ،
وكانت زبراء كاهنة ، فقالت لخويلة : انطلقى بنا إلى قومك أنذرهم ،
فأقبلت خويلة تتوكأ على زبراء ، فلما أبصرها القوم ، قاموا لإجلالها . فقالت :
« يا ثمر الآ كباد ، وأنداد^(٣) الأولاد ، وشجاء^(٤) الحساد ، هذه زبراء ،
تخبركم عن أنباء ، قبل انحسار الظلماء ، بالمؤيد^(٥) الشنعاء ، فاسمعوا ما تقول ،
قالوا : وما تقولين يا زبراء ؟ قالت :

« والوح^(٦) الخافق ، والليل ، الغاسق ، والصباح الشارق ، والنجم
الطارق ، والمزن^(٧) الوادق^(٧) ، إن شجر الوادي ليأدو خنتلا^(٨) ،

(١) أنداد : جمع ند بالكسر ، وهو المثل والنظير .

(٢) الشجاء : ما اعترض في الخلق من عظم ونحوه .

(٣) المؤيد : الدائمة والأسر العظيم .

(٤) اللوح بالضم والفتح (والضم أعلى) : الهواء بين السماء والأرض .

(٥) غسق الليل كجلس : اشتدت ظلمته .

(٦) الطارق : في الأصل ، كل من أتى ليلاً ، ثم استعمل في النجوم لطلوعها ليلاً .

(٧) المزن : السحاب أو أبيضه أو ذو الماء ، والوادق من ودق المطر

كوعد : قطر . (٨) أدوت له آدو أدوا إذا خنتله وخدعته

(ودأيت له ، ودألت له أيضا) والنختل : النخدع .

ويحرق أنياباً عَصَلاً^(١) ، وإن صخر الطود لينذر ثكلاً^(٢) ، لا تجدون عنه مَعَلًا^(٣) .

فوافقت قوماً أشارى^(٤) سكارى ، فقالوا : « ريجٌ خجوجٌ^(٥) » ، بعيدة ما بين الفروج ، أتت ذِراءُ الأبلق التتوج^(٦) .

فقالت ذِراء : « مهلاً يا بنى الأعرّة » ، والله إنى لأشتمُ ذفر^(٧) الرجال تحت الحديد » ، فقال لها فتى منهم يقال له مُهذِل بن منقذ : « يا خذاق^(٨) ، والله ما تشمّين إلا ذفرَ إبطيك » ، فانصرفت عنهم ، وارتاب قوم من ذوى أسنانهم ، فانصرف منهم أربعون رجلاً ، وبقي ثلاثون ، فرقدوا في مشربهم ، وطرقتهم بنو داهن وبنو ناعب ، فقتلواهم أجمعين .

(١) حرق أنيابه : إذا حك بعضهم ببعض ، والعرب تقول عند الغضب يفضيه الرجل على صاحبه : « هو يحرق على الأرم » ، والأرم كسر : الأضراس ، والعصل : المعوجة جمع أعصل .

(٢) الطود : الجبل ، والشكل : الفقد . (٣) المَعَل : المنجى .

(٤) الأشر محرّكة : المرح . (٥) الخجوج : السريعة المَر .

(٦) الأبلق . وصف من الأبلق محرّكة ، وهو ارتفاع البياض في قوائم الفرس إلى الفخذين ، والأبلق لا يكون نتوجاً ، والعرب تضرب هذا مثلاً للشئ الذى لا ينال ، تقول « طلب الأبلق العقوق » ، فلما فاته أراد يبيض الأنوق ، والعقوق كصبور : الحامل ، والأنوق كصبور أيضاً : الذكر من الرخم ولا يبيض له ، هذا قول بعض اللغويين . فالعنى أنه طلب مالا يمكن ، فلما لم يجد طلب أيضاً مالا يكون ولا يوجد ، وعامتهم يقولون : الأنوق الرخمة وهى تبيض فى مكان لا يوصل فيه إلى يبيضها إلا بعد عناء . فالعنى أنه طلب مالا يقدر عليه ، فلما لم ينله طلب بما يجوز أن يناله .

(٧) الذفر : حدة الريح ، يكون فى النتن واليب .

(٨) خذاق : كناية عما يخرج من الإنسان يقال : خذاق ، ومزق ، وذرّق .

وأقبلت خويلدة مع الصباح ، فوقفت على مصارعهم ، ثم عمدت إلى خناصرهم ، فقطعتهم ، وانتظمت منها قلادة ، وألقته في عنقها ، وخرجت حتى لحقت بمرضاوى بن سموة المهرى ، وهو ابن أختها ، فأناخت بفنائه ، فاستعدته على بني داهن وبني ناعب ، فخرج في المنسر^(١) من قومه ، فطرقهم فأوجع فيهم .

(الأمالي ١ : ١٢٦)

وفي حديث الزبراء ، نلاحظ أنه مع الاعتراف بـ كاهنة السكواهن ، واحترام رأيهن ، إلا أن هناك بعضاً من العرب ، كانوا يعتبرون ذلك من قبيل الدجل والشعوذة ، وهذا ما نراه من موقف هذيل بن منقذ^(٢) والله ما تشمين إلا ذفر إبطيك^(٣) مفعلاً قول الزبراء : « لاني لأشم ذفر الرجل تحت الحديد » كما نلاحظ في حديث الزبراء السكاهنة ، مدى تأثير المرأة العربية ، وأهميتها الاجتماعية في قومها ، وأنها بكلمة واحدة تثير الحرب الضروس ، وهذا ما تشاهده في موقف « خويلدة » ، وأنها تعتمد إلى خناصر القتلى وتنظم منها قلادة واحدة تلقىها في عنقها ، ثم تذهب إلى ابن سموة المهرى فتقيم في داره وتستعديه على « بني داهن ، و « بني ناعب » ، فأعلن الحرب عليهما ، وأعد جيشاً من قومه وقاتلهم وأعمل فيهم القتل والتنكيل .

(١) المنسر من الخيل : ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، أو من الأربعين إلى الخمسين ، أو إلى الستين ، أو المائة إلى المائتين ، وقطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير .

كاهنة ذى الخلصة تتسكن بها فى بطن رقية بنت جشم
 زعموا أن رقية بنت جشم بن معاوية ، ولدت نمرأ وهلالا وسواءة ،
 ثم اعتاطت (١) فأنت كاهنة بذى الخلصة (٢) ، فأرتمها بطنها ، وقالت : إني
 قد ولدت ، ثم اعتطت ، فنظرت إليها ومسست بطنها ، وقالت :
 « رَبِّ قَبَائِلَ فِرْقٍ ، وَجَالِسَ خَلْقٍ ، وَمُظْمٍ (٣) حَزْمٍ (٤) ، فى
 بطنك زرق (٥) » .
 فلما مخضت (٦) بريعة بن عامر (٧) ، قالت : إني أعرف شرطى بهلال ؛
 « أى هو غلام ؛ كما أن هلالاً كان غلاماً » .
 (مجمع الأمثال ١ : ٢٢١)

-
- (١) اعتاطت المرأة : لم تحمل سنين من غير عقر .
 (٢) ذو الخلصة محرّكة وبضمتين : بيت كان يدهى الكعبة اليمانية لخشع ، كان
 فيه صنم اسمه الخلصة .
 (٣) الظعن والظعان : جمع ظعينة ، وهى الهودج سواء كان فيه امرأة أم لا ،
 والمرأة ما دامت فى الهودج ، ويقال : الظعينة فى الأصل وصف للمرأة فى هودجها ،
 ثم سميت بهذا الاسم ، وإن كانت فى بيتها ، لأنها تصير مظعونة (أى يظعن بها
 زوجها ، فهى فميلة بمعنى مفعولة) .
 (٤) الحزق والحزقة (بكسر الحاء) والحازقة ، والحزيق ، والحزيقة ، والحزاقة
 (بالفتح) : الجماعة ، والجمع : حزائق وحزيق وحزق (بضمتين) .
 (٥) أى وضع ، وأصل الزرق : رمى الطائر بذرقه .
 (٦) مخضت كسبغ ومنع وعنى : أخذها الطلق .
 (٧) هو : بريعة بن عامر بن صمصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور
 ابن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر ، ومن نسله بنو كلاب بن بريعة
 ابن عامر ، وبنو جعفر بن كلاب بن بريعة .

وفي حديث كاهنة ذى الخلصة ، أرى أن كلامها هذا لا يعد من قبيل السكمانية ، إذ أنه لا يعدو أن يكون من باب البشارة التي يسوقها النساء عادة في مثل هذه المواقف ، والغرض منها إسعاد النساء ، بكلام محبب إلى قلوبهن ، وهو أسلوب من أساليب التفاؤل ، وتوقع الخير ، وهذا يحدث في كل العصور لافي العصر الجاهلي وحده .

كما أننا نلاحظ في حديثها اعتزاز العرب بالولد فهو يحمل اسم القبيلة ، ويدافع عن ذمارها ، ومن ذريته يأتي المحامون والمدافعون عن بيضة العشيرة والقبيلة .

* * *

رأى سلمى الهمدانية في حريم المرادى

كما نلاحظ أهمية مشورة المرأة في العصر الجاهلي وأن الملوك كانوا ينزلون عند رأيها ومشورتها ويستنبرون برأى عاقلها كما بدا واضحاً في استرشاد عمرو ابن بركة برأى سلمى الهمدانية وبلغ من تأثير رأيها فيه أنه أغار على حريم المرادى وقاتله واستاق كل شيء له ، وكان كل شيء يسير بناء على توجيهات سلمى وإرشاداتها .

وكان أغار رجل من « مراد » ، يقال له « حريم » ، على إبل عمرو بن بركة الهمداني وخيل له ، فذهب بها ، فأقى عمرو بن سلمى الهمدانية ، وكانت بنت سيدهم ، وعن رأيها كانوا يصعدون ، فأخبرها أن حريماً المرادى أغار على إبله وخيله ، فقالت : « والخفور والوميض^(١) ، والشفق كالإحريض^(٢) ، والفلة والحضيض^(٣) ، إن حريماً المنيع^(٤) الخير^(٥) ، سيد مزير^(٥) ذو معقل حريز

(١) الخفور : اللعنان الضعيف ، والوميض : أشد من الخفور .

(٢) الإحريض : العصفور . (٣) القلة : أعلى الرأس ، والجبل ،

وكل شيء ، والحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .

(٤) الناحية . (٥) مزير : فاضل ، من قولهم هذا أمز من هذا أى أفضل منه .

غير أنى أرى الحجة (١) ستظفر منه بعثرة ، بطيئة الجبرة ، فإغره
ولا تسكع (٢) .

فأخذ عمرو ، فاستاق كل شيء له ، فأق حريم بعد ذلك يطلب إلى عمرو
أن يرد عليه بعض ما أخذ منه ، فامتنع ورجع حريم .
(الأمالي ٢ : ١٢٣)

تنافر العجفاء بنت علقمة وصواحباتها إلى الكاهنة السعدية
كان العرب يفتخرون بالأنساب ، ويشيدون بماثر الآباء والأجداد
متمثلين بقولهم :

إن الفقى من يقول كان أبى ليس الفقى من يقول ها أنذا (٣)

ونرى هنا أن المرأة العربية سلكت مسلكاً آخر مغايراً لما كان عليه الحال
قبل ذلك ، فتقدم لنا العجفاء — فى حديثها الآتى — الرجال فى صورة عملية
تسجيلية ، نرى من خلالها الخصال الطيبة والسيئات المحمودة للرجال ، كأننا
نراها ونلمسها ، تحفز على الخير ، وتحض على الفضائل فلم تعد الصورة مجرد
نقش ومنافرة بل كرماء يبعث على الكرم ، ومروءة ، تدفع إلى المروءة ، وصدقاً
ينهى عن الكذب ، وفضائل خيرة تنهى عن الرذائل المشينة :
* وبضدها تتميز الأشياء *

(١) الحجة : القدر (بحركة) ، وقيل : هى واحد الحمام (بالكسر) .

(٢) نسكعه عن الأمر (كنع) منه ودفعه .

(٣) أى أنهم عكسوا قول الشاعر :

ليس الفقى من يقول كان أبى إن الفقى من يقول ها أنذا

وكان قد روى أن العجفاء بنت علقمة السعدية^(١) ، وثلاث نسوة من قومها ، خرجن فائتدن بروضة يتحدثن فيها ، فوافين بها ليلاً في قر زاهر ، وليلة طلقة ساكنة ، وروضة ممعشبة خصبة ، فلما جلسن قلن : ما رأينا كالليلة ليلة^(٢) ، ولا كهذه الروضة روضة أطيّب ريحاً ولا أنضر .

ثم أفضن في الحديث ، فقلن : أى النساء أفضل ؟ قالت إحداهن : الخرود^(٣) ، الودود الولود ، قالت الأخرى : خيرهن ذات الغناء^(٤) ، وطيب الثناء ، وشدة الحياء . قالت الثالثة : خيرهن السموع المجموع ، النفوع غير المنوع ، قالت الرابعة : خيرهن الجامعة لأهلها ، الوادعة الرافعة ، لا الواضعة . قلن : فأى الرجال أفضل ؟ قالت إحداهن : خيرهم الحظي^(٥) الرضى ، غير الحظيل^(٦) البطى . قالت الثانية : خيرهم السيد الكريم ، ذو الحسب العميم ، والمجد القديم . قالت الثالثة : خيرهم السخى ، الوفى الرضى ، الذى لا يغير^(٧) الحرّة ، ولا يتخذ الضرّة . قالت الرابعة : وأبيكن ، إن فى أبى لنعستكن ، كرم الأخلاق ، والصدق عند التلاق ، والفلج^(٨) عند السباق ، ويحمده أهل الرفاق . قالت العجفاء عند ذلك : كل فتاة بأبيها معجبة .

(١) الخرود ، والخريد ، والخريدة : الحمية الطويلة السكوت ، الخافضة الصوت ، المتسترة .

(٢) السكفاية والمنفعة .

(٣) الحظي : ذو الحظوة والمسكافة عند زوجه ، والحظية كذلك .

(٤) رجل حظل ككتف وشداد وصبور : مقتر ، يحاسب أهله بما ينفق عليهم ، وفى مجمع الأمثال : غير الحظال ، ولا التبال ، والتبال بالتشديد من التبل (بفتح فسكون) وهو الحقد .

(٥) أغار امرأته : تزوج عليها .

(٦) الفوز والظفر .

وفي بعض الروايات أن إحداهن قالت : إن أبي يكرم الجار ، ويُعظم الخطار^(١) ، وينهر العشار^(٢) ، بعد الحوار^(٣) ، ويحمل الأمور الكبار ، ويأنف من الصغار ، فقالت الثانية : إن أبي عظيم الخطر ، منيع الوزر^(٤) ، عزيز النفر ، يحمي منه الورد والصدر ، فقالت الثالثة : إن أبي صدوق اللسان ، حديد الجنان ، رزوم^(٥) الجفان ، كثير الأعوان ، يروى السنان عند الطعان ، قالت الرابعة : إن أبي كريم النزال ، مهيف المقال ، كثير النوال ، قليل السؤال ، كريم الفعال .

ثم تنافرن إلى كاهنة معهن في الحى ، فقلن لها : اسمعى ما قلناه ، واحكمى بيننا واعدلى ، ثم أعدن عليها قولهن ، فقالت لهن : كل واحدة منكن ماردة^(٦) ، بأبيها واجدة^(٧) ، على الإحسان جاهدة ، لصواحبها حاسدة ، ولسكن اسمعنى قولى : خير النساء المبقية على بعلمها ، الصابرة على الضراء مخافة أن ترجع إلى أهلها مطلقة ؛ ففى تؤثر حظ زوجها على حظ نفسها ؛ فتلك السكريمة الكاملة ؛ وخير الرجال الجواد البطل ، القليل الفشل ، إذا سألته الرجل ، ألفاه قليل العذل ، كثير النفل^(٨) ، ثم قالت : كل واحدة منكن بأبيها معجبة .

(مجمع الأمثال ٢ : ٥٤ وجمهرة الأمثال ٢ : ١٢٣)

-
- (١) الخطار : جمع خطر كسبب وهو السبق يتراهن عليه .
 (٢) العشار : جمع عشاء كنفساء وهى من النوق التى مضى لخلها عشرة أشهر أو ثمانية .
 (٣) الحوار بالضم وقد يكسر : ولد الناقة ساعة تضعه .
 (٤) الوزر : الملجأ . (٥) الرزوم : القصعة الممتلئة تصيب جوانبها .
 (٦) ماردة : أى بلغت الغاية .
 (٧) وجد به بالكسر : أحبه .
 (٨) النفل : الهبة .

عفراء الكاهنة تعبر عن رؤيا مرثد بن عبد كلال

روى أن مرثد بن عبد كلال قفل من غزوة غزاها بغنائم عظيمة ، فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه ، ورفع الحجاب عن الوافدين ، وأوسعهم عطاء ، واشتد سروره بهم ، فبينما هو كذلك إذ نام يوماً فرأى رؤيا في المنام أخافته وأذعرتة وهالته في حال منامه ، فلما انتبه أنسبها حتى لم يذكر منها شيئاً ، وثبت ارتياعه في نفسه بها ، فانقلب سروره حزناً ، واحتجب عن الوفود حتى أساءوا به الظن ، ثم إنه حشر الكهان ، فجعل يخلو بكاهن كاهن . ثم يقول : أخبرني عما أريد أن أسألك عنه ، فيجيبه الكاهن بأن لا علم عندي ، حتى لم يدع كاهناً علمه إلا كان إليه منذ ذلك ، فتضاعف قلقه ، وطال أرقه ، وكانت أمة قد تسكنت ، فقالت له : أبيت اللعن أيها الملك ، إن الكواهن أهدي إلى ما تسأل عنه ، لأن أتباع الكواهن من الجان ، ألطف وأظرف من أتباع الكهان ، فأمر بحشر الكواهن إليه ، وسألهم كما سأل الكهان ، فلم يجد عند واحدة منهم علماً بما أراد علمه ، ولما يئس من طلبته سلا عنها ، ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيد فأوغل في طلب الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرفعت له أبيات من مخرأ^(١) جبل ، وكان قد لفحه الهجير ، فعدل إلى الأبيات ، وقصد بيتاً منها كان منفرداً عنها ، فبرزت إليه منه عجوز ، فقالت له : انزل بالرحب والسعة ، والأمن والدعة ، والجفنة المددعة^(٢) ، والعلبة المترعة^(٣) ، فنزل عن جواده ، ودخل البيت ، فلما احتجب عن الشمس ، وخفقت عليه

(١) أي في كنفه وستره .

(٢) الجفنة : القصعة ، والمددعة : التي ملئت بقوة ثم حركت حتى تراض ما فيها ، ثم ملئت بعد ذلك .

(٣) العلبة : قدح من جلود الإبل أو من خشب يملأ فيها ، والمترعة : المملوءة .

الأرواح^(١) ، نام فلم يستيقظ حتى تصرّم الهجين ، لجلس يمسح عينيه ، فإذا هو بين يديه فتاة لم ير مثله قواماً ولا جمالاً ، فقالت : « أبيت اللعن أيها الملك الهمام ! هل لك في الطعام ؟ » فاشتد إشفاقه وخاف على نفسه لما رأى أنها عرفتّه ، وتصامّ عن كلمتها ، فقالت له : « لا حذر ، فذاك البشر ، فجدك الأكبر ، وحظنا بك الأوفر » ثم قرّبت إليه ثريداً وقديداً وحينساً^(٢) ، وقامت تذوّب عنه ، حتى انتهى أكله ، ثم سقته لبناً صريفاً وضريباً^(٣) ، فشرب ماشاء ، وجعل يتأملها مُقبلة ومدبرة ، فلأت عينيه حسناً ، وقلبه هوى ، فقال لها : ما اسمك يا جارية ؟ قالت : اسمي عفيرة ، فقال لها : يا عفيرة ، من الذى دعوتّه بالملك الهمام ؟ قالت : « مرئد العظيم الشأن ، حاشر الكواهن والكهان ؛ المعضلة بعد عنها الجان » ، فقال يا عفيرة : أتعلين تلك المعضلة ؟ قالت : « أجل أيها الملك ، إنها رؤيا منام ، ليست بأضغاث^(٤) أحلام » . قال الملك : أصبت يا عفيرة ، فأتلك الرؤيا ؟ قالت : « رأيت أعاصير^(٥) زواجع بعضها لبعض تابع ، فيها لهب لامع ، ولها دخان ساطع ، يقفوها نهر مُتدافع ، وسمعت فيها أنت سامع ، دعاء ذى جرس^(٥) »

(١) الأرواح ، والرياح : جمع ريح .

(٢) القديد : اللحم المقدد ، أو أقطع منه طولا ، والخيس تمر يخلط بسمن وأقط ، فيعجن شديداً ثم ينذر منه نواه ، والأقط شيء يتخذ من الخيض الغنى والخيث : تمر يخلط بسمن .

(٣) الصريف : اللبن ساعة الحلب والضريب : اللبن يحلب من عدة لقاح في إناء .

(٤) أضغاث أحلام : رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها .

(٥) الأعاصير : جمع إعصار وهو الريح التى تهب من الأرض كالعمود نحو السماء ، أو التى فيها العصار بالكسر وهو الغيار الشديد .

صادغ : هــوا إلى المشارع^(١) ، فروى جارع^(٢) . وغريق كارع^(٣) ، فقال الملك : أجل ، هذه رؤياي ، فما تأويلها يا عفيراء ؟ قالت : د الأعاصير الزواجع ، ملوك تبابع^(٤) ، والنهر علم واسع ، والداعى نبي شافع ، والجارع ولي تابع ، والسكرع' عدو منازع . فقال الملك : يا عفيراء ، أسلم هذا النبي أم حرب ؟ فقالت : د أقسم برافع السماء ، ومنزل الماء من السماء^(٥) ، وإنه لمطيل^(٦) الدماء^(٧) ، ومنطق العقائل نطق الإمام^(٨) . فقال الملك : إلام يدعو يا عفيراء ؟ قالت : د إلى صلاة وصيام ، وصلة أرحام ، وكسر أصنام : وتعطيل أزلام^(٩) ، واجتناب آثام ، فقال الملك : يا عفيراء ، إذا ذبح قومه

-
- (١) المشارع : جمع مشرعة وهى مورد الشاربة .
 (٢) جارع : فاعل من جرح الماء كسمع ومنع إذا بلعه .
 (٣) كارع : فاعل من كرع فى الماء كسمع ومنع تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا بإثاء . (٤) التبابع : جمع تبع كسكر : ملوك الين .
 (٥) السماء : السحاب الكثيف .
 (٦) انظر قوله عليه الصلاة والسلام فى خطبته فى حجة الوداع د وإن دماء الجاهلية موضوعة .
 (٧) العقائل : كرائم النساء جمع عقيلة ، والنطق : جمع نطق ككتاب ، والنطاق والمنطقة : ما تشد به المرأة وسطها للهيئة ، ونطقها تنطقا : البسها النطاق فتنطقت وانتطقت ، ومنطق النساء أى يسبين فيشددن النطق على أوساطهن للخدمة كالإماء .
 (٨) الأزلام : جمع زلم ، كسبب : قداح كان العرب يستقسمون بها فى الجاهلية (أى يطلبون معرفة ما قسم لهم) وذلك أنهم كانوا إذا قصدوا فعلا من تجارة أو سفر أجالوا ثلاثة قداح (القداح جمع قدح بالكسر ، وهو : السهم قبل أن يراش) وكانت عند أصنامهم ، أحدها مكتوب عليه : أمرنى ربى ، والثانى نهانى ربى ، والثالث : غفل . ويتصرف الواحد منهم حسب ما هو مكتوب .
 (٦ - أدب النساء)

فمن أعضاده^(١)؟ قالت : أعضاده غطارييف^(٢) يمانون ، طائرهم به ميمون ،
يغزيهم فيغزون ، ويمد^(٣) بهم الحزون ، وإلى نصره يهتزون ، فأطرق
الملك يؤامر^(٤) نفسه في خطبتها ، فقالت : « أبيت اللعن أيها الملك ! إن تابعي
غيور ، ولأمرى محبوب ، وناكح مشهور ، والسكاف بن ثبور^(٥) ، فمنض
الملك وجمال في صهوة^(٦) جواده ، وانطلق ، فبعث إليها بمائة ناقة كوما .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٩٦)

ومن كلام عفيفاء السكاهنة - نرى أن هناك من النساء في الجاهلية من
تتصف بالشفاعة وصفاء الروح ، فقد تنبأت عفيفاء بوجود النبي الكريم
ووصفته بأنه مظل الدماء ، ومنطق القبائل نطق الإماء ، واعلموا في تنبؤها هذا
قد اطلعت على هذه الأخبار عن طريق اتصالها بالأخبار والرهبان والحنفاء
كورقة بن نوفل وأممية بن أبي الصلت وغيرهما .

كما يدل حديث عفيفاء على وجود ما يسمى « بعلم تفسير الأحلام » كعلم
له قواعده وأصوله عند العرب وبخاصة الحكماء .

وأياً ما كان فإن أدب السكواهن موسوعة أدبية وتاريخية وعلمية ، قدمت
لنا وصفاً تسجيلياً ، لمعاداة العرب وطبائعهم ، وأخلاقهم وعلومهم وثقافتهم
في باقة مسجوعة موسيقية ترتاح لها النفس ، ويهفو لها القلب .

-
- (١) الأعضاد : الأنصار جمع عضد ، والذبح معروف ، والمراد هنا إذا
قطعوه وتركوا نصرته . (٢) الغطارييف : جمع غطارييف وهو السيد الشريف .
(٣) يسمل ، والحزون : جمع حزن كشمس وهو ما غلظ من الأرض .
(٤) يشاور . (٥) الثبور : الهلاك . (٦) الصهوة : مقعد الفارس .

الفصل الثاني

الحكمة والمثل

العرب - كغيرهم من الشعوب الشرقية عامة والسامية خاصة - شديدوا الميل إلى إرسال الحكمة والمثل وهما على لسانهم في كل حال ، يدعمون بهما أقوالهم ، ويعملون بهما أعمالهم فيطلقونهما عند كل فرحة وترحة ، ويوردونهما في جميع أحداثهم متضمنة تجاربهم ، وخبرتهم في حياتهم ومجتمعهم ، فهي عندهم من ذخائر الدهر ، وحكم الزمان ، وثمار الشيوخوخة المحنة التي توجه الناس إلى الطريق الأقوم في تنظيم شؤونهم القبلية والحضرية

وللحكمة عند العرب مكانة عالية ، ومنزلة مرموقة وهي (وثى الكلام ، وجوهر اللفظ وحل المعاني) وهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة لم يسر شيء مسيرها ، ولا عم عمومها حتى قيل « أسير من مثل » ، وقال الشاعر :

ما أنت إلا مثل سائر يعرفه الجاهل والخابر

وقد ضرب الله عز وجل الأمثال في كتابه ، وضربها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في حديثه . قال الله تعالى : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له » (١) ومثل هذا كثير في القرآن الكريم .

وجاء في المناظرة التي جرت بين النعمان بن المنذر ، وكسري أنوشروان في شأن العرب :

(١) آخر سورة الحج .

« قال النعمان : وأما الأمم التي ذكرت فأية أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها .

قال كسرى : بماذا فضلتها ؟

قال النعمان : بعزها ، ومنعتها ، وحسن وجوهها ، وبأسها ، وسخاها وحكمة أسنتها .

وأما حكمة أسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورواق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالآشياء وضربهم « الأمثال » وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من السنة الأجناس^(١) ، ومن ثم ترى أن الحكمة والمثل من موضوعات فخر العرب لأنهما دليل الحصافة والفهم ، ولا عجب في ذلك فإنهما فلسفة الحياة وعصارة خبرة الدهور وخلاصة نور العقل ، ونور اليقين ، بل إنهما عينا النفس العربية ومرآة ما يحول فيها ، وطريق الاستقامة إلى المثل العليا .

ومن زعماء الحكمة والمثل أكرم بن صيفي وقل من جاده من حكام عصره في ضرب الأمثال وسوق الحكمة ، وكان في خطبه قليل « المجاز حسن الإيجاز » ، حلو الألفاظ ، دقيق المعاني مولعاً بالأمثال يقول : « حسبك من شر سماعة » ، « الصمت حكم وقليل فاعله » ، وزهير بن أبي سلمى المزني ، وقد أكثر من الأمثال والحكم بما لم يفقهه شاعر جاهلي ، وبما فتح به باب الحكم والأمثال في الشعر العربي فكان كلامه الدرب الذي سلكه الشعراء لبلوغ الحكمة ومن أمثلته :

ومن هاب أسباب المنايا ينلته وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذماً عليه ويندم
ولبيد بن ربيعة ، وهو ممن أبدعوا في الحكم والأمثال ، وقد ثبت في

(١) الحكم والأمثال ص ١٠ ، ١١ .

الصحيحين شهادة للنبي ﷺ له بقوله : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

* ألا كل شيء ما خلا الله باطل *

وطرفة بن العبد الشاب الذي انهالت عليه المصائب فأنطقته بالحكمة التي نثرها في ديوانه فكانت مصبوغة بصبغة الوعي والحسنة :

الخير خير وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد
وأمية بن أبي الصلت الذي يمتاز شعره بتضمنه روائع الحكمة والمثل يقول :
عطائك زين لامرئ قد حبوته بخير وما كل العطاء يزين
وليس بشين لامرئ بذل وجهه إليك أيما بعض السؤال يشين

وعدي بن زيد العبادي يقول من قصيدة نظمها في السجن ووجهها إلى النعمان أبي قابوس يتظلم من سجنه (وكان قد وشى بعض الخاقدين به إلى النعمان فسجنه) :

أيها الشامت المعير بالدهر أنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت للنون خلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى ، كسرى المالك - سوك أبوساسان أم أين قبله سابور

وأسلوب عدى ساذج لينته الحاضرة ، وجعلته ناعم الجرس رائع التشبيه والتصوير أحياناً ، وإنك لتشعر أن لغة الشاعر تتناقل ولا تنقاد له ناصية القوافي ، ولهذا لم يعد العلماء الأقدمون حجة في الشعر (١) .

وقد شاركت المرأة الأدبية الرجال الأدباء في ضرب الأمثال والحكم ، وكن أمثلة رائعة في هذا الفن ، ومنهن عئمة بنت مطرود البجليّة ، والحمرام

بنت ضمرة بن جابر وحبي بنت مالك العدوانية ، والعجفاء بنت علقمة السعدي
والخنساء بنت عمرو بن الشريد ، والأمثلة التي أرسلتها المرأة العربية من الوجهة
الأدبية والفنية تقوم على التشبيه والاستعارة والتشيل ، وهي لا تعدو الأمثال
العربية الأخرى التي ساقها الحكماء - ووصلت صورة الكلام فيها إلى الغاية
القصوى في البلاغة من حيث إيجاز اللفظ وصحة المعنى ، وحسن البيان ، ولطف
الإشارة وإصابة الغرض ، وصدق التجربة ، وتجعل النفوس ترتاح لها وتنشط
لحفظها ، ليسير مشورتها ، وحسن وقعها ، وسهولة الاحتجاج بها ، ولأنها تورث
ما تتخلله من الكلام رواجاً ، وتكسبه قبولاً ، كما أنها مستقاة من حياة البداوة ،
ومستوحاة من رمال الصحراء ، وطبيعة أرضها وسماها وحيوانها ونباتها ،
وعادات العرب وتقاليدهم وحروبهم وغزواتهم ، وحلمهم وترحالهم وشجاعتهم
وجودهم ، وعزهم وشرفهم وسائر أخلاقهم العربية ؛ فإن رأت زوجها تخلف
عن لقاء العدو واعتكف في منزله ، ثم اغتاض من نظرها وإعجابها بالمقاتلين
الشجعان ، انطلقت قائلة :

* أغيرة وجبنا *

فذهبت مثلاً ، وإن سئلت ما ليس في بيتها ، فلما عز عليها عطاؤه ،
وقيل لها : أتبخلين ؟ انطلقت قائلة :

* بيتي يبخل لا أنا *

وقولها :

ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل

وقد ظهرت في العصر الجاهلي أدبيات حكميات اشتهرن بضرب المشل
والحكمة ، فذهب كلامهن مثلاً دائماً ، يتمثل به في جميع المواقف ، والمرأة
من طبيعتها تتجنب دائماً إلى الحكمة وعدم التسرع في بعض الأمور ، ولأنها

كثيراً ما يهتدى عن طريق شعورها وبصيرتها إلى حقائق قد لا يستطيع الرجل أن يهتدى إليها بعقله وتفكيره المجرد^(١) .

وقد نبغ في مجال الحكمة نساء كثيرات ، ومنهن عذمة بنت مطرود البجليّة والحراء بنت ضمرة ، وحبي بنت مالك العدوانية ، وعصام السكندية ، والعجفاء بنت علقمة السعدى ، والخنساء . بنت عمرو بن الشريد ، و دقذور ، بنت قيس بن خالد الشيباني ، والأمثلة الآتية : تبين مدى ما بلغت إليه المرأة من الدقة المتناهية في صوغ الأمثال ، فجاءت أمثلة معبرة عن روح العصر الذى يعيش فيه كما تضمنت خلاصة تجاربهم في الحياة وصارت أمثلة خالدة تعبر عن أديهم ونبوغهم :

(لا تعدم الحسناء ذاماً)^(٢)

قالتة شحى بنت مالك العدوانية .

(لا عتاب على الجنـدل)

يضرب فى الأمر إذا وقع لا مرد له .

وأصله ما حدثوا أن إحدى ملكات سبأ ، وفد إليها قوم يخطبونها . فقالت : ليصف كل رجل منكم نفسه ، وايقـدق ، وليوجـز . لا أقدم إن تقدمت ، أو أدع إن تركت على علم . فتسكـم رجل منهم يقال له مدرك ، فقال : إن أبى كان فى الدرباذخ ، والحسب الشامخ . وأنا شرس الخليفة ، غير رعديد عند الحقيقة^(٣) ، قالت . لا عتاب على الجنـدل . فأرسلتها مثلاً . ثم تسكـم

(١) د سيكلوجية المرأة ، الدكتور زكريا ابراهيم ، مكتبة مصر - الفجالة ص ٣٥

(٢) الذام : العيب .

(٧) الرعديد : الجبان المستطار القلب ، والحقيقة : ما يحق على المرء أن يحميه ،

وقد يريدون بها اللواء .

آخر منهم يقال له ضبيس ابن شريس . فقال : أنا في مال أثبت ، وخلق غير خبيث ، وحسب غير عنيث ، أحذو الفعل بالفعل ، وأجزى القرض بالقرض^(١) . فقالت : لا يسرك غائباً ، من لا يسرك شاهداً ، فأرسلتها مثلاً . ثم تكلم آخر منهم يقال له شماس بن عباس . فقال : أنا شماس بن عباس ، معروف بالندی والباس ، حسن الخلق في سجية ، والعدل في قضية ، مالى غير محظور على القل والكثر ، وبالى^(٢) غير محجوب على العسر واليسر . قالت : النخير متبع ، والشر محذور . فأرسلتها مثلاً . ثم قالت : اسمع يا مدرك ، وأنت يا ضبيس : لن يستقيم معكما معاشره لشير حتى يكون فيكما لين العريكة . وأما أنت يا شماس فقد حلت منى محل الأهزوع^(٣) من الكنانة ، والواسطة من القلادة ، لدمائة خلقتك ، وكرم طباعك ، ثم اسمع بخير أو دع . فأرسلتها مثلاً وتزوجت شماساً .

(لو ترك القطا ليلاً لنام)

يضرب لمن حُمل على مكروه من غير إرادته .
وأول من قاله « حذام بنت الريان » . وذلك أن طاس بن خلاج سار إلى أبيها في حمير وخشم وجعفي وممدان . ولقيهم الريان في أربعة عشر حياً من أحياء اليمن ، فاقبئلوا قتالاً شديداً ، ثم تحاجزوا .
وإن الريان خرج تحت ليلته هو وأصحابه هرباً ، فساروا يومهم وليلتهم ، ثم عسكروا . فأصبح طاس ، ففدا لقتالهم فإذا الأرض منهم بلاقع ، فجرد

(١) القرض : القطع ، والقرض : الحز ، يريد أنه لا يصبر على ضيم ، بل يجزى الشر بأشد منه .
(٢) البال : رخاء العيش .

(٣) الأهزوع : خير السهام وأفضلها تدخره لشديدة .

خيله . وحث في الطلب ، فانتبهوا إلى عسكر الريان ليلاً ، فلما كانوا قريباً منه ،
أثادوا القطا ، فرت بأصحاب الريان ، فخرجت حذام بنت الريان إلى قومها فقالت :
ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا فلو ترك القطا ليلاً لناما
أى إن القطا لو ترك ما طار هذه الساعة ، وقد أتاكم القوم . فلم يلتفتوا
إلى قولها ، وأخذوا إلى المضاجع لما نالهم من التعب . فقام ديسم بن طارق ،
وقال بصوت عال :

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام
وثار القوم ، فاجتثوا إلى واد قريب منهم ، فاحازوا به ، حتى أصبحوا ،
وامتنعوا منهم .

(مرعى ولا كالسمدان)

يضرب للشئ يفضل على أقرانه وأشكاله .

وأول من قال ذلك : د الخنساء بنت عمرو بن الشريد . وذلك أنها أقبلت
من الموسم — في عكاظ — فوجدت الناس مجتمعين على هند بنت عتبة بن
ربيعة . فعرجت عليها ، وهى تنشدهم مرثى فى أهل بيتها . فلما دنت منها قالت :
على من تبكين ؟ قالت : أبسكى سادة مضوا . قالت : أنشدنى بعض ما قلت .
فأنشدت هند أبيتاً . فقالت الخنساء د مرعى ولا كالسمدان .

(ماء ولا كهداء)

يضرب للرجلين لهما فضل ، ولسكن أحدهما أفضل .

والمثل لقذور بنت قيس بن خالد ذى الجدين الشيباني . وكان من حديثها أن
زُرارة بن عدس رأى ابنه لقيطاً يختال ، فقال له : كأنك أصبحت ابنة قيس بن
خالد ، ومائة من هجان المنذر بن ماء السماء ! فخلف لقيط لا يمس الطيب ،

ولا يشرب الخمر ، حتى يصيب ذلك . فساد حتى أني قيس بن خالد — وهو سيد ربيعة — وكانت عليه يمين لا يخطب لإنسان إليه علانية إلا أصابه بسوء . فخطب إليه لقيط في مجلسه ، وقال : عرفت أني إن أطالك لم أشنك ، وإن أناجك لم أخدعك . فزوجه ابنته القذور ، وساق المهر عنه ، وهداها إليه من ليلته . فاحتمل بها إلى المنذر ، فأخبره بما قال أبوه . فأعطاه مائة من هجانه ، فرحل إلى أهله فقالت : ألقى أبي وأودعه . فلما جاءته قال لها : يا بنية ، كوني له أمة يكن لك عبداً ، وليكن أطيب أطيبك الماء . إنه فارس مضر ، ويوشك أن يقتل ، فإن كان ذلك فلا تخمشي له وجهاً ، ولا تحلقي شعرأ . فقتل لقيط ، فاحتملت إلى قومها ، فتزوجها بعده رجل منهم ، فجملت تكثر ذكر لقيط ، فقال لها : وأى شيء رأيت منه كان أحسن في عينك ؟ قالت : كل أموره حسن ، ولكنني أحدثك إنه خرج إلى الصيد في يوم دُجن^(١) وقد تطيب وشرب ، فرجع إلى ولقيطه نضح من دماء صيد ، والمسك يذوق من أطرافه ... فسكت عنها ، حتى إذا كان يوم دجن شرب ، وتطيب ، وركب ، وصرع من الصيد ، وأتى وبه نضح من الدم والطيب . فقال لها : كيف ترىني ؟ أنا أحسن أم لقيط ؟ فقالت : ماء ولا كصداً .

* * *

أسلوب الأمثال الدسائية : يتسم أسلوب الأمثال بشدة الإيجاز ، وهذا ما يميز صيغة الأمثلة كما تتميز بالفسحة الصائبة ، وروعة التعبير ، وهذا ما جعلها أسير على الزمن ، كما قالوا قديماً « أسير من مثل » ، إذ أن إيجازها وجمالها يسهلان استظهارها وذيوعها ، وتمثل الناس بها في شتى أنحاء الدنيا . كما فلاحظ أن الأمثال يكثر فيها الحذف والإيماء ، وتتصف عموماً بمتانة

(١) الدجن : المطر الكثير .

السبك وجودة التقسيم مع الميل إلى النسق الإنشائي العالى من تقديم القيود على المقيدات والمسند على المسند إليه ، ومع أنها ليست إلا فقرات قصيرة يصعب الحكم بها على النسق الإنشائي في ذلك العهد ، فإننا نتعرف بها ما بلغته العربية منذ العهد النبوى أو ما قبله من التطور في بناء الجمل ، وتركيب الألفاظ ويمكن استخدامها للحكم على ما نقل لنا من آثار ذلك العهد البعيد (١) .

كما نلاحظ أن الأمثلة مبنية على الاستعارة التصريحية قد شبت فيه حالة المضرب بحالة المورد إذ يعبر عن حالة المضرب بالعبارة التي قيلت في حالة المورد على سبيل الاستعارة التصريحية التمثيلية إلا إذا كان المثل صيغة تفضيل فيسكون ضرب المثل تشبيهاً عادياً .

والأمثلة النسائية السابقة كلها ترتبط بحادثة أو قصة ، وقعت وهي — كما قدمنا أولاً — تعبر عن خلاصات لتجارب صدرت في أكثرها عن ذكاء ودقة ملاحظة ونفاذ بصيرة ، كما نلاحظ ارتباطها بالبيئة العربية ، وأنها صدى لها وتعبر عنها تعبيراً فطرياً صادقاً ، لا تسكلف فيه ولا تصنع إذ هو إحساس الأمة وشعورها وقلوبها النابض ، ولذلك قيل (المثل صوت الشعب) .

وأغراض الأمثلة التي قالت فيها المرأة العربية متشعبة وكثيرة فمنها ما يتصل بالحرب كقول الجراء بنت ضمرة : « صارت الفتيان حمماً » وقول حذام بنت الريان : « لو ترك القحط ليلاً لنام » ومنها ما يكون في مقام المفاضلة كقول قنود بنت قيس « ماء ولا كصداء » ، « ومرعى ولا كالسعدان » ومنها ما يضرب في افتخار الرجل بعشيرته وقومه كقول العجفاء : « كل فتاة بأبيها معجبة » .

ومنها ما يمثل النهم عن صفة مذمومة أو مدحوة كقولها : « أغيرة وجبنا » و « بيتي يبخل لا أنا » و « لا تأمنى الأحق وفي يده سكين » و « رميتى بدائمها »

وانسلت ، ومنها ما يمثل منهج خاصاً أو اتجاهات معينة أو أغراض أخرى تفهم من السياق المتقدم ، هذا وتتخذ الأمثلة في الدراسات الحديثة مفاتيح لمعرفة طبيعة الشعب واتجاهاته وميوله العميقة المستقرة في نفوس أبنائه ، (١) .

وما من ريب في أن هذه الأمثال تستحوذ على ضروب من الجمال الفني يرجع بعضها إلى اختيار ألفاظها وصيغها ويرجع بعضها الآخر إلى ما تعتمد عليه من تصوير أو سجع وتوقيع ، وهذا هو معنى ما نذهب إليه من أن الأمثال الجاهلية تحتوي في بعض جوانبها آثاراً من الصنعة ، ولعل ذلك ما جعل الفارابي يقول : إنها من أبلغ الحكمة ، ويقول ابن المقفع أنها آ نق للسمع بينما يقول النظام أنها « نهاية البلاغة ، لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية » وطبيعي أن تظهر الصنعة في بعض الأمثال الجاهلية ، فقد كان العرب حينئذ مشغوفين بالبيان والبلاغة وصور القرآن الكريم هذا الجانب فيهم ، فقال جل شأنه « ولتعرفنهم في لحن القول » وقال : « وإن يقولوا تسمع لقولهم » وقال : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا » .

وفي جميع آثار نثرهم وشعرهم نجد آثار هذه الرغبة الملحة في استمالتهم الأسماع بجمال منطقهم وخلاصة أسنتهم ، وقد دفعتهم تلك الرغبة دفعاً إلى تحسين كلامهم وتجميل ألفاظهم حتى في أمثالهم ، وهياً لذلك أن كثيراً من بلغاتهم وفصحاتهم أسهموا في صناعة هذه الأمثال ؛ فسكان طبعياً أن تظهر فيها خصائصهم الفنية التي يستظفرونها في بيانهم وتديب عباراتهم حين ينظمون أو يخطبون .

(١) النصوص المقررة ١ / ١٤٥ — الأهرام — القاهرة .

(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٣٦ .

الباب الثاني

النثر في العصر الإسلامي وعصر بني أمية

كان المرأة العربية في صدر الإسلام وبني أمية نشاط ملحوظ ، ونبه شأنها في النثر ونقده ، وكان للنساء دور هام في تحميس المقاتلين في الحروب والغزوات بخطبهن الرنانة ، وألفاظهن الضخمة المجلجلة ، وكان خطبهن في التحميس سحر بابل ، يقذفن بالخطب الحارة ، كالفحول تهدر في الشقاشق مثل : عكرشة بنت الأطرش ، وأم الخير بنت الحريش البارقية ، والزرقاء بنت عدى الهمدانية .

كما كان لغيرهن في مواقع أخرى مواقع مشهورة ، وخطب وأقوال مشهودة ، فقد شهدت أسماء بنت أبي بكر اليرموك مع زوجها الزبير بن العوام ، وابنها عبد الله بن الزبير ، وكان موقفها من ابنها ، ونصحها له بالقتال حتى الموت في حربه مع الحجاج بمكة قدرة تفوق قدرة الرجال . وشهدت السيدة عائشة موقعة الجمل ، وخطبها في هذا المقام مدوية ومعروفة ، كما شهدت الخديساء موقعة القادسية ، وحديثها في هذه الموقعة لبنيها يأسر القلوب ويحرك الوجدان ، فكانت تحضهم على الجهاد والصبر والثبات ، بكلماتها الأسيرة وعباراتها البليغة مما كان له الأثر الأكبر في إذكاء نار الحماسة في قلوب المجاهدين ، فمهموا يدافعون عن بيضة الإسلام ، في عزم وثاب ، ونفس متطلعة إلى النصر ، وحقق الله أملهم ، فغازوا بالنصر المبين ، والظفر العظيم .

كما لا تنسى منتديات الأدب والشعر مجالس سكبينة بنت الحسين فقد كان ينفذ إليها الأدباء والشعراء والنقاد فيحتكمون إليها فيما أنتجته عقولهم وأفكارهم من النظم والنثر ، وتناقشهم مناقشة أدبية جادة ، وتقنعهم بوجهة نظرها ،

في خير حيف ولا شطاط ، حتى شهد لها علماء الأدب بفسوخ قدمها في هذا الميدان .

وغيرهن كثيرات ممن شيدن صروح الأدب ، ورفعن منار العرفان ، وكن معلمات لجيل متأدب بأداب الإسلام ، وناهل من فيض القرآن والحديث .

وأفضل كلام نبدأ به نثر النساء ؛ حديث النسوة الذي رواه الشيخان البخاري ومسلم .

بلاغة النساء (كما رواها الشيخان)

(حديث أم زرع)

فقد أخرج البخاري ومسلم^(١) والترمذي في الشئائل وأبو عبيد القاسم ابن سلام والمهيم بن عدي والحرث بن أبي أسامة والإسماعيلي وابن السكيت وابن الأنباري وأبو يعلى والزيبر بن بكار والطبراني وغيرهم ، واللفظ لمجموعهم .

عن عائشة رضى الله عنها ، قالت :

جاست إحدى عشرة امرأة من أهل اليمن ، فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً .

فقالت الأولى : زوجى لحم جمل غث ، على رأس جبل وعث ، لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقل .

قالت الثانية : زوجى لا أثبت خبره ، إنى أخاف أن لا أذره ، إن أذكره أذكر حجره وبجره .

قالت الثالثة : زوجى العشنق ، إن أنطق أطلق ، وإن أسكت أعلق ، [على حد السنان المذلق] .

قالت الرابعة : زوجى كليل تهامة ، لآخر ولا قر ، ولا وخامة ولا سامة ، [والغيث غيث غمامة] .

قالت الخامسة : زوجى إن دخل فهد ، وإن خرج أسد ، ولا يسأل عما عهد [ولا يرفع اليوم لعد] .

(١) راجعنا هذا الحديث على صحيح مسلم ١٥ : ٢١٢ والتجريد للزيدي ٢ : ١٣٢ وفيما بين الأقواس زيادة ليست في هذين الكتابين .

قالت السادسة : زوجن إن أكل السّف^(١) ، وإن اضطجع التّف^(٢)
[وإذا ذبح اغتث] ولا يولج الكف ، ليعلم البث .

قالت السابعة : زوجى غيايا ، أو عيايا طباقاء ، كل داد له داء ، شحك
[أو بحك] أو فلك أو جمع كلاك .

قالت الثامنة : زوجى المس^(٣) مس أدنب ، والريح ريح زرنب [وأنا أغلبه
والناس يخلب] .

قالت التاسعة : زوجى رفيع العباد ، طويل النجاد ، عظيم^(٤) الرماد ،
قريب البيت من الناد [لا يشبع ليلة يُضاف ، ولا ينام ليلة يخاف] .

قالت العاشرة : زوجى مالك ، وما ملك^(٥) مالك خير من ذلك ، له لابل
قايلات المسارح ، كثيرات المبارك ، إذا سمعن صوت المِزهر أيقن أنهن
هوالك ، [وهو إمام القوم في المهالك] .

قالت الحادية عشرة : زوجى أبو زرع ، وما أبو زرع ؟ أناس من حلى^(٦)
أدنى [وفرعى] وملأ من شحم عضدى^(٧) ، وبجّحتنى فبجّحت^(٨) نفسى إلى^(٩) ،
وجدنى فى أهل غنيمة بشق ، فجعلنى فى أهل صهيل وأطيط ودائس ومُنق ،
فعنده أقول فلا أفبّح ، وأردد فأصبّح ، وأشرب فأقنح ، وآكل فأتمنّح .
أم أبى زرع : فما أم أبى زرع ؟ عكوهما رداح ، وييتها فساح .

(١) فى رواية البخارى ومسلم : لف .

(٢) فى رواية البخارى ومسلم : رفيع .

(٣) فى رواية البخارى ومسلم : وما مالك .

(٤) فى رواية البخارى ومسلم : فنجحت إلى نفسى .

ابن أبي زرع : فما ابن أبي زرع ؟ كسل شطبية ، ونشبهه ذراع الجفرة ،
[وترويه فيقة اليعة ، ويميس في حلق النثرة] .

بنت أبي زرع : فما بنت أبي زرع ؟ طوع أبيها ، وطوع أمها [وزين
أهلها ونسائها] وملء كسائها [وصفر (١) رداؤها] وعقر (٢) جارتها [قباء
هضيمة الحشا ، جائلة الوشاح ، عكناء ، فعماء ، نجلاء ، دجاء ، رجساء ،
زجساء ، قنواء ، مؤنقة مُنْهَفَكة ، برمود الظل ، وفي الآل ، كريمة الخيل] .
جارية أبي زرع : فما جارية أبي زرع ؟ لا تبُثَّ حديثنا تبشيثاً ،
ولا تنقُثَّ ميرتنا تنقيشاً ، ولا تملأ بيتنا تعشيشاً .

[ضيف أبي زرع : فما ضيف أبي زرع ؟ في شيع وري ورع (٣)] .
[طهارة أبي زرع : فما طهارة أبي زرع ؟ لا تفتر ولا تعري ، تقدح وتنصب
أخرى ، فتلحق الأخيرة بالأولى] .

[مال أبي زرع : فما مال أبي زرع ؟ على الجهم مكوس ، وعلى العفاة
محبوس] .

قالت : خرج أبو زرع من عندي والأوطاب تخض ، فأتى امرأة معها
ولدان لها كالفهدين يلعبان من تحت خصرها برمانتين ، فنسكحها فأعجبته (٤)
فلم تول به حتى طلقني [فاستبدلت وكل بدل أعور] فنسكحت بعده رجلاً

(١) قال ابن الأثير : صفر رداؤها وملء كسائها ؛ أي أنها ضامرة البطن ،
فكأن رداها صفر ، أي خال ، والرداء ينتهي إلى البطن فيقع عليه .
(٢) وعقر جارتها ، أي هلاكها من الحسد والغيط ، ورواية البخاري ومسلم :
وغيط جارتها .

(٣) الرتع : التمتع .

(٤) عبارة البخاري ومسلم : يلعبان من تحت خصرها برمانتين ، فطلقني
ونسكحت ، فانسكحت بعده رجلاً سرياً ، وركب سرياً .

سرياً ، شرياً ، ركب وأخذ خطايا ، وأراح على نعماً ثريا ، وأعطاني من كل رائحة زوجاً ، وقال : كلّى أم زرع ، وميرى أهلك .

قالت : فلو جمعت كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبي زرع .

قالت عائشة : فقال لي رسول الله ﷺ : « كنت لك كأي زرع لأم زرع ، إلا أنه طلقها ، وإنى لا أطلقك » ، فقالت عائشة : بأبي أنت وأمي ! لأنك خير لي من أبي زرع لأم زرع .

[الغث : الهزيل . والوعث : الصعب المرتقى . وينتقى أى ليس له رقى يستخرج ، والنقى : المنح . وأرادت بعجره وبجره عيوبه الظاهرة والباطنة . والعشيق : السبي الخلق ، والمذاق : المحدد . والرخامة : النقل . وفهد وأسد : فعل فعل القهود من اللين وقلة الشر ، وفعل الأسود من الشهامة والصرامة بين الناس . واقتف : جمع واستوعب . واشتف : استقصى . وغيايا (بالمعجمة) المنهمك في الشر . وعيايا (بالمهملة) الذى تعنيه مباحضة النساء . وطباقاء : قيل : الأحق ، وقيل : الثقل الصدر عند الجماع . وشجك : جرح رأسك . وبجك : طعنك . وفلسك : جرح جسدك . والأرنب : دويبة لينة الملس ناعمة الوبر . والزرنب : نبت طيب الريح . والنجاد : حمائل السيف . والمزهر : آلة من آلات اللهو . وأناس : أثقل . وفرعى : يدى . وبجحنى : عظمتى . وغنيمة : تصغير غنم . وشقى (بالكسر) جهد من العيش . وأهل صهيل : أى خيل ، وأطيط : أى إبل . ودائس : أى زرع . ومنى (بضم الميم وكسر الزون وتشديد القاف) أى أهل نقيق ، وهو أصوات المواشى ، وقيل الدجاج . وأنصبج : أنام الشبحة . وأنقح : لا أجد مساعداً . وأتمشع أطعم غيرى . والعكوم : الأعدال . ورداح : ملأى . وفساح : واسع . والشطبة : سعة النخل أى أنه مهفف خفيف اللحم ويؤخذ منه استحباب حسن المعاشرة للأهل وجواز الإخبار عن الأمم الخالية والتنافس في اختيار الأزواج] .

السيدة عائشة ترى أباها

قالت عائشة في رثاء أبيها :

«نضر^(١) الله وجهك يا أبت ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنت
للدنيا مذلا بإدبارك عنها ، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها ، ولئن كان أجل
الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك ، وأعظم المصائب بعده فقدك ، إن
كتاب الله ليعمد بحسن الصبر فيك حسن العوض منك ، وأنا أستعجز
موعود الله تعالى بالصبر فيك ، وأستقضيه^(٢) بالاستغفار لك ، أمائن قاموا
بأمر الدنيا ، لقد قت بأمر الدين ، لما وهى شعبه^(٣) وتفاقم صدعه^(٤) ،
ورجفت^(٥) جوانبه ، فعليك سلام الله ، توديع غير قابلية^(٦) لحياتك ،
ولا زارية^(٧) على القضاء فيك ،^(٨) .

ونلاحظ من قراءة النص أن السيدة عائشة موفقة في اختيار ألفاظها ،
وعباراتها المنتقاة تعطى من المعاني ما لا يعطى غيرها فقد بدأت الموضوع
باختيار موفق (نضر الله وجهك يا أبت) فجاء لفظ نضر براعة استهلال
للكلمة ، وقد عبرت عن فجيعتها بكلمات موجزة بليغة ، أعطت لنا المعاني
الكثيرة « الشجن والحنين واللوعة والوجد ، والإكبار والإجلال بأبيها وقره
عينها ، والبر والوفاء لمن صنعها على عينه ورباهما في رحابه ، وهو الحب غرسه

(١) نضر : حسن . من النضارة والنضرة ، وهى الحسن .

(٢) أستقضيه : أطلب قضاءه وما عنده . (٣) وهى شعبه : ضعف جمعه .

(٤) تفاقم صدعه : زاد تشققه . (٥) رجفت : اضطربت .

(٦) قابلية : كارهة . (٧) زارية : حائبة ولائمة .

(٨) البيان والتبيين ٢ / ٢٤٠ . نهاية الأرب ٥ / ١٥٧ .

في ممارسته من الجوانح يد الرحمن ، فما يستطيع أى إنسان أن ينتزعه ، وهو حجب
رسخت أصوله وذهبت فروعه في السماء فهو خالد على الأيام ومر الأعوام ^(١)

العاطفة الحزينة الجياشة

وقد عبرت السيدة عائشة عن العاطفة الحزينة الجياشة ، أصدق تعبير والنساء
في هذا الميدان كما قد هنا تجدن يستنبطن في هذا الباب أساليب بدیعة لم يتنبه
لها الفحول ، لما طبعن عليه من رقة الطباع وشدة الجزع في المصائب وصدق
الحس ، فيبرزن عواطفهن الحزينة في بيان سلس ملتاع ، وكلام حزين أخاذ ،
وهن أكثر من الرجال ذكراً للوعة ، وأكثر حديثاً عن البكاء والدموع
والوجیعة ، لأن ضعفهن وأنوثتهن وسرعة انفعالهن كل أولئك يتجلى في
تصويرهن للنرح بالحديث عن البكاء ومخاطبة العيون والدموع ، والنساء أشجى
الناس قلوباً عند المصيبة وأشدّها على هالك لما ركب الله في طبعهن من الخور
وضعف العزيمة وشدة الجزع ودواعى الرثاء ^(٢) .

والعاطفة الحزينة المشبوبة تملأ الخطوب وتشعلها الحوادث والمواقف
العنيفة ، تجد المجال أمامها فسيحاً في صدور النساء والولدان ، فتترك فيها أعمق
الآثار ، وتدفعها في طريق الانفعال ، فإذا أخذ هذا الانفعال صورة الخطابة
أو الشعر أو المقال ، فهناك الأدب الرفيع ، والشعر الرائع ، والخطابة الباهرة ،
والسحر الحلال ، فالعاطفة القوية هي التي تمنح الأدب الحياة ، وتهبه فيضاً من
الحرارة والقوة .

وهذا هو ما تترجم عنه الخطبة ، وتعرضه في كل كلمة من كلماتها ، كما تلمح

(١) الخطابة في صدر الإسلام ج ١ : ٣٩٥ .

(٢) كتاب العمدة ٢ / ١٢٣ .

من خلالها شخصية السيدة عائشة الخريفة المشغوفة ، البارة الوفية ، المشنية
المكبرة المؤمنة الصابرة ، الذاكرة الشاكرة .

وهذا الحزن القوى ، وتلك العاطفة المشبوبة طبعاً الأسلوب بطابعهما ،
وقد استمر هذا الفيض من قوة الشعور والعاطفة ، وقوة التعبير ماثلاً في
الخطبة كلها ، فاحتفظ بمستوى واحد من بدتها إلى نهايتها ، وأعتقد أنها لو أطالت
لبقى كلامها كله على هذا النمط الرفيع الذي هو أليق الأنماط بالرائاء من لفظ شجى
إلى عاطفة حرّى ، ومن صدق التعبير إلى وضوح المعانى ، ومن سهولة الأسلوب
إلى استيفاء الغرض ، ومن شيوع الطبعية فى الكلام إلى الأخذ بقدر من جمال
الصنعة ، فى السجع والطباق والمقابلة والازدواج وتساوى الفواصل ، وحسن
التأليف الموسيقى بين الألفاظ ، المعانى والموسيقى والنغم وجمال الإيقاع (١) .

خطبة السيدة عائشة فى الفخر بأبيها

ذكروا أنه جاء عائشة أن قوماً يتناولون أبا بكر رضى الله عنه ، فأرسلت
إلى جماعة من الناس ، فلما حضروا أسدلت أستارها ، ثم قالت :

« أبى وما أبىه أبى والله لا تعطوه (٢) الأيدى ، ذلك طود منيف (٣) ،
وفرع مديد (٤) ، هيمات ، كذبت الظنون ، أنجح (٥) إذ أكديتم (٦) ، وسبق
إذ ونيتم ، سبق الجواد إذا استولى على الأمد (٧) ، فتى قریش ناشئاً ، وكهفها

(١) الخطابة فى صدر الإسلام ج ١ : ٣٩٥ .

(٢) تعطوه : تناله . (٣) طود منيف : جبل مشرف .

(٤) فرع : الفرع أعلى الشئ ، والشريف من القوم .

(٥) أنجح : نجح . (٦) أكدي : لم يعط خيراً .

(٧) الأمد : الغاية والمهابة .

كهملا ، يفك عانيها ، ويريش مملقها ^(١) ، ويرأب شعبيها ^(٢) ويلم شعثها ، حتى حليته ^(٣) قلوبها ، ثم استشرى ^(٤) في دين الله ، فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل ^(٥) ، حتى اتخذ بفنائنه مسجداً ، يحيي فيه ما أمات المبطلون .

فأكبرت ذلك رجالات من قریش ، فخبث قسيها وفوقت سهامها ^(٦) ، وامتلوه غرضاً ، فما فلوا له صفاة ^(٧) ، ولا قصفوا له قناه ، ومر على سيسائه ^(٨) .

وهنا نلاحظ أن النص يسير على نسق آخر يخالف لنسق بكائها على أبيها فلكل مقام مقال كما قال أرباب البلاغة ، والسيدة عائشة كما لا يخفى نابغة في الذكاء والفصاحة والبلاغة فاختارت لكل موضع ما يناسبه من الألفاظ والعبارات ؛ فإن مقام الافتخار يتطلب الألفاظ الضخمة ، والعبارات الفخمة الرنانة : استمع إلى قولها تصف أباهما بالطود المنيف والجبل الأشم والفرع المديد وأنه سباق بلغ الغاية ، وأرني على النهاية تجد بلاغة النبوة تشع من لسانها ، وسحر البيان ينبع من ثناياها ثم أسبغت عليه من الصفات الاجتماعية أنبلها ، ومن أفعال المروءات أشرفها وأجدها (يفك العاني ، ويغني الفقير ، ويلم الشعث ، ويرأب الصدع) .

والسيدة عائشة هنا غاضبة نفورة مدافعة محتجة ؛ فالعوامل على التفتيم والنمويل متظاهرة ، من أجل ذلك حشدت في خطبتها ما ينبغي لهذا المرقف من عدة ، وشاكت بين اللفظ والمعنى في الشرف والجودة والنقاء ؛ وعنيت بالفواصل

(١) يریش المملق : يعين الفقير .

(٢) رأب الشعب : أصلح الشق والسكر .

(٣) حليته القلوب : وجدته حلواً . (٤) استشرى : غضب وتعق .

(٥) الشكيمة : الأنفة والإباء .

(٦) فوق السهم : جعل له فوقاً وهو موضع السهم .

(٧) الصفاة : الحجر الصلد . (٨) سيسائه : أي شدته .

وتقصير الجمل ، وترادف التأكيد ، والتأليف بين الألفاظ تأليفاً يوفر لها الإيقاع والوزن وجمال المقاطع ، ومنحت قولها من صدق الإيمان وحرارة الانفعال قوة ووقفاً وتأثيراً ، والحق أن السر الأكبر فيما لهذه الخطبة من سلطان في النفوس راجع إلى تخير الألفاظ المشاكلة للغرض ، وحسن موافقتها للمعاني ، ألفاظها من فخامتها وجزالتها وقوتها جلال في القلوب ، وسلطان على النفوس ، إلى ما انضم لذلك من مزايا الأسلوب ، التي أشرنا إليها (١) .

وتمضى السيدة عائشة في مفاخر أبيها فتقول :

فلما قبض الله نبيه ﷺ ضرب الشيطان رِواقه (٢) ، ومد طنبه (٣) ، ونصب حباله ، وأجلب بخيله ورجله (٤) ، واضطرب حبل الإسلام ، وصرج عهده (٥) ، وماج أهله ، وبغى الغوائل ، فظنت رجال أن قد اكثبت أطعمهم (٦) ، ولات حين الذي يرجون . وأنسى والصدِّيق بين أظهرهم ؛ فقام حاسراً مشمراً ، فجمع حاشيته (٧) ، ورفع قُطريه (٨) ، فردَّ رَسَن (٩) الإسلام على غُرْبِه (١٠) ، ولمَّ شعثه بِطَبِيسِه (١١) ، وانتاش (١٢) الدين فنعشَه ،

(١) الخطابة في صدر الإسلام ج ١ : ٣٩٨ .

(٢) الرواق : الخيمة والفسطاط .

(٣) الطنب : الخيل أو الوتد تشد به الخيمة .

(٤) أجلب : صاح . الخيل هنا راكب الخيل . والرجل اسم جمع راجل أى ماش .

(٥) صرج : اختلط واضطرب وقلق وفسد .

(٦) اكثبت : قربت .

(٧) الحاشية الجانب والطرف .

(٨) القطر : الناحية .

(٩) الرسن : الخيل .

(١٠) الغرب : حد الشيء . والمراد هنا الظهر .

(١١) الشعث : المتفرق .

(١٢) انتاش : انتشل نعشه ، وأنعشه : رفعه .

فلما أراح^(١) الحق على أهله ، وقرر الروس على كواهلها ، وحقن الدماء في
أهْلِها^(٢) ، أتمته منيته ، فسد ثلثته بنظيره في الرحمة ، وشقيقه في السيرة
والمعدلة ، ذلك ابن الخطاب ، فله درة^(٣) أم حملت به ، ودرت عليه ، لقد
أوحدت به^(٤) ، ففتخ^(٥) الكفرة وديسها^(٦) ، وشرّد الشرك شذر مذر^(٧) ،
وبعج^(٨) الأرض وبخعها^(٩) ، فقامت^(١٠) أكلامها ، وانفطت خبثاتها ، ترأّمه^(١١)
ويصدف عنها ، وقصدى له ويأبأها ، ثم وزع فيها فيثها ، وودعها كما صحبها .

فأروني ماذا ترتنون ؟ وأي يومي أبي تنقمون ؟ أيوم إقامته إذ عدل فيكم ،
أم يوم ظمئه إذ نظر لكم ؟^(١٢) أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .
ثم أقبلت على الناس بوجهها ، فقالت : « أنشدكم الله ، هل أنكرتم
مما قلت شيئاً ؟ قالوا : اللهم لا ،^(١٣) .

وقد جاءت خطبتها فريدة في نوعها وأتمت لها البلاغة منقادة طائفة ،
كيف لا وقد تربت في مدرستها ، ورضعت من لبانها ، وقد صورت جماد أبيها
في محاربة المرتدين والوقوف أمامهم أدق تصوير وأبلغه : ما أروع الاستعارات

- (١) أراح الحق : رده . (٢) الأهب : جمع إهاب وهو الجلد .
(٣) الدر : اللبن والنفس والعمل . والمراد التعجب ، كأن ذلك لعظمته
منسوب (لله) . (٤) أوحدت به : جاءت به واحداً لا نظير له .
(٥) فتخ : أذل وقهر . (٦) ديس : دوح : قهر وأذل .
(٧) شذر مذر : في كل اتجاه . (٨) بعج الأرض : شقها .
(٩) بخع : قهرها واستخرج ما فيها من الكنوز .
(١٠) قامت أكلامها : أخرجت خيراتها . والآكل ما يؤكل .
(١١) ترأّمه : تعطف عليه . (١٢) نظر لكم : عطف عليكم .
(١٣) صبح الأعشى : ١ / ٢٤٨ . العقد الفريد ٢ / ٢٠٦ نهاية الأرب ٧ / ٢٣٠

في قولها ، ضرب الشيطان رواقه ومد طنبه ، ونصب حباله ، وأجاب بخيله ورجله ؛ واضطرب حبل الإسلام ، ثم بينت كيف أن الصديق حينما رأى ذلك قام حامساً مشمراً يدافع عن بيضة الدين ، ويرد كيد المعتدين في عزم وثاب ، وهمة متطاعة إلى النصر ، وقد حقق الله له أمله ، فولى المرتدون مذؤومين مدحورين وأضحت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ثم بينت كيف أنه حق الدماء وردرسن الإسلام على غربه ، ولم الشعث ورأب الصدع .

د إلا أن ما ينبغي أن يلاحظ هنا هو أن أم المؤمنين قد حشدت في هذه الخطبة حشداً من العبارات القوية الرنانة ، والألفاظ الضخمة ، والكلمات التي لم يؤلف مثلها عند النبي ﷺ ؛ ولا الخلفاء بعده ؛ ولم تمنح هي إلى استعمالها في رثائها لأبيها ، حتى صارت الخطبة كلها نسيجاً واحداً ، وهيكلها صلباً متماسكاً . وليس العلم باللغة ومفرداتها ، صعباً وسهلها بمستغرب منها ؛ ولكن الذي نريد أن نذهب إليه هو أن السيدة عائشة قد نعمت تعمدت تعمداً أن تسوق خطبتها هذا المساق ، وأن تخرجها على هذه الصورة من الشدة والصلابة والأسر ، لتسترعى انتباه السامعين ، وتقرع أسماعهم وبصائرهم بهذه القدرة الباهرة في القول ، والبلاغة الظاهرة في الخطابة ؛ ورغبة في مفاجأتهم بما يبههم من الإحسان ؛ والعلو عليهم بما يقهرهم من الحججة ؛ وركوبهم بما يشدهم من الفصاحة ، ورميهم كما شامت بصنم الجنادل ، فتضيف بذلك إلى شخصيتها عاملاً آخر ؛ يضاعف مكانها من نفوسهم ؛ ويبدسط سلطانها عليهم ، فتصل إلى ما أرادت من طريق قريب ؛ وعلى أحسن وجه ، فما لا شك فيه أن قوة الشخصية والمقدرة الخطابية تتفاعلان وتعاونان ، وقد ساعدها على النجاح فيما قصدت إليه بحشد هذا الحشد من العبارات والتشبيهات والاستعارات والتخييل والصور ، رويّة أتاحت لها ، وإعداد واتتها فرصته ، حينما بلغها ما بلغها ، فأدارت هذه المعاني

في نفسها ، واختارت لها من الألفاظ أشباهها ، واستحضرت في ذهنها من الصور والتشبيه والاستعارة ما يلائمها ، حتى إذا دعت من دعت فلبوا دعوتها ، خرجت عليهم بتلك الخطبة التي أعدتها في نفسها وزوجرتها ، (١) .

ولام المؤمنين خطب وأقوال أخرى أثرت عنها ليس فيها مثل هذا الإيغال في الاستعارات والعبارات النازحة غير المألوفة ، ولا قريب منه ، فالميل إلى السهولة والطبيعة والبعد عن التشكف كان السمة الغالبة على خطب العصر وأقواله وقد نشأت رضى الله عنها أسمح نشأة ، في حمى كهفين للفصاحة ، ومنبعين للبلاغة وفي ظل مدرسة تنشر في الخافقين لواء الإسلام ، وتجعل القرآن إماماً في هديه ومثلاً في سماحة أسلوبه ، وقدوة في نهج بلاغته ، وما نزع في خطبتها هذا المنزع إلا وقد ترجّح عندها اختيار الأسلوب المشاكل لذلك الموقف ، لما هي فيه من غضب ودفاع واحتجاج وفخر .

وكتبت إلى معاوية : أما بعد فإنه من عمل بما يسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً .

وقالت : من أَرْضَى الله بإسخط الناس كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن أَرْضَى الناس بإسخط الله وكله الله إلى الناس . وقالت : سلوا ربكم حتى الشسع فإنه إن لم ييسره لم ييسره ، وقالت : يا بني لا تطالبوا ما عند الله من عند غير الله بما يسخط الله .

وقالت : مكارم الأخلاق عشر تكون في العبد دون سيده ، وفي الخامل دون المذكور ، وفي المسود دون السيد : صدق الحديث وأداء الأمانة والصدق والصبر في البأس والتذم للصاحب والتذم للجار ، والإعطاء في النائبة ، وإطعام المسكين ، والرفق بالملوك ، وبر الوالدين .

وقالت : كل شرف دونه لؤم فاللؤم أولى به ، وكل لؤم دونه شرف فالشرف أولى به . وقالت : جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها . وقالت : إن لله خلفاً قلوبهم كقلوب الطير كلما خفقت الريح خفقت معها فأف للجنة فأف للجنة . وقيل لعائشة : إن قوماً يشتمون أصحاب محمد ﷺ فقالت : قطع الله عنهم العمل فأحب أن لا يقطع عنهم الأجر .

وقيل لها : أى النساء أفضل ؟ فقالت : التى لا تعرف عيب المقاتل ولا تهتدى لمكر الرجال ، فارغة القلب لإلانة الزينة لبعلمها ، والإبقاء فى الصيانة على أهلها . وقالت : إنما النكاح رق فلينظر امرؤ من يرق كريمته .

وقالت : المغزل بيد المرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد فى سبيل الله .

ورأت عائشة فى بيت امرأة أثر المغزل فقالت لها : أبشرى بما لك عند الله عز وجل ، لو رأيت بعض ما أعد الله لكم معاشر النساء لما أقرتم ليلاً ولا نهراً ، ما من امرأة غزلت لزوجها ولنفسها ولصبيانها إلا أعطاه الله عز وجل بكل طاقة نوراً حتى ملأت مغزله ، فإذا ملأت مغزله أعطاه الله عز وجل بيتاً فى الجنة أوسع من المشرق إلى المغرب ولها بكل ثوب مائة ألف وعشرين ألف مدينة ، وما على ظهر الأرض تسبيح يعدل عند الله من صوت صرير يخرج من مغزل النساء حتى ينهى إلى العرش له دوى كدوى النحل ويعدل عند الله عز وجل بمنزلة قول لا إله إلا الله عز وجل . بلغوا عنى النساء ما أقول : ما من امرأة غزلت حتى كسبت نفسها إلا استغفر لها سبع سموات وما فىهن من الملائكة . . . إلى أن قالت : أبشروا معاشر النساء ما لكن عند الله عز وجل بطاعتكن لبعولكن وخدمتكن لأولادكن أنتم المساكين فى الدنيا والسابقون إلى الجنة مع أرواح الأنبياء يغفر الله لكن كل ذنب عملتكن ما خلا الكبائر .

وقالت : التمسوا الرزق فى خبايا الأرض . ورأت عائشة رجلاً متهاوئاً

فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : زاهد ، قالت : قد كان عمر بن الخطاب زاهداً وكان إذا قال أسمع وإذا مشى أسرع وإذا ضرب في ذات الله أوجع .
ووهبت مالا كثيراً ثم أمرت بثوب لها أن يرفع وتمثلت بهذا المثل ، لا يعجز مسك السوء عن عرف السوء (١) .

وقال أبو سلمة : أنا أفقه من هال فقال ابن عباس : أجل في المبال . وكان أبو سلمة ينازع ابن عباس في المسائل ويماريه فبلغ ذلك عائشة فقالت : إنما مثلك يا أبا سلمة مثل الفروج سمع الديكة تصيح فصاح معها ، تعنى أنك لم تبلغ ابن عباس وأنت تماريه .

وقالت : علموا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم .
ولما مات عبد الرحمن بن أبي بكر بالحُبَيْش (٢) وقفت عائشة على قبره فقالت :

وَكُنَّا كَنَدِمَانِي جَذِيمَةً حَقَبَةً مِنْ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا
فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَا لَكَا لَطُولُ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا
أَمَا وَاللَّهِ لَوْ حَضَرْتِكَ لَدَفَنْتُكَ حَيْثُ مِتَ وَلَوْ شِئْتُ لَزَرْتِكَ .

وقالت رحم الله ليبدأ كان يقول :
قَضِ اللَّبَانَةُ لَا أَلَا لَكَ وَادْهَبِ وَالْحَقُّ بِأَسْرَتِكَ الْكَرَامُ الْغَيْبِ
ذَهَبَ الَّذِينَ يَعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرِبِ
فَسَكِيفٌ لَوْ أَدْرَكَ زَمَانُنَا هَذَا : ثُمَّ قَالَتْ : إِنِّي لَأَرَوِي أَلْفَ بَيْتٍ لَهُ وَإِنَّهُ
أَقْلَ مَا أَرَوِي لِغَيْرِهِ .

وسمع النبي ﷺ وهي تنشد شعر زهير بن حجاب :

(١) يضرب هذا المثل في الذي يكتنم لؤمه وهو يظهر .

(٢) الحبش : جبل بأسفل مكة .

ارفع ضعيفك لا يحل بك ضعفه يوماً فتدركه عواقب ما جنى
يجزبك أو يثني عليك فإن من أننى عليك بما فعلت كمن جزي
فقال النبي ﷺ : صدق يا عائشة لا شكر الله من لا يشكر الناس .
ورأت عائشة بنات طارق اللواتي يقان :

نحن بنات طارق نمشي على النار
فقالت : أخطأ من يقول الخيل أحسن من النساء .

وبعثت عائشة عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية بن أبي سفيان
في حجر بن عدى وأصحابه . فقدم عليه وقد قتلهم فقال له : أين غاب عنك
حلم أبي سفيان ؟ فقال : حين غاب عني مثلك من حلباء قومي وحملني ابن سمية
فاحتملت وكانت عائشة تقول : لولا أنا لم نغير شيئاً قط إلا آلت بنا الأمور
إلى أشد مما كنا فيه لغيرنا قتل حجر ، أما والله إن كان ما علمت لمسلماً حجماً جاً
معتماً . ولما حج معاوية مر على عائشة فاستأذن عليها فأذنت له فلما قعد
قالت له : يا معاوية أين كان حليك عن حجر ؟ فقال لها : يا أم المؤمنين لم يحضرني
رشيد . فقالت له : أمنت أن أخبأ لك من يقتلك ؟ قال : بيت الأمن دخلت ،
قالت : يا معاوية أما خشيت الله في قتل حجر وأصحابه ؟ قال : لست أنا قتلهم
إنما قتلهم من شهد عليهم .

وقدم معاوية المدينة فدخل عليها فذكرت له شيئاً فقال : إن ذلك لا يصلح
فقالت : الذي لا يصلح ادعائك زياداً ، فقال : شهدت الشهود . فقالت :
ما شهدت ولسكن ركبت الصليعاء . أي السوءة أو الفجرة البارزة المكشوفة .

ولما أراد معاوية البيعة ليزيد ولده كتب إلى مروان بن الحكم وهو عامله
على المدينة فقرأ كتابه وقال : إن أمير المؤمنين قد كبر سنه ودق عظمه وقد
خاف أن يأتيه أمر الله فعمالي فيدع الناس كالغنم لا راعي لها وقد أحب أن أعلم

علماً ويقيم إماماً ، فقالوا : وفق الله أمير المؤمنين وسدده ليفعل . فقام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال : كذبت والله يا مروان وكذب معاوية معك ! لا يكون ذلك ، لا تحدثوا علينا سنة الروم كلما مات هرقل قام هرقل . فقال مروان : خذره : فدخل في بيت عائشة فلم يقدرُوا عليه . فقال مروان : إن هذا الذي أنزل الله فيه « والذي قال لوالديه أف لهما أتعذاني » فقالت عائشة من وراء حجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري .

ثم كتب بذلك مروان إلى معاوية . فأقبل معاوية ومعه خلق كثير من أهل الشام حتى أتى عائشة وهي بالمدينة فاستأذن عليها بعد أن بايع أهل الشام لابنه يزيد فأذنت له وحده ولم يدخل عليها معه أحد وعندها مولاها ذكوان فقالت عائشة : يا معاوية أكنت تأمن أن أقعد لك رجلاً فأقتلك كما قتلت أخى محمد بن أبي بكر ؟ فقال معاوية : ما كنت لتفعلين ذلك . قالت : لم ؟ قال : لأنى في بيت آمن ، بيت رسول الله ﷺ ، ثم قامت عائشة فحمدت الله وأثنت عليه وذكرت رسول الله ﷺ وذكرت أبا بكر وعمر وحضته على الاقتداء بهما والاتباع لأثرهما ثم صمتت ، وأما معاوية فلم يخطب وخاف أن لا يبايع ما بلغت فارتجل الحديث ارتجالاً ، ثم قال أنت والله يا أم المؤمنين العالمة بالله وبرسول الله دللنا على الحق وحضضتنا على حظ أنفسنا وأنت أهل لأن يطاع أمرك وبسمع قولك ، وإن أمر يزيد قضاء من القضاء ، وليس للعباد الخيرة من أمرهم ، وقد أكد الناس بيعتهم في أعناقهم وأعطوا عهودهم على ذلك وموآئيقهم ، أفترى أن ينقضوا عهودهم وموآئيقهم ، فلما سمعت ذلك عائشة علمت أنه سيمضى على أمره فقالت : أما ما ذكرت من عهود وموآئيق فاتق الله في هؤلاء الرهط ولا تعجل فيهم فلعلمهم لا يصنعون إلا ما أحببت ... ثم خرج ومعه ذكوان فاتكأ على يد ذكوان وهو يمشي ويقول تالله إن رأيت كاليوم قط خطيئاً أبلغ من عائشة بعد رسول الله .

وسأل مرة بن أبي عثمان مولى عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق السيدة عائشة أن تكتب له إلى زياد وتبدأ به في عنوان كتابها . فسكتت له إليه بالوصاة به وعنوانته إلى زياد بن أبي سفيان من عائشة أم المؤمنين . فلما رأى زياد أنها قد كتبت له ونسبته إلى أبي سفيان سر بذلك وأكرم مرة وألفه وقال للناس : هذا كتاب أم المؤمنين إلى فيه وعرضه إليهم ليقرأوا عنوانه ثم أقطعه مائة جريب على نهر الأبله (١) وأمره فحفر لها نهراً فنسب إليه .

* * *

وهذه هي الخنساء بنت عمرو السلمي ، لم تخرج كما خرجت هند بنت عتبة مبادرة إلى أحد ، تتأد لقومها ؛ وتشفي غيظ صدرها ، وتحاد الله ورسوله ، ولكنها خرجت تحارب الشرك ، وتذود عن الإسلام ، وتدافع عن العقيدة وتجاهد في سبيل الله ، وقالت لأولادها والحرب تبرق والأسنة تلح :

« يا بني إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مخارين ، والله الذي لا إله غيره ، إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أبائكم ، ولا فضحت خالاتكم ، ولا هجنت حسبكم (٢) ، ولا غبرت نسبكم (٣) ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية ، خير من الدار الفانية ، يقول الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، وانقوا الله لعلكم تفلحون » . فإذا أصبحتم غداً فاغدروا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، والله على أعدائه مستنصرين » .

(١) الأبله : بلدة على شاطئ دجلة ، البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة .

(٢) هجنت حسبكم : خلطت بمخاركم ما يضر منها .

(٣) غبرت نسبكم : لطخته بعار وغبار .

فلما أن أضاء لهم الصبح باكروا مواقعهم في حومة الوغى ، فتقدموا إلى الشهادة وهم ينشدون الأراجيز ، وسعوا إلى لقاء ربهم مستبشرين^(١) .

وأنشأ أولهم يقول :

يا إخوتي إن العجوز الناصحة قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
مقالة ذات بيان واضحة فباكروا الحرب الضروس الكالحة
وإنما تلقون عند الصائحة من آل ساسان الكلاب النابحة
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة وأنتم بين حياة صالحة
أو مיתה تورث مخنما رابحة

وتقدم فقاتل حتى قتل ، ثم حمل الثانى وهو يقول :

إن العجوز ذات حزم وجلد والنظر الآونق والرأى المسدد
قد أمرتنا بالسداد والرشد نصيحة منها وبرأ بالولد
فباكروا الحرب حماة في العدد إما لفوز بارد على الكبد
أو مיתה تورثكم عز الأبد في جنة الفردوس والعيش الرغد

فقاتل حتى استشهد ثم حمل الثالث وهو يقول :

والله لا ندصر العجوز حرفاً قد أمرتنا حذباً وعطفاً
نصحاً ورأ صادقاً ولطفاً فبادروا الحرب الضروس زحفاً
حتى تلقوا آل كسرى لهماً أو يكشفوكم عن حماكم كشفاً
لإنا نرى التقصير منكم ضعفاً والقتل فيكم نجدة وزلفاً

فقاتل حتى استشهد ، ثم حمل الرابع وهو يقول :
لست لخنساء ولا للأخرم ولا لعمر و ذى السقاء الأقدم
لأن لم أزد في الجيش جيش الأعجم
ماضى على الحول خضم حصرم
إما لفوز عاجل ومغنم أول وفاة في السبيل الأكرم
فقاتل حتى قتل ، فبلغها الخبر فقالت الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو
من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمة .

وهى تصور لنا فى خطبتها الصبر والثبات فى عبارات قوية مؤثرة تزين
لبها ما أعد الله للمسلمين من الثواب فى الآخرة ، والنعم فى الجنة ، مهونة فى
نظرهم شأن الدنيا مُعلية شأن الآخرة ، ونلاحظ أنها فى أسلوبها تقتبس بعض
آيات من القرآن الكريم للاستشهاد بها ، وما أجمل اقتباسها فى هذه الخطبة
بآيات الصبر والمرابطة فى آل عمران « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا
ورابطوا » .

ولقد كانت الخنساء صادقة فى عقيدتها ، مؤمنة بدعوتها ، فذلك ترى
لكلامها حلاوة الطبع ، وجمال الوقع ، وحسن اللفظ ، وقرب المعنى ، والبعد
من الاستكراه ، والنوفيق فى الأداء ، والقدرة على الإثارة ، إلى ما فيه من
بلاغة الإيجاز ، والاستغناء بالقليل عن الكثير من الكلام ، فقد ذكرتهم
بالإسلام ، والهجرة ، ونقاء النسب ، وثواب المجاهدين وجزاء الصابرين ،
ثم دعته بعد هذا للقتال .

وكان الجاحظ قد عنى هذا الكلام وأمثاله بقوله : « وأحسن الكلام
ما كان قليلا يغنيك عن كثيره ، ومعناه فى ظاهر لفظه ، وكأن الله عز وجل
قد ألبسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة ، على حسب نية صاحبه ، وتقوى

قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه . ومنزهاً عن الاختلال . ومصوناً من التكلف ، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة السكرية ، ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، أحسبها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبارة ، ولا يذهل عن فهمها عقول الجملة ، (١) .

وتلح دقة أسلوبها ، وجريانه على ما تقتضيه الفنون البلاغية في إعطائها الكلام فضل تأكيد ؛ عند ما تقرر بنوتهم لرجل واحد ، لأن هذا الأمر هو الذي يجوز أن يتشكك فيه متشكك ، فجاءت بلام التوكيد مع إن في قولها : « إنكم لبنو رجل واحد ، ولسكنها استغنت عنها عندما قررت بنوتهم لامرأة واحدة » ؛ لأن ذلك مما لا يتشكك فيه الناس عادة ، فقالت : « كما أنكم بنو امرأة واحدة » ، إلى آخر خطبتها البليغة الموجزة .

وقد آثرت الإيجاز هنا لأن المقام يقتضى ذلك فالمقام مقام حرب ودفاع ، والكلمة حينئذ للسيف والرمح ، وليست للقرطاس والقلم ، وكلماتها تعطى من المعاني ما لا يعطى غيرها ، فكلمة « وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين » تعطى معاني كثيرة فلو أنها ذكرت تفصيل ذلك لطال الأمد ، والوقت كما قلنا وقت مبارزة حربية لا مبارزة كلامية ، وقولها « إن الدار الباقية خير من الدار الفانية » ينطوى تحتها الجنة ونعيمها وما فيها من متع يضيق الحصر عن عددها ، كما ينطوى تحتها حقارة شأن الدنيا وما فيها من متاع الغرور وزخارف الحياة ما لو ذكرت ذلك أيضاً لما اتسع الميدان له ، ولسكان التطويل عبثاً وضياًعاً .

« وإن كان يبدو من الأوفق - في رأي - لو أنها قالت : « ولا هجنت

(١) البيان والتبيين ١ / ٨٣ ، والخطابة ج ١ ص ٤٠٤ .

نسبكم ، ولا غبرت حسبكم ، مكان قولها : « ولا هجنت حسبكم ، ولا غبرت
نسبكم » ، وذلك لأن الهجنة والتهجين في القول والفعل وغيرهما تجيء بمعنى
العيب والنعييب ، والقبيح والتقييح ، وهي في الحسب ما يضع منه ، ولكنها في
النسب النقص الذي يأتي من قبل الأم ، فالهجين اللثيم ، والعربي ولد من أمة ،
أو من أبوه خير من أمه (١) .

والنسب هو ذلك الجانب المقدس عند العرب ، كانوا يتفاخرون بصراحتهم ،
ويتهاجون بهجنته ، والخنساء تحدث أبناءها بما حفظته عليهم من المفاخر في
نسبهم ، وما أعلنت به من قدرهم بين الناس ، فذكرها الشرف الذي جلبته
لهم ، ونفيها عن نفسها وعنهم تهمة النقص الذي كان جائزاً أن يلحقهما من
قبلها دون غيرها ، وهو هجنة النسب أليق بهذا المقام ، وأبلغ في المقال .
وإضافتها الهجنة إلى النسب تحقق معنى لا تحققه إضافة التعبير إليه .

ويبقى للحسب بعد ذلك شرفه الذي أرادته ، ويريده الناس لأنفسهم ، حين
تذكر نصاعته وتنفي التعبير والتدنيس عنه بقولها ، ولا غبرت حسبكم ، .
ولن ينقص قولها قدراً بهذا النقد ، لأنها لم تترَو فيه ، ولم تعتمد
إلى تعبير .

بل قالت ذلك ارتجالاً دون إعداد سابق (٢) .

(١) انظر القاموس المحيط ، مادة « هجن » .

(٢) وانظر الخطابة في صدر الإسلام ص ٤٠٥ .

نموذج رائع لحفيدة رسول الله تخاطب أهل الكوفة

حدث ابن أبي طاهر عن خدام الأسدي ، قال :

قدمت الكوفة سنة إحدى وستين - وهي السنة التي قتل فيها الحسين بن علي عليهما السلام - فرأيت نساء الكوفة قياماً يلتدمن^(١) ورأيت علي بن الحسين عليهما السلام وهو يقول بصوت ضئيل قد نحل من المرض : يا أهل الكوفة إنكم تبسكون علينا فن قتلنا غيركم ؟ وسمعت أم كلثوم^(٢) بنت علي عليهما السلام وهي تقول - فلم أر خفيرة^(٣) والله أنطق منها ، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين علي^(٤) عليه السلام ، وأشارت إلى الناس أن امسكوا ،

(١) التدمت المرأة ضربت صدرها حزناً ونوحاً .

(٢) أم كلثوم : هي خطيبة قریش وفصيحتها أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب عليه السلام . وأما سيدة نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله ﷺ . ولدت في آخر أيام العهد النبوي وتزوجها عمر في خلافته وهي حديثة دون البلوغ وما أراد إلا أن يصل نسبه وسلبه برسول الله ، وكان رضى الله عنه قد كلم علياً عليه السلام في أمرها ، فقال علي : إنما حبست بناتي على بني جعفر ، فقال عمر : زوجنها يا علي فوالله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحبتها ما أرصد ، فقال علي : قد فعلت ، ثم غدا على بيته وأمر ببرد فطواه ، وقال لأم كلثوم : انطلي بهذا إلى أمير المؤمنين فقولى له : أرسلنى أبى يقرئك السلام ، ويقول : إن رضى البرد فأمسكه ، وإن سخطته فردده ، فلما أتت عمر قال : بارك الله فيك وفي أبيك قد رضىنا ، قالوا : فرجعت إلى أبيها فقالت : ما نشر البرد ولا نظر إلا إلى ، فزوجها إياه فأقامت عنده حتى قتل عنها وولدت منه زيداً ورقية ، ثم خلفته على ابن عمها عوف بن جعفر بن أبي طالب فأت عنها ثم أعقبته على أخيه محمد بن جعفر فأت عنها فخلفته على أخيه عبد الله بن جعفر - بعد أن ماتت عنه أختها زينب - فأت عنده . وكان موتها هي وابنها زيد في يوم واحد رضى الله عنهما .

فَسَكَنْتِ الْإِنْفَاسَ وَهَدَأَتْ ، فَقَالَتْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَالصَّلَاةُ عَلَى خَدِيِّ
سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ . أَمَا بَعْدُ :

إِنَّمَا مِثْلُكُمْ كَمِثْلُ الَّتِي نَقَضْتَ غَزَاهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةِ انْتِهَائِهَا تَتَخَذُونَ
أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ . أَلَا وَهَلْ فِيكُمْ إِلَّا الصَّلَافُ وَالشَّنَفُ (١) وَمَلَقَ
الْإِمَاءَ ، وَغَمَزَ الْأَعْدَاءَ وَهَلْ أَنْتُمْ إِلَّا كَرَعَى عَلَى دِمْنَةٍ (٢) ؟ وَكَفَضَةَ عَلَى
مَلْحُودَةٍ (٣) ؟ أَلَا سَاءَ مَا قَدَّمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ أَنْ تَخِيطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فِي
الْعَذَابِ أَنْتُمْ خَالِدُونَ . أَنْتُمْ كَوْنُ ؟ إِي وَاللَّهِ فَابْكُوا وَلِأَنْفُسِكُمْ وَاللَّهُ أَهْرَاءُ
بِالْبَسْكَاءِ ، فَابْكُوا كَثِيرًا ، وَاضْحَكُوا قَلِيلًا ، فَلَقَدْ فَرَّيْتُمْ بَعَارَهَا وَشَنَارَهَا ،
وَلَنْ تَرْحَضُوهَا بِغَسَلٍ بَعْدَهَا أَبَدًا (٤) وَأَنْتُمْ تَرْحَضُونَ قَتْلَ سَلِيلِ خَاتَمِ النَّبِيَّةِ ،
وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَسَيِّدِ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَنَارِ مَحَبَّتِكُمْ وَمِدْرَةِ حُجَّتِكُمْ (٥) ،
وَمُفْزَعِ خِزَانَتِكُمْ ، فَتَعَسَّأَ وَنَكَسَّأَ ! لَقَدْ خَابَ السَّعْيُ ، وَخَسِرَتِ الصَّفَقَةُ ،
وَبَقِيتُمْ بِغَضَبِ اللَّهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْكُمْ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكِنَةُ ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ،
تَحْكَاكُمُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا . أَنْدَرُونَ
أَيَّ كَيْدٍ لِرَسُولِ اللَّهِ فَرَيْتُمْ ؟ وَأَيَّ كَرِيمَةٍ لَهُ أَبْرَزْتُمْ ؟ وَأَيَّ دَمٍ لَهُ سَفَكْتُمْ ؟
لَقَدْ جِئْتُمْ بِهَا شَوْهَاءَ خَرَقَاءَ ، شَرَّهَا طَلَّاعُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، أَفَعَجَبْتُمْ أَنْ

(١) الصَّلَافُ السَّكْبَرُ وَالْخِيَلَاءُ وَالشَّنَفُ النُّكْرُ عَنْ تَعْرِفِهِ .

(٢) الدِمْنَةُ أَثَرُ الدِّيَارِ أَوْ فَضْلَاتُهَا يَنْبَغُ عَلَيْهَا مَرَعَى أَثِيْقُ الشَّكْلِ مَرِ الْمَذَاقِ
وَقَدْ شَبَّهُوا بِهَا كُلَّ شَيْءٍ مَرَّ لَا خَيْرَ فِيهِ .

(٣) الْمَلْحُودَةُ الْقَبْرُ وَمِثْلُ الْفَضَّةِ عَلَى الْمَلْحُودَةِ كَمِثْلِ مَرَعَى الدَّمَنِ وَهِيَ جَمِيعًا مِثْلُ
الرَّجُلِ الْمُنَافِقِ . (٤) رَحَضَ الثَّوْبَ غَسَلَهُ .

(٥) الْمِدْرَةُ الْمَقْدَمُ فِي اللِّسَانِ وَالْيَدُ عِنْدَ الْخُصُومَةِ وَالْقِتَالُ .

فطرت السماء دماً ، والعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ، فلا يستخفونكم
المهل فإنه لا تحفره المبادرة ^(١) ولا يخاف عليه فوت النار . كلا إن ربك
لنا ولهم لبالمرصاد ؛ ثم ولت عنهم . قال فرأيت الناس حيارى قد ردوا أيديهم
إلى أفواههم . ورأيت شيخاً كبيراً من بني مُجَعَفٍ ، وقد أخذت لحيتة من
دموع عينيه ، وهو يقول :

كم واهم خير السكول ونسلم إذا عد نسل لا يبور ولا يخزي ^(٢)

(١) حفرة : أجلة وأزعة .

(٢) بلاغات النساء ج ٢٧ - ٢٩ .

خطب المناظرة

تكثر خطب المناظرة حين تنقسم الكلمة وتشهد الفرقة وتتسع دائرة الخلاف بين طائفة وطائفة ، أو حزب وآخر ، أو بين فردين كل منهما له وجهة خاصة — في موضوع ما — والمناظرة قد تشمل على لون من المناظرات والمفاخرات المستطرداً ، فقد يستطرد أحد الفريقين بذكر فضائله أو فضائل قومه إذا عنت له فرصة أثناء المناظرة ، وقد اتسعت المناظرة وامتدت أطرافها حينما اشتد النزاع بين علي ومعاوية ، وبين العراقيين والشاميين ، ومن أبلغ خطب المناظرات تلك الخطبة الرائعة التي رواها الرواة للإمام علي قالها حين كان الخوارج يخاصمون ابن عباس فقال له الإمام : « انتبه عن كلامهم ألم أمرك ربك الله ، ثم حمد الله واثنى عليه وقال :

اللهم إن هذا مقام من أفليح^(١) فيه كان أولى بالعلاج يوم القيامة ، ومن نطق فيه وأوعث^(٢) فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ، ثم سألهم عن زعيمهم قالوا : « ابن السكواء » قال علي : فما أخرجكم علينا ؟ قالوا حكومتكم يوم صفين ، قال : أنشدكم بالله أتعملون أنهم حينما رفعوا المصاحف فقامت : نجيهم إلى كتاب الله ، قلت لكم : إني أسألكم بالقوم منكم ، إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إني صحتهم وعرفتهم أطفالاً ورجالاً فكانوا شر أطفال وشر رجال ، امضوا على حقكم وصدقكم ؛ فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعة وإدهاناً ومكيدة^(٣) .

(١) أفليح : فاز وصبر . (٢) أوعث : سار في الوعث ، وهو الصعب ،

(٣) الطبري ٦ : ٢٧ .

ومثل هذه الخطب داخلة في الخطابة الدينية والسياسية معاً لأنها تعتمد على أصول دينية وتتفرع عن مسائل مذهبية، وتفرعت منها الخلافات حول المسائل السياسية .

وإذا رأى بعضهم أن هذا اللون داخل في نطاق الخطابة الاستدلالية التي تعتمد على المدح أو الذم ، وتوجه إلى الحسن والقبح أو الفضيلة والرذيلة فإنها بشيء من التحوير تتحول إلى خطابة استنارة سياسية (١) .

ومن النصفة الأدب العربي وللمرأة العربية ألا تغفل في هذا المقام ذكر بعض النساء الأدبيات في هذا العصر اللاتي أثر عنهن من المواقف ما لم يضمن التاريخ الأدبي بتسجيله ، ولقد كان للحركة الشيعية فضلٌ في إظهار بعض الشخصيات النسوية المحاربة الموالية لعل - رضى الله عنه - ولأهل البيت ، وقد امتاز هؤلاء الأدبيات الشيعيات فوق جرائهن وبلائهن في سبيل العقيدة بمقدرة خطابية لعلها كانت ثمرة ضرورية من ثمار ذلك العهد المقاتل المتنازع الذي اعتمد على قوة السيف من ناحية ، وعلى قوة البيان من ناحية أخرى .

ولقد كانت الحرب بين علي ومعاوية أو بين أهل الشام وأهل العراق ، ميداناً فسيحاً لمواهب المحاربين والخطباء حتى لقد كانت امرأة مثل « عكرشة بنت الأطرش متقلدة حمائل السيف في موقعة صفين المشهورة وهي واقفة بين الصفوف تحض على قتال معاوية في فصاحة وبلاغة وقوة عارضة ربما لم نرها لبعض البلغاء : « أيها الناس عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إلى أن تقول « امضوا على بصيرتكم واصبروا على عزيمتكم ، الله عباد الله في دين الله » . ولم تكن « عكرشة » هي الخطيبة الوحيدة في الحروب بين علي ومعاوية ، فلقد كانت هناك أم الخير بنت الحريش التي طالما ألبت على معاوية وحرضت على قتاله وانهزمته بإذكاء الألقاد الجاهلية التي محاما الإسلام ودعت

(١) الخطابة في صدر الإسلام ١ / ٤٣٨ .

إلى الإمام العادل على توحيداً للكلمة ، ورأياً لصديق المسلمين ، وكأني بها
وهي على جمل أرمل كلون الرماد ويدها سوط قد انتشرت ضفائره وهي تهدر
كالفيحل من الإبل يهدر في شقه شقته ؛ « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة
شئ عظيم » .

وكان للرزقاء بذت عدى الهمدانية موقف لا يقل روعة عن موقف أم الخير
في الحث على قتال معاوية حتى أنه لم ينس خطبتها وهي راكبة الجمل الأحمر ،
وحين استقدمها من الكوفة بعد أن صارت إليه الخلافة ذكرها بخطبتها التي
تقول فيها : « أيها الناس ، ارجعوا وارجعوا إنكم قد أصبحتم في فتنة غشتكم
جلايب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة » (١) .

ولعلنا نلاحظ أن أسلوبهم في الخطابة امتدى بنور القرآن سسلاسة
ووضوح قصد وسمراً في الغرض ، وإصابة للحقائق واطراداً للأحكام وعذوبة
في اللفظ ، ودعائية في الأساليب وتمازجاً بين العبارات ، وتباعداً عن الوحش
النافر والسوقي المبتذل ، واللفظ الغريب والسجع المفتعل ، وإيجازاً مع الخاصة
وإطالة مع العامة وإيماء للعربي وتصريحاً للأعجمي حتى أنك ترى الآية
المقتبسة من القرآن تدخل في الأسلوب فتعنه نوراً وتفرعه جمالا ، وتكسوه
روعة وجلالا ، مع قرب المعاني وصدقها وابتداعها وابتكارها ، وارتياح
النفوس إليها في أحكام (٢) مسلمة وحجج باهرة ، وبراهين قاطعة ،
وتشابه رائعة .

ونسوق فيما يأتي بعض ما قالته أم الخير البارقية والرزقاء بذت عدى ،
وبكارة الهلالية .

(١) الخطب والمواظ : محمد عبد الغنى حسن ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) الخطابة في صدر الإسلام ١ : ٤٤٨ .

أم الخير بنت الحريش البارقية ؛ ترد على معاوية

كتب معاوية إلى واليه بالكوفة : أن أوفد على أم الخير بنت الحريش ابن سراقه البارقية ، رحلة محمودة الصحبة ، غير مذمومة العاقبة ، واعلم أني مجازيك بقولها فيك ، بالخير خيراً ، بالشر شراً . فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها فأقرأها إياه ، فقالت أما أنا فخير زائغة عن طاعة ، ولا معتلة بكذب . ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمرود تختلج في صدري ، وتجري بحري النفس يغلي بها غلي المرجل بحب البأسن^(١) يوقد بجذال السم^(٢) . فلما حملها وأراد مفارقتها قال : يا أم الخير ، إن معاوية قد ضمن لي عليه أن يقبل بقولك في : بالخير خيراً ، وبالشر شراً ، فانظري كيف تكونين ؟ قالت : يا هذا لا يطعمك والله برك بي في تزويقي الباطل ، ولا تؤيسك معرفتك إياي أن أقول فيك غير الحق ، فسارت خير مسير . فلما قدمت معاوية أنزلها مع الحرم ثلاثاً ، ثم أذن لها في اليوم الرابع وجمع لها الناس ، فدخلت عليه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فقال : وعليك السلام ، وبالرغم والله منك دعوتني بهذا الاسم ! فقالت مه يا هذا ! فإن بديهة السلطان ممد حصة لما يجب علمه^(٣) . فقال صدقت يا خالة ، وكيف رأيت مسيرك ؟ قالت لم أزل في عافية وسلامة حتى أوفدت إلى ملك جزل وعطاء بذل . فأنا في عيش أنيق ، عند ملك رقيق ، فقال معاوية : بحسن نيقي ظفرت بكم وأعنت عليكم ، قالت : مه يا هذا ! لك والله من دحض المقال ما تُردى عاقبته ، قال ليس لهذا أردناك .

(١) البأسن : العدس .

(٢) الجذال : أصل الشجرة بعد ذهاب الفرع ، والسم شجر من أشجار البادية .

(٣) البديهة : المفاجأة ومدحضة مبهطة .

قالت : إنما أجرى في ميدانك ، إذا أجريت شيئاً أجرته فاسأل عما بدا لك .
 قال : كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر ؟ قالت : لم أكن والله رويته
 قبل ولا زورته بعد^(١) وإنما كانت كلمات نفثهن لسانى حين الصدمة . فإن شئت
 أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت قال لا أشاء ذلك . ثم التفت إلى أصحابه
 فقال : أيكم حفظ كلام أم الخير ؟ فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين
 كحفظى سورة الحمد ، قال هاته اقال نعم ، كأنى بها ، يا أمير المؤمنين ، وعليها
 بُرد زبيدي^(٢) كثيف الحاشية ، وهى على جمل أرمك^(٣) وقد أحيط حولها حواء^(٤)
 ويدها سوط مُنتشر الضَّفر ، وهى كالفحل يمدُّ رءُف في شقشقة^(٥) تقول :
 « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، إن الله قد أوضح
 الحق ، وأبان الدليل ، ونور السبيل ، ورفع العلم ، فلم يدعكم في عمياء مبهمة ،
 ولا سوداء ممدَّهمة ، فإلى أين تريدون رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين
 أم فراراً من المؤمنين ؟ أم فراراً من الزحف ؟ أم رغبة عن الإسلام ؟
 أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول : « ولنبلونكم حتى نعلم
 المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » . ثم رفعت رأسها إلى السماء وهى
 تقول : اللهم قد عيل الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشر الرعب ، وييدك يارب
 أزمنة القلوب فاجمع الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ، واردد الحق
 إلى أهله . هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والوصى^(٥) الوفى ، والصدِّيق الأَكبر

(١) رويت في الأمر : فكرت فيه ، وزورت الكلام زينته .

(٢) الأرمك : الرمادى . (٣) الحواء ما يتخذ كالوسادة على الرجل .

(٤) الشقشقة : شيء كالرئة يخرج به البعير من فيه إذا هاج .

(٥) إنما سمي على عليه السلام بالوصى لقول رسول الله ﷺ له : « أنت منى
 بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » فهو بذلك كقول الشيعة — وقد
 أوصاه بالمسلمين واستخلفه عليهم .

لأنها لإحسنة بدرية^(١) وأحقاد جاهلية ، وضغائن أحمدية ، وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس . ثم قالت : قاتلوا أئمة الكفر لأنهم لا إيمان لهم لعالمهم يفتنون . صبراً معشر الأنصار والمهاجرين . قاتلوا عن بصيرة من ربكم وثبات من دينكم . وكأنى بكم غداً أفدلقينم أهل الشام كحُمر مستنفرة لا تدرى أين يسلك بها من لجأج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرة بالعمى ، عما قليل ليُصنَّبِحُنَّ نادمين ، حتى تحل بهم الندامة فيطلبون الإقالة . لأنه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل ، ومن لم يسكن الجنة نزل النار ، أيها الناس إن الأكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستبطنوا مدة الآخرة فسعوا لها والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود ، ويظهر الظالمون ، وتقوى كلمة الشيطان ، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه . فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته ، خلق من طيئته ، وتفرع من نبتة حسنة ، وخصه بسره ، وجعله باب مدينته . وعلم المسلمين ، وأبان ببغضه المنافقين ، فلم يزل كذلك يؤيده الله عز وجل بمعاونته ، ويمضى على سبيل استقامته لا يعرج لراحته الدأب . هاهو مفلح الهام ، ومكسر الأصنام ، إذ صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس مرتابون ، فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزى بدر ، وأفى أهل أحد ، وفرق جمع هوازن ، فيا لها من وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقاً ، وردة وشقاقاً . قد اجتهدت في القول وبالغت في النصيحة ، وبالله التوفيق ، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

(١) الإحسنة : جمع أحسنه — الأحقاد — وبدرية نسبة إلى بدر وهى أولى الوقائع بين المسلمين والمشركين تريد أن معاوية بإثارته الحرب على أنما ينتقم لمن قتل من آل يوم بدر .

فقال معاوية : والله يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلى ! والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك . قالت : والله ما يسوءني يا ابن هند أن يجرى الله ذلك على يدي من يسعدني الله بشقائه . قال : هيات يا كثيرة الفضول : ما تقولين في عثمان بن عفان ؟ قالت : وما عسيت أن أقول فيه ؟ استخلفه الناس وهم عنه راضون ، وقتلوه وهم له كارهون . فقال معاوية : إيه يا أم الخير ! هذا والله أصلك الذي تبنيين عليه ^(١) . قالت : لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً . ما أردت لعثمان نقصاً وإن كان لسباقاً إلى الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجة . قال : فما تقولين في طلحة بن عبيد الله ^(٢) . قالت وما عسى أن أقول في طلحة ؟ اغتيل في مأمنه وأتى من حيث لم يحذر ، وقد وعده رسول الله ﷺ الجنة . قال فما تقولين في الزبير ^(٣) ؟ قالت يا هذا لا تدعني كرجيع الصبيغ يُعشرك في الماركن ^(٤) . قال

(١) يريد أن سوء رأيها في عثمان هو الذي دفعها إلى مناصرة علي .

(٢) طلحة بن عبيد الله أحد السابقين الأولين والأبطال المعلنين وعاشر عشرة بشركم رسول الله بالجنة وسادس ستة أختارهم عمر رضي الله عنه ليكون منهم الخليفة من بعده ، وأول صحابي بايع علياً عليه السلام ثم استحال رأيهُ فخرج عليه وانضم إلى جند عائشة رضي الله عنها يوم الجمل وهناك أصيب بسهم أودى به رضي الله عنه .

(٣) كان أمر الزبير حيال علي شبيباً بأمر طلحة ، وكان قد انضم أيضاً إلى جند عائشة فأرسل إليه علي يذكره بقول رسول الله له « لتقاتلنه » يريد تقاتل علياً — وأنت ظالم له ، فأنشئ عن الموقعة فراراً من الباطل وعوداً إلى الحق ، فلما انتهى إلى واد يقال له وادي السباع أخذه النوم فاقتاله رجل من مجاشع يقال له عمرو بن جرموز .

(٤) الصبيغ : الثوب المصبوغ ، والعرك الدلك والحك ، والمركن الآنية أي لا تتركني كالثوب المصبوغ .

حقاً لتقولن ذلك وقد عزمت عليك قالت وما عسيت أن أقول في الزبير ابن حمة رسول الله ﷺ وحواريه ، وقد شهد له رسول الله بالجنة . ولقد كان سباقاً إلى كل مكرمة في الإسلام ، وإنى أسألك بحق الله يا معاوية فإن قریشاً تحدث أنك أحلبها ، وأسألك بأن تسعى بفضل حبلك ، وأن تعفيني من هذه المسائل ، وخذ فيما شئت من غيرها . قال نعم وكرامة ، قد أعفيتك ، وردها مكرمة إلى بلدها .

بلاغة الزرقاء بنت عدى

سهر معاوية ليلة فذكر الزرقاء بنت عدى بن غالب بن قيس — امرأة كانت من أهل السكوفة ، وكانت ممن يعين علياً عليه السلام يوم صفين ؛ فقال لأصحابه أيكم يحفظ كلام الزرقاء ؟ فقال القوم كلنا نحفظه يا أمير المؤمنين ، قال فما تشيرون عليّ فيها ؟ قالوا نشير عليك بقتلها ، قال بئس ما أشرتكم عليّ به ! أيحسن بمثلي أن يتحدث الناس أني قتلت امرأة بعد ما ملكت وصاد الأمر لي ؟ ثم دعا كاتبه في الليل فكتب إلى عامله في السكوفة أن أوفد إلى الزرقاء ابنة عدى في ثقة من محارمها ، وعدة من فرسان قومها ، ومهدا وطاء ليناً ، واسترها بستر حصيف (١) . فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها فأقرأها الكتاب ، فقالت : أما أنا فغير زائفة عن طاعة . وإن كان أمير المؤمنين جعل المشيئة إلى لم أرم (٢) من بلدي هذا ، وإن كان حكم الأمر فالطاعة له أولى بي ، فحملها في هودج وجعل غشاه حبراً مبطناً بعصب اللين ، ثم أحسن صحبتها فلما قدمت على معاوية قال لها مرحباً وأهلاً خير مقدم قدم وافد . كيف حالك يا خالة ؟ وكيف رأيت مسيرك ؟ قالت خير مسير ، كأنني كنت ربيبة بيت أو طفلاً عمداً . قال : بذلك أمرتهم فهل تعلمين لم بعثت إليك ؟ قالت سبحان الله أني لم أعلم ما لم أعلم ؟ وهل يعلم ما في القلوب إلا الله ؟ قال بعثت إليك أن أسألك : أأنت راقية الجمل الأحمر يوم صفين بين الصفين ، توقدين الحرب وتحضين على

(١) الوطاء : الفراش اللين ، والحصيف : المحكم النسيج . (٢) لم أرم : أي لم أتحرك .

القتال ؟ فما حملك على ذلك ؟ قالت يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس ومُتَرَ الذنب والدهر ذر غير ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر ، قال لها : صدقت فهل تحفظين كلامك يوم صفين ؟ قالت : ما أحفظه . قال ولكني والله أحفظه ! الله أبوك . لقد سمعتك تقولين : أيها الناس ! إنكم في فتنه غشتكم جلايبب الظالم ، وجارت بكم عن قصد المحبة ، فيها لها من فتنه عياء صماء ، يسمع لقائلها ولا ينظر لسامعها ، أيها الناس ! إن المصباح لا يضيء في الشمس ، وإن الكوكب لا ينفذ في الفخر وإن البغل لا يسبق الفرس ، وإن الزئف لا يوازن الحجر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن استخبرنا أخبرناه ، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها . فصبراً يامعشر المهاجرين والأنصار ؛ فكن أنتم مل شعث الشتات ، والأت مت كلمة العدل ، وغلب الحق باطله ، فلا يعجلن أحد فيقول كيف وأنسى لي قضى الله أمراً كان مفعولاً . ألا إن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، والصبر خير في الأمور عواقباً . إليها إلى الحرب قُدُماً غير نا كهيّن فهذا يوم له ما بعده ، ثم قال معاوية والله يازرقاء لقد شركت عايأ عليه السلام في كل دم سفكه . فقالت أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين ، وأدام سلامتك مثلك من بشر بخير ، وسر جليسه ، قال لها وقد سرك ذلك ؟ قالت نعم لقد سرنى قولك . فأنسى بتصديق الفعل ؟ قال معاوية : والله لوفاؤكم له بعد موته أحب إلى من حبكم له في حياته . أذكرى حاجتك . قالت يا أمير المؤمنين إني قد آليت على نفسي ألا أسأل أميراً أعنت عليه شيئاً أبداً (١) . ومثلك أعطى عن غير مسألة وجاد عن غير طلب . قال صدقت ، فأقطعها ضيعة أغلستها في أول سنة عشرة آلاف درهم وأحسن صفدها ، ورددها والذين معها مكرمين .

(١) الزئف : انظر جمهرة خطب العرب ، الجزء الأول والثاني .

بكرة الهلالية

استأذنت بكرة الهلالية على معاوية فأذن لها . فدخلت وكانت امرأة
أسنت وعشى بصرها ، وضعفت قوتها ، فمى ترعش بين خاديهن لها ، فسلمت
ثم جلست ، فقال معاوية كيف أنت يا خالة ؟ قالت بخير يا أمير المؤمنين . قالت
خيرك الدهر ! قالت كذلك هو ذو غير ، من عاش كبر ، ومن مات قبر . وكان
هنالك مروان بن الحكم وعمر بن العاص ، فابتدأ مروان فقال : ألا تعرف
هذه يا أمير المؤمنين ؟ قال : ومن هي ؟ قال : هي التي كانت تعين علينا يوم
صفين وهي القائلة :

يا زيد دونك فاستثر من دارنا سيفاً حساماً في التراب دفينا
قد كان مذخوراً لكل عزيمة فاليوم أبرزه الزمان مصونا

قال عمرو بن العاص : وهي القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هند للخلافة مالكا هيئات ذاك وما أراد بعيد
منتك نفسك في الخلاء ضلالة أغراك عمرو للشقا وسعيد
فارجع بأنكد طائر بنحوسها لاقت عالياً أسعد وسعود

فقال سعيد : يا أمير المؤمنين وهي القائلة :

قد كنت آمل أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أمية خاطبا
فالله أخسر مدق فتطاوت حتى رأيت من الزمان عجائبا

في كل يوم لا يزال خطيبهم وسط الجموع لآل أحمد عائدا
ثم سكنت القوم ، فقالت بكاره نبحتنى كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني
فقهر محججتي^(١) وكثر عجبى ، وعشى بصرى ، وأنا والله فائلة ما قالوا ،
لا أدفع ذلك بتكذيب ، فامض لشأنك ، فلا خير في العيش بعد أمير المؤمنين
فقال معاوية : إنه لا يضعك شيء . فاذكرى حاجتك تقض . فقضى حوائجها
وردها إلى بلدها .

وهناك خطيبات كثيرات مثل عكرشة بنت الأطرش وجروة بنت غالب
فقد حدث ابن طاهر عن الشافعى ، قال :

دخلت عكرشة بنت الأطرش على معاوية ويدها عكاز في أسفله زج^(٢)
مستقى ، فسلمت عليه بالخلافة وجلست ؛ فقال لها معاوية : يا عكرشة الآن صرت
أمير المؤمنين ا قالت نعم إذ لا على^(٣) حى ، قال ألسنت صاحبة السكور^(٤) المسدول
والوسط المشدود ، والمتقلدة بحمائل السيف ، وأنت واقفة بين الصفيين يوم
تقولين يا أيها الناس عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم . إن الجنة
دار لا يرحل عنها من قطنها ، ولا يحزن من سكنها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها
ولا تنصرم همومها ، كونوا قوماً مستبصرين . إن معاوية داف إليكم بعجم
مغلف^(٥) القلوب لا يفقهون الإيـان ، ولا يدرون ما الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجاب
واستدعاهم إلى الباطل فلبوه . فأنه الله عباد الله في دين الله وإياكم والتواكل
فإن في ذلك نقض عروة الإسلام ، وإطفاء نور الإيمان ، وذهاب السـنة

(١) اعتورتني : أى تنازعتني من كل جانب ، والمحجن : العصا .

(٢) الزج : الحديدة في أسفل الرمح أو نحوه ويطعن به . (٣) السكور الرجل

(٤) غلف : جمع أغلف والقلب الأغلف الذى كأنما غشى غلافاً فهو لا يرى .

وإظهار الباطل ، هذه بدر الصخرى ، والعقبة الأخرى . قاتلوا بأمعش الأناصر والمهاجرين على بصيرة من دينكم ، واصبروا على عزيبتكم ، فكأنى بكم غداً قد لقيتم أهل الشام كالجر النهاقة والبغال الشبيجا . تصقع صقع البعير ، وتروث روث العناق ثم قال معاوية : فوالله لولا قدر الله وما أحب أن يجعل لنا هذا الأمر لقد انكفأ العسكران ، فاحملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين إن اللبيب إذا كره أمراً لم يحب إعادته . قال : صدقت ، اذكرى حاجتك ، قالت : يا أمير المؤمنين إن قد رد صدقاتنا علينا ، ورد أموالنا فينا إلا بحقها . وإننا قد فقدنا ذلك فما أعطى فقير ، ولا يجبر لنا كسير فإن كان ذلك عن رأيك فما مثلك من استعان بالخونة واستعمل الظالمين ، قال معاوية : يا هذه إنه تنوبنا أمور هي أولى بنا منكم ، من بحور تبتلى وتغزو تتفتق . قالت : يا سيحان الله ! ما فرض الله لنا حقاً جعل لنا فيه ضرراً على غيرنا ما جعله لنا وهو علام الغيوب ، قال معاوية هيئات يا أهل العراق فقد فقهكم ابن أبي طالب فلن تطاقوا ، ثم أمر لها برد صدقتها وإضافها وردها مكرمة .

جروة بنت غالب

احتجم معاوية بمسكة ، فلما أمسى أرق أرقاً شديداً ، فأرسل إلى جروة بنت غالب التميمية — وكانت مجاورة لمسكة ، وهي من بني أسد بن عمرو ابن تميم — فلما دخلت قال لها : مرحباً يا جروة ، أرنحك ؟ قالت : إى والله يا أمير المؤمنين ، لقد طرقت فى ساعة لا يطرق فيها الطير فى وكره ، فأرعت قلبى ، وربع صبيانى ، وأفزعت عشيرتى ، وتركت بعضهم يموج فى بعض ، يراجعون القول ويديرون الكلام خشية منك وشفقة على . فقال لها : ليسكن روعك ، ولتطب نفسك ، فإن الأمر على خلاف ما ظننت ، إنى احتجمت فأعقبى ذلك أرقاً ، فأرسلت إليك تخبرينى عن قومك .

قالت : عن أى قومي تسألنى ؟ قال : عن بنى تميم . قالت : يا أمير

المؤمنين هم أكثر الناس عدداً ، وأوسعه بلدأ وأبعده أمدأ . هم الذهب
الآحر ، والحسب الأنفر قال : فنزأ لهم لى ، قالت : يا أمير المؤمنين أما بنو
عمرو بن تميم فأصحاب بأس ونجدة ، وتحاشد وشدة ، لا يتخاذلون عن اللقاء ،
ولا يطمع فيهم الأعداء ، سلمهم فيهم ، وسيفهم على عدوهم . قال : صدقت ،
ونعم القول لأنفسهم ، قالت : وأما بنو سعد بن زيد مناة فى العدد الأكثرون ،
وفى النسب الأطيبون . يضرون إن غضبوا ويدركون إن طلبوا ، أصحاب
سيوف وسحجف^(١) ونزال وزلف^(٢) ، على أن بأسهم فيهم ، وسيفهم عليهم
وأما حنظلة فالبيت الرفيع ، والحسب البديع والعز المنيع المكرمون للجار ،
والطالبون بالثار ، والناقضون للأوتار . قال : إن حنظلة شجر تفرع ، قالت :
صدقت يا أمير المؤمنين . وأما البراجم فأصابع مجتمعة ، وكف متمعة ،
وأما طهية فقوم مهوج وقرن لججوج . وأما بنو ربيعة فصخرة صماء ، وحية
رقشاء يغزون لغيرهم ، ويفخرون بقومهم ، وأما بنو يربوع ففرسان الرماح ،
وأسود الصباح يعتنقون الأقران ، ويقتلون الفرسان . وأما بنو مالك ، فجمع
غير مفلول . وعز غير مجهول ، ليوث هرارة ، وخيول كرامة ، وأما
بنو دارم ، فكرم لا يدانى ، وشرف لا يسامى ، وعز لا يوازى ، قال :
أنت أعلم الناس بتميم . فكيف علمك بقيس ؟ قالت : كعلمى بنفسى . قال :
تخبرنى عنهم ، قالت : أما غطفان ، فأكثر سادة ، وأمنع قادة . وأما فزارة ،
فبيتها المشهور وحسبها المذكور . وأما ذبيان ، فخطباء شعراء أعزة أقوياء .
وأما عبس ، فجمرة لا تطفأ ، وعقبة لا تعلى ، وحية لا ترقى ، وأما هوازن
فخلم ظاهر ، وعز قاهر . وأما مسلم ، ففرسان الملاحم ، وأسود ضراغم .
وأما نخير ، فشوكة مسمومة ، وهامة مذمومة ، وداية ملبومة ، وأما هلال ،

(١) الحجف — جمع حجفة — التروس من جلد بلا خشب .

(٢) الزلف : الإقدام .

فاسم نغم ، وعن ضنخم ، وأما بنو كلاب ، فعدد كثير ، ونخر أثير قال :
لله أنت إفاقولك في قریش ؟ قالت : يا أمير المؤمنين هم ذروة السنام ،
وسادة الأنام ، والحسب القمقام قال : فما قولك في علي - عليه السلام -
قالت : حاز والله في الشرف حداً لا يوصف ؛ وغاية لا تعرف ، وبالله أسأل
أمير المؤمنين إعفائي مما أتخوف . قال : قد فعلت ، وأمر بضبعة غلتها
عشرة آلاف درهم .

ونلاحظ أن أسلوب الخطيبات هو الأسلوب الذي يساقط الطبع ويوائم
السليقة ، ولا يعتسف في لفظ أو فكر أو خيال ، فهو لين هادي أو ناثر
حاصف على حسب المقتضيات ووفقاً للأحوال ، مع وضوح اللفظ ، وسهولة
في الأسلوب ، والانسجام التام في بناء الكلمات ، وترك السجع المرذول وهجر
الوحشى والبعد عن التكلف ، والإيجاز في موضوع الإيجاز والإطناب فيما
يستدعى الإطناب والإكثار (١) .

كما نلاحظ أن الخطيبات وبخاصة الشيعيات كانت خطبهن تقوم على الإقناع
والتأثير في النفوس مدعيات خطبهن بأدلة عقلية ونقلية ، فيستشهدن بالقرآن
الكریم ' وأحياناً بالشعر ومأثور الكلام من حكمة ومثل ، كما في خطبة عكرشة
بنت الأطرش ، فإننا نرى الآيات القرآنية تشع في جوانبها وتتلألأ في ثناياها
« عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ، « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا
عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » وقد بدأت خطبتها بالنداء : يا أيها الناس لتحرك
الأذهان الغافلة وتنبيه العقول النائمة كما أشعرهم بالعبء الثقيل الملقى على كاههم
وأنفسهم فتدفعهم دفعاً إلى إصلاح أخطائهم ، والإفاقة من الضلال « فالتة
الله عباد الله في دين الله » ، ثم تزين لهم أجر الجهاد وهو الجنة في أسلوب

(١) الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام ، مؤسسة ومكتبة خدمة العلم - الرياض

التوكيد لتحفزهم إلى التضحية بأرواحهم وأموالهم ، إن الجنة لا يرحل من
أوطنها ، ولا يهرم من سكنها ولا يموت من دخلها فابتاعوها بدار لا يدوم
نعيمها ولا تنصرم همومها .

كما تحذرهم من التواكل في استعارات جميلة : « إياكم والتواكل ؛ فإن ذلك
ينقض عرا الإسلام ، ويطفىء نور الحق ، كما تسوق التشبهات الرائعة ، فتشبه
موقعة « صفين » بموقعة من زعموا أن هذه الموقعة التي يخوضها أنصار عليّ ،
في موقعة صفين تشبه أيضاً بيعة العقبة حين بايع المسلمون الأولون من الأنصار
النبي ﷺ ، وعاهدوه أن ينصروه بأموالهم وأنفسهم ، أى أن هذه الموقعة
دفاع عن الإسلام ونصرة له كتلك .

ثم نخرج في آخر خطبتها إلى النداء كذلك في أسلوب إنشائي خلاّب
تعقبه تشبيهات مثيرة لتحبيج حميتهم وتشعل حماسهم ضد معاوية : « يا معشر
المهاجرين والأنصار امضوا على بصيرتكم واصبروا على عزيمتكم ، فكأن
بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كالجر الناهقة تصقع صقع البقر .

كما نلاحظ أن « أم الخير بنت الحريش » تبدأ خطبتها بالأمثال الحكيمية
والحكم السائدة لتشعر معاوية بأن حكمها عليه ، حكم صحيح مسلم لا يقبل
النقض والإبرام « إن بديهة السلطان مدحضة » ولسكل أجل كتاب .

وضمنت خطبتها استشهادات من القرآن الكريم كسائر الخطيبات الشيعيات
« اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين
منكم والصابرين ونبلو أخباركم ، « قاتلوا أئمة الكفر لأنهم لا إيمان لهم لعلهم
يفتنون ، « وإن هذا الموقف الرهيب بين يدي حاكم قوى معاوية لم يحل بينها
وبين قول الحق ، والجهر بالرأى القويم ، وإصابة سواء المفصل وإقناع معاوية
بالحجة والبرهان ، كما نستنبط من حديثها مع معاوية أنها خطيبة قد أوتيت من

قوة المعارضة وبلاغة المنطق والتلاعب بالألفاظ ما لم تؤته خطيبة أخرى فهي تستطيع بقوتها الخطابية أن تجعل الحق باطلا والباطل حقاً ، وأن تغلب ببلاغتها أمة بأسرها ، يدل على هذا ما قالته معاوية حينما عنفها على قولها خطبتها التي أيدت فيها الإمام عليّ « إنها كلمات نفثها لسانى عند الصدمة فإن أحببت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت » ، وهذا يدل على قدرتها الخطابية المخارقة العجيبة .

وحينما انتقل إلى خطبة الزرقاء بذت عدى نرى فيها من سمو التعبير ، وعظمة التأثير ، ما يهز القلوب ، ويملك على عقل الإنسان كل مناهذه وأبوابه ، في منطق منسق وحجج متدافعة متدفقة كما نجدتها تضمن نثرها وخطبتها آيات من القرآن الكريم وأمثلة وحكا تتألق من خلال أقوالها تألق الدرر ، في اتساق عجيب ، ونسق بهيج لقولها : « والدهر ذو غير ، من تفكر انصد ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد ، والصبر خير في الأمور عواقبا » ، وما أروع استعاراتها في قولها : « إنكم قد أصبحتم في فتنة غشتكم جلايب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة ، فيا لها فتنة عمياء صماء بكاء ، لا تسمع لناعقها ، ولا تذساق لقائدها ، وفي قولها إن المصباح لا يهني في الشمس ، ولا تنير السكواكب مع القمر تشبيهه ضمنى سيدنا علي بالشمس والقمر وقد أخذهما أبو العلاء الممرى فقال :

يؤجج في شعاع الشمس ناراً ويقودح في تلهيبها زناداً

وفوق ذلك كله تتميز خطبتهن بصحة الألفاظ واستقامة الأساليب وبلاغتها ، وقوة المنطق وصدق الحججة إلى ترتيب الأفكار وتنسيق الحجج ، وإلى إصابة المحز وبلوغ الهدف ، كل ذلك يعد من خصائص بلاغة هؤلاء الخطيبات ، وروعة نثرهن . وروح نثرهن والجو الذي يسيطر عليه والتأثرات المختلفة فيه ترشد إلى أثر الإسلام والقرآن في بلاغة النساء^(١) كما قدمنا ذلك فيما سبق ،

أسلوب المتحاورات

يفسر علماء اللغة المحاورة بأنها مراجعة الكلام، يقال حاورته أى راجعته الكلام، وتحاور القوم أو الجماعة راجعوا الكلام بينهم فمادة المحاورة تدور حول الرجوع، ويفرق علماء اللغة بين المحاورة والمجادلة، إذ المجادلة تتطلب اللدد في الخصومة، وما يكون في نحو من ذلك، ولكنها في كل صورها تدور حول التخاصم بالكلام.

وأما المحاورة فهي مجرد مراجعة الكلام بين المتكلمين ولا تلزم فيه صور الخصومة، وإنما تغلب عليها صور الكلام المتبادل بين الطرفين في أسلوب لا تقصد به الخصومة في حد ذاتها أو لا يراد به بالضرورة الاتجاه إلى الخصومة. وهذه التفرقة بين المدلولين إنما استقامها اللغويون بطبيعة الحال من تتبع الاستعمال العربي، وإذا ذهبنا إلى القرآن الكريم في استعماله للفظين نجد فيه هذه التفرقة، وذلك في قوله تعالى: «قد سمع الله قول التي تجادل في زوجها وتشتمكي إلى الله والله يسمع تحاوركما» (١).

فحديث المرأة عن زوجها كان خصومة، ولذلك كان التعبير بالمجادلة، ولكن حديثها مع النبي صلى الله عليه وسلم كان مراجعة للكلام، ولذلك كان تعبيره بالمحاورة (٢).

ونلاحظ أن المحاورة التي وردت بين معاوية والخطيبات الشيعيات أنصار على كانت من قبيل المحاورة لأنه كان مراجعة في الكلام والغرض منه الوصول إلى الحق الذي يعتقده كل طرف.

(١) أول سورة المجادلة.

(٢) أسلوب المحاورة، دكتور عبد الحليم حنفى ص ١١، ١٢

والحوار من ألوان الخطابة ، ويعد أعلى مراتب الكلام ، وأوعر مسائل القول فالفضل فيه مذكور لصاحبه ، والإحسان شاهد لربه ولذلك يقل فيه أثر الصنعة ويكون الاعتماد فيه على الطبع والدربة والحوار يكشف عن طاقة بلاغية ومقدرة خطابية ، وبديهية وارتجال ، لأن الجانبين كليهما يقرلان فيما لم يعدا له ، ويفاجيء كل منهما صاحبه بما لم يعلمه ، ومن كان عند البديهة والارتجال قادراً على الإجابة والإحسان فهو عند الروية والسعة أكثر قدرة وأرفع في الفصاحة قوة ، وقد قوى فن الخطابة وازدهر بالحوار والجدل ومحاولة الإقناع في الدين والسياسة والخصومات المختلفة ، وكان أن اتبع الخطباء في هذا سبل القرآن وحاكروا أساليبه في إيراد الحجج الخطابية وسوق الأدلة المقنعة وعرض القضايا المنطقية السليمة . وقد أصبح هذا اللون قسماً ضخماً من أقسام الخطابة الإسلامية يمكن أن ينسب إليه جانب كبير من النهضة الخطابية ، وهذا ما مهد لقيام الخطابة الاستشارية السياسية ، ولم تكن معروفة قبل الإسلام بمفهومها الواضح الصحيح ، وما كانت قريباً منها في بعض منازعات الجاهليين فإنه لم يكن شيئاً يذكر لأنه كان يتمثل في صورة غامضة من القول في الخصومات البدوية تتراعى في ثوب المعاصرة والمناظرة المصطنعة بالعصبية القبلية من غير ملاح ووضحة أو كيان متميز يميزه كأسلوب المحاورة والمناظرة التي ظهرت فيما بعد في لون متميز .

ومن صفات المحاور أن يكون لبقاً مرناً ذا كياسة وذكا . وحنق يدعم رأيه بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة ، وأن يكون ذا أسلوب رقيق سلس يستولى به على قلوب محاوريه ، وينتزع منهم إقناعهم وإعجابهم ، وكذلك كان شأن النساء المحاورات مع معاوية ، كسودة بنت عمارة الهمدانية ، وأم سنان بنت خيثمة ، وبكارة الهلالية ، وأروى بنت الحارث وأم البراء بنت صفوان والحجرية كما يظهر في أدبهن الاعتداد بالرأى ، والاعتزاز

بالنفس ، والجسرة في الحق مهما كلفون ذلك من ثمن ، نرى ذلك ونلاحظه في رد سودة بنت عمارة على معاوية معللة خروجها ضده بحب الإمام على وآل بيته ، حينما قال لها ما حملك على ذلك ؟ قالت : دح ب علي عليه السلام واتباع الحق .

وكثيراً ما تدعم المحاورات محاورتهن بالاستشهاد بالشعر كقولها متمثلة بقول الخنساء في موقف الدفاع عن أخيها :

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

ثم أخذت تشكو إلى معاوية ظلم بسر بن أرطاة وأنه أعمل في قومها الظلم والفسوة ، فحصدهم حصاد السنابل وداس على أجسامهم دوس البقر واستولى على أموالهم ، وقتل أغلب رجالهم ؛ ثم أخذت تمدح الإمام علياً بأبيات ساقنها :

صلى الإله على جسم تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفوناً
قد حالف الحق لا يبغي به بدلاً فصار بالحق والإيمان مقروناً
وفي آخر المحاربة تصف رقة قلب الإمام على وبكائه من أجل نصرة المظلومين والتفاني في سبيل رد الحق إليهم

وسودة في محاورتها كسائر الشيعيات المحاورات تمثل نزعة جديدة قوية ، وجراءة خارقة في سبيل نصرة الحق والمبدأ والعقيدة في ألفاظ رصينة وعبارات قوية جزلة تمثل شجاعة القلب ومضاء العزيمة تتدافع وتتدفق ، تجلجها حرارة الإيمان وتسيطر عليها روح الحب للإمام على رضي الله عنه .

وفي محاوره أم سنان نرى استشهادها بالشعر ما بين الفينة والفينة كطبيعة أسلوب محاوره الشيعيات في هذه الفترة ، وتتلأ في محاورتها صور من

من الاستعارات والتشبيهات والكنايات التي تملك شغاف القلوب وتأسر المشاعر ، فهي تصور الإمام عليا وقد أحاط به أصحابه من كل جانب ، كالهلال تحيط به النجوم من كل ناحية وهكذا في كل صورة من صورها البيانية ، لا ترى إلا سحر بيان وإبداع صوغ وتخليق خيال ، كما يظهر في المحاوراة أثر الثقافة الإسلامية وما تطبعه في نفس الفرد من قيم عظيمة يدافع عنها بدافع من دينه وعقيدته ، فقد تصدت لمروان لأنه لا يحكم بعدل ولا يقضى بسنة ويتبع عورات المسلمين ويكشف سوءات المؤمنين في دفاع مرير وإصرار عنيد وتلك هي سمة التشيعات لآل علي : تراهن يصدعن بالحق دون خوف من حاكم أو خشية من أمر تسيطر ، عليهن روح الحماسة التي تفضي في النهاية إلى غايتها من الإثارة والتأثير وتنتهي إلى غرضها من الاستجابة والانقياد .

كما رأينا بكارة الهلالية شجاعة جريئة تدخل على معاوية وتحاوره في رباطة جأش وثبات قلب تنطق بالحكمة السائرة « الدهر ذو غير ، من عاش كبر ، ومن كبر قبر » .

كما قدمت لنا صوراً مختلفة من ألوان البيان الرائعة « نبحتني كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني » ، « فقصر محجني ، وكثر عجي ، وعشى بصري » . كما تمثلت باستشهادات شعرية مختلفة بما زاد الحوار جمالا وتأثيراً ، كما تبدو فيها حلاوة الازدواج والموازنة بين الألفاظ والجميل في عبارات سهلة وأساليب مختارة برئت من كل صنعة وزخرف وتكلف ، وقصدت إلى غايتها من أقرب طريق في تنوع يضيف عليها حلاوة الجودة ويسكبها مزيداً من التشويق والتأثير ما جعل معاوية يتأثر بأسلوبها ويبعثها مكرمة مجازاة إلى بلدها .

ومحاوراة أدوى بذت الحارث تنسم ذروة البلاغة بما قبست في خطبتها من أضواء القرآن الكريم ، وأخذت من سنائه ورشفت من رحيقه والذي

يطالع خطبتها يحس الأثر الواضح للبيان القرآني والاقتباسات المضيئة من آياته فيتجلى ذلك في قولها : « وكانت كلمتنا هي العليا ، ورد الحق إلى أهله ولو كره المشركون » .

كما استشهدت بأبيات شعرية في غير موضع من الخطبة كمادة الخطيبات الشيعيات ، واشتملت الخطبة على تعنيف معاوية لانتزاعه السلطة من يد الإمام علي ، وأخذه غير حقه من غير جدارة واستحقاق ، ثم أخذت تمدح الإمام وتصفى عليه هالات المدح والسناء ، وأنه بعد النبي ﷺ بمنزلة هارون من موسى وفرقت بين غايي علي ومعاوية ، وأن غاية الإمام الجنة وغاية معاوية النار ، ولقد بلغت بها جرأتها النادرة ، وشجاعتها الفذة أن شتمت معاوية ولم ترهب سطوة السلطان ، وهيبة الحكم لرباطة جأشها ، ولذلك جاءت خطبتها آية في البلاغة لأن آلة البلاغة كما يقول أبو هلال العسكري رباطة الجأش فان الحيرة والدهش يورثان الحبسة والحصر وهما سبب الارتاج والإجبال (١) ولذا فان معاوية رغم شتا ثمتها ، قد سحرته بلاغتها ، وقوة منطقتها ، ووفرة التضامين من القرآن الكريم والشعر العربي الجيد ، وأمر لها بستة آلاف دينار .

وفي هذا المجال تبرز أيضاً شجاعة أم البراء بنت صفوان تحاور معاوية في شجاعة خارقة وبلاغة نادرة رغم ضعفها ومرضاها حتى شهد لها معاوية ببلاغة منطقتها ، وقوة حجتها حيث قال لها عقب خطبتها له : « قانلك الله ما تركت مقالة لقائل ، وسر بلاغتها يرجع كما قدمنا إلى اقتباسها من القرآن واستدلالها بآيات منه في معرض اعتذارها أمام معاوية كقولها : « عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه » ، واستشهادها بالشعر العربي الجيد في معرض الحماسة والتهيج كقولها :

(١) الصناعتان ١٤ ، ١٥ .

يا ليتنى أصبحت غير قميدة فأذب عنه عساكر الفجار
وكقولها في بكاء الإمام على :

الشمس كاسفة لموت إمامنا خير الخلائق والإمام العادل

وعما يمتاز به أسلوب الخطبة ذلك الوضوح الذى يكشف عن قصدها فى
غير تعمية ولا تضليل ، وتلك الصراحة الشجاعة فى غير مواربة أو نفاق .

وما أحسن محاوره دارمية الجحونية حيث تعمل لحبها للإمام على بن
أبى طالب تعليلاً لطيفاً يقوم على الحجّة والبرهان والمنطق دأمله فى الرعية ،
وقسمه بالسوية ولحبه للمساكين ، وإعظامه لأمر الدين .

كما عللت كراهيتها للمعاوية . وأرجعت ذلك - فى نظرها - إلى سفاهة
للدماء وشق عصا الطاعة ، والجور فى القضاء والحكم بالهوى . وأسلوبها يحنح
إلى السجع المحبب أحياناً وإلى الازدراج والموازنة تارة أخرى ، كما يشيع فى
محاورتها ضرب الأمثال الحكيمه دأماً ولا كصداً ، دمرعى
ولا كالسعدان ، وهذا ما يميز أسلوب الخطيبات الشيعيات بوجه خاص كما يذنا
فيما تقدم .

المتحاورات مع معاوية

(محاورة سودة بنت عمارة)

وفدت سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية ، على معاوية بن أبي سفيان ، فاستأذنت عليه فأذن لها ، فلما دخلت عليه سلمت ، فقال لها . كيف أنت يا بنت الأشتر ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال لها : أنت القائلة لأخيك يوم صفين :

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر عليا والحسين ورهطه واقصد لهند وابنها بهوان
إن الإمام أخو النبي محمد علم الهدى ومنارة الإيمان
فقد الجيوش وسر أمام لوائه قدماً بأبيض صادم وسنان^(١)
قالت : إى والله ، ما مثلى من رغب عن الحق ، أو اعتذر بالكذب ، قال لها : فما حملك على ذلك ؟ قالت . حب على عابه السلام ، واتباع الحق ، قال : فوالله ما أرى عليك من أثر على شيناً ، قالت : أنشدك الله يا أمير المؤمنين وإعادة ما مضى ، وتذكر ما قد نسي ، قال : هيهات ! ما مثل مقام أخيك عيسى ، وما أقيمت من أحد ما أقيمت من قومك وأخيك ، قالت : صدقت والله يا أمير المؤمنين ، وما كان أخى خفى المقام ، ذليل المسكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وإن صخرأ لنا سم الهداة به كأنه علم فى رأسه تار^(٢)

(١) القدم : الشجاع ؛ وفى بلاغات النساء : فقد الحتوف وسر أمام لوائه .

(٢) العلم : الجبل .

قال : صدقت ، لقد كان كذلك ، فقالت : مات الرأس وبتر الذنب ،
وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي عما استعفيت منه ، قال : قد فعلت ، فقول
حاجتك ، قالت : يا أمير المؤمنين ، إنك أصبحت للناس سيئاً ، ولأمورهم
مقلداً ، والله ساءلك عن أمرنا وما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم
علينا من يهض بعزك ، ويسط سلطانك ، فيحصدنا حصاد السبيل ، ويدوسنا
دياس^(١) البقر ، ويسومنا^(٢) الخسيسة ، ويسلبنا الجليلة ، هذا ابن أوطاة^(٣)
قدم بلادى ، وقتل رجالي ، وأخذ مالى ، ولولا الطاعة لسكان فينا عز ومنعة ،
فأما عزله عنا فشكرناك ، وإما لا ، فعرفناك ، فقال معاوية : إياي تهديد
بقومك ؟ والله لقد هممت أن أحلك على قتب^(٤) أشرس فأردك إليه ، ينفذ
فيك حكمه ، فأطرقت تبكى ، ثم أنشأت تقول :

صلى الإله على روح تفضننه قبر فأصبح فيه العبد مدفوناً
قد حالف الحق لا يخفى به ثمناً فصار بالحق والإيمان مقروناً

(١) الدوس والدياس والدياسة : الوطء بالرجل .

(٢) يسومنا : أى يذيقنا الخسيسة .

(٣) هو بسر بن أوطاة ، وقيل ابن أبى أوطاة ، وكان معارية فى أيام على
سيره إلى الحجاز وابن ليقتل شيعة على ويأخذ البيعة له ، فسار إلى المدينة ، ففعل بها
أفعالا شنيعة ، وسار إلى اليمن ؛ وكان عليها عبيد الله بن العباس من قبل على ،
فهرب عبيد الله فترها بسر ، وذبح عبيد الرحمن وقثم ابني عبيد الله وهما صغيران بين
يدى أمهما عائشة بنت عبد المطلب ؛ فأصابها من ذلك حزن عظيم ؛ فأنشأت تقول :

يا من أحس بني الذين هما كالدرتين تشظى عنهما الصدف
يا من أحس بني الذين هما سمعى وقلبي ؛ فقلبي اليوم غتطف
يا من أحس بني الذين هما مخ المظالم ، فمخى اليوم مزدحف

(٤) القتب : الإكاف الصغير على : ر سنام البعير .

قال : ومن ذلك ؟ قالت : عليّ بن أبي طالب ، رحمه الله تعالى ، قال : وما صنع بك حتى صار عندك كذلك ؟ قالت : أتيتّه يوماً في رجل وسّلاه صدقائنا ، فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين ، فوجدته قائماً يصلي ، فأنفل من الصلاة ، ثم قال برأفة وتعطف : ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء ، فقال : اللهم إنك أنت الشاهد عليّ وعليهم ، لأنّ لم أمرهم بظلم خلقتك ، ولا ترك حقك ، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم : « قد جاءكم بيّنة من ربكم ، فأوفوا السكيل والميزان بالقسط^(١) ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا^(٢) في الأرض مفسدين ، بقيّة الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ، إن أناك كتابي هذا فاحتفظ بما في يدك من عملنا ، حتى يأتي من يقبضه منك والسلام . »

فأخذته منه والله ما خزومه بخزّام ، ولا ختمه بختم^(٣) فقرأته ، فقال معاوية : اكتبوا لها بالإصاف لها ، والعدل عليها ، فقالت : ألى خاصة ، أم لقوى عامة ؟ قال : وما أنت وغيرك ؟ قالت : هي والله إذن الفحشاء واللّوم ، إن لم يكن عدلاً شاملاً ، وإلا يسعني ما يسع قومي ، قال : هيهات ! لمّا ظلمكم^(٤) ابن أبي طالب الجرأة على السلطان فبطيئاً ما تطفمونه ، وغركم قوله :

(١) القسط : العدل . (٢) عثا يعثو عثوا : أفسد .

(٣) الخزّام : جمع خزامة بالكسر ، وهي في الأصل : حلقة تجعل في أحد جانبي منخري البعير ، وخزامة النمل : سير رقيق يحرم بين الشراكين ، الختم : الطابغ يختم به على الشيء ، (والخاتم : ما يوضع على الطابغ) .

(٤) التلبظ : التذوق ، وأن يحرك الإنسان لسانه في فيه بعد الأكل ، يتتبع به بقيّة من الطعام بين أسنانه ، ويخرجه فيمسح به شفتيه ، واسم علم ما بقى في الفم اللماظة بالضم ، ويقال : لماظ فلاناً (بالتشديد) لماظة : أي شيئاً يتلظّه ، ولماظه من حقه .

فلو كنت بوأباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام
وقوله :

ناديت همدان والأبواب مغلقة ومثل همدان سنى فتحة الباب
كالهندوانى لم تغفل مضاربه وجه جميل وقلب غير وجاب
اكتبوا لها ولقومها^(١) .

محاورة أم سنان بن خيشمة

حبس مروان بن الحكم ، وهو والى المدينة ، فى خلافة معاوية ، غلاماً
من بنى ليث فى جنابة جناها ، فأنته جدة الغلام ، وهى أم سنان بنت خيشمة^(٢)
المذحجية ، فكلمته فى الغلام فأغاظ لها مروان ، فخرجت إلى معاوية ، فدخلت
عليه فانتسبت فعرفها ، فقال لها : مرحباً بك يا بنت خيشمة ، ما أقدمك أرضنا ،
وقد عهدت لك تشتميننا^(٣) وتحضين علينا عدونا ؟ قالت : إن ابنى عبد مناف
أخلاقاً طاهرة ، وأعلاماً ظاهرة ، وأحلاماً وافرة ، ولا يجهلون بعد علم ،
ولا يسفهون بعد حلم ، ولا ينتقمون بعد عفو ، وإن أولى الناس باتباع
ما سن آباؤه لأنى ، قال : صدقت ، نحن كذلك فكيف قولك :

عزب الرقاد ، فقلاتى لا ترقد^(٤) والليل يصدر بالهموم ويورد^(٥)
يا آل مذحج ، لا مقام ، فشمروا إن العدو لآل أحمد يقصد

(١) العقد الفريد ١ : ١٢٩ ، وبلاغات النساء ص ٣٥ .

(٢) فى صبح الأعشى « جشمية » ، وهو تحريف : وتحريمه : ما ذكرنا .

(٣) وفى بلاغات النساء : « أشنئين قربي » أى تبغضين .

(٤) عزب : بعد .

هذا على كمال لال تحفه وسط السماء من الكواكب أسعد^(١)
خير الخلاق وابن عم محمد إن يهدكم بالنور منه تهتدوا
ما زال مذ شهد الحروب مظفراً والنصر فوق لوائه ما يفتقد
قالت : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن تكون لنا خلقاً بعده ،
فقال رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهى القائلة :
إما هلكت أبا الحسين فلم تزل بالحق تعرف ما دياً مهدياً
فأذهب ، عايتك صلاة ربك ما دعت فوق الغصون حمامة قريباً^(٢)
قد كنت بمحمد محمد خلفاً كما أرضى إليك بنا ، فكنت وفيأ
واليوم لا خلف يؤمل بعده هيات نأمل بعده إنسياً
قالت : يا أمير المؤمنين لسان نطق ، وقول صدق ، وإن تحقق فيك
ما ظنناه ، لحظك الأوفر ، والله ما أوردك الشنآن في قلوب المسلمين إلا هؤلاء ،
فأدحض مقاتلهم ، وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تزد من الله قرباً ،
ومن المؤمنين حباً . قال : وإنك لتقولين ذلك ؟ قالت : يا سبحان الله ، والله
ما مثلك من مدح يبطل ، ولا اعتذر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا ،
وضمير قلوبنا ، كان والله على أحب إلينا منك ، وأنت أحب إلينا من غيرك ،
قال : بمن ؟ قالت : من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص . قال : دؤبم
استحققت ذلك عندك ؟ قالت بسعة حليمك ، وكريم عفوك ، قال : وإنهما
يطمعان في ذلك ؟ قالت : هما والله لك من رأى على مثل ما كنت عليه لعثمان

(١) سحود النجوم عشرة : سعد بلع (يضم ففتح) وسعد الاخيمية ، وسعد
المذابح ، وسعد السحود ، وهذه الأربعة من منازل القمر
(٢) القمري : ضرب من الحمام .

ابن عفان رحمه الله تعالى . قال : والله لقد قاربته ، فما حاجتك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين إن مروان تبنك بالمدينة تبنك من لا يريد منها البراح ، لا يحكم بعدل . ولا يقضى بسنة ، يتتبع عثرات المسلمين ، ويكشف عورات المؤمنين ، حبس ابن ابني ، فأتيته ، فقال : كيت وكيت ، فألقمته أخشن من الحجر ، وألقته أمر من الصبر . ثم رجعت إلى نفسي باللائمة ، وقالت : لم لأصرف ذلك إلى من هو أولى بالعفو منه ، فأتيته يا أمير المؤمنين لتكون في أمري ناظراً ، وعليه ثمعدياً ، قال : صدقت ، لا أسألك عن ذنبه ولا عن القيام بحجته ، اكتبوا لها بإطلاقه . قالت : يا أمير المؤمنين ، وأنسى لي بالرجعة ، وقد نفدت زادي ، وكلت راحلتي ، فأمر لها برحلة موطاة ، وخمسة آلاف درهم^(١) .

محاورة أروى بنت الحارث بن عبد المطلب مع معاوية

دخلت أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية وهي عجوز كبير ، فلما رآها معاوية قال : مرحباً بك وأهلاً يا عمة ، فكيف كنت بعدنا ؟ فقالت : يا ابن أخي ، لقد كفرت يد النعمة ، وأسأت لابن عمك الشحبة ، وتسميت بغير اسمك ، وأخذت غير حقك ، من غير بلاء كان منك ولا من آبائك ، ولا سابقة في الإسلام ، ولقد كفرتم بما جاء به محمد ﷺ ، فأنعس الله منكم الجذود^(٢) ، وأضرع^(٣) منكم الخدود ، ورد الحق إلى أهله ، ولو كره المشركون ، وكانت كلمتنا هي العليا ، ونبينا ﷺ هو المنصور ، فوليتم علينا

(١) العقد الفريد ١ : ١٢١ ، وصحيح الأعرشي ١ : ٢٥٧ ، وبلاغات النساء ص ٦٧

(٢) جمع جد : وهو الحفظ .

(٣) أذل ، وفي بلاغات النساء « وأضرع » .

من بعده - وتحتجون بقرايتكم من رسول الله ﷺ ، أقرب إليه منكم ، وأولى بهذا الأمر - فـسـكنا فيكم بمنزلة بنى إسرائيل في آل فرعون ، وكان على بن أبي طالب رحمه الله بعد نبينا ﷺ بمنزلة هرون من موسى (١) ؛ فغايبتنا الجنة ، وغايبتكم النار ، .

فقال لها عمرو بن العاص : كفى أيتها العجوز الضالة ، واقصرى من قولك ، وغصصى من طرفك ، قالت : ومن أنت ، لا أم لك ؟ قال : عمرو ابن العاص ، قالت : يا ابن اللخناء (٢) النابغة تتكلم ، وأنت كنت أشهر امرأة تغنى بمكة ، وأخذهن لأجرة ! ادبّع على ظلمك ، واعن بشأن نفسك ؛ فوالله ما أنت من قريش في اللباب من حسبها ، ولا كريم منصبها ، ولقد ادعاك خمسة (٣) نفر من قريش ، كلهم يزعم أنه أبوك ، فسئلت أمك عنهم ، فقالت : كلهم أنا ، فانظروا أشبههم به ، فالحقوه به ، فغلب عليك شبه العاص ابن وائل ، فالحقت به ، ولقد رأيت أمك أمام منى بمكة مع كل عبد حاهر (٤) ، فأتم بهم فإنك بهم أشبه .

(١) ورواية بلاغات النساء : فسكنا أهل البيت أعظم الناس في الدين حظاً ، ونصيهاً وقدرأ ، حتى قبض الله نبيه ﷺ ، مغفوراً ذنبه ، مرفوعاً درجته ، شريفاً عند الله مرضياً ، فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم موسى من آل فرعون ، يذبحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، وصار ابن عم سيد المرسلين فيكم بعد نبينا بمنزلة هرون من حيث يقول : « يا ابن أم » إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلوني ، (٢) رجل الخن وأمة الخن : لم يحننا ، ولحن السقاء ، وغيره كفرح : أنتن ، والجوزة فسدت ، ومن شتم العرب « يا ابن اللخناء » كأنهم يقولون : يا ذنء الأصل ، أو يا لثيم الأم ، والنابغة أم عمرو ، وقد تقدمت .

(٣) وفي بلاغات النساء « ستة » . (٤) فاجر .

فقال مروان : كفى أيتها العجوز ، وأفصرى لما جئت له . ساخ بصرك مع ذهاب عقلك ، فلا تجوز شهادتك ، فقالت : وأنت أيضاً يا ابن الزرقاء تنكلم ؟ فوالله لأنت إلى سفيان بن الحارث بن كعدة أشبه منك بالحكم ، وإنك أشبهك في زُرقة عينيك ، وحمرة شعرك ، مع قصر قامته ، وظاهر دمامته ^(١) ، ولقد رأيت الحكم مَادَ ^(٢) القامة ، ظاهر الإمامة ^(٣) ، سبط ^(٤) الشعر ، وما بينكما قرابة إلا كقرابة الفرس الضامر من الأتان المستعرب ^(٥) ، فاسأل أهلك تخبرك بشأن أهلك إن صدقت ، ثم التفتت إلى معاوية ، فقالت : والله ما جرأ عليّ هؤلاء غيرك ، وإن أهلك للقائلة يوم أحد في قتل حمزة رحمة الله عليه :

نحن جزيناكم بيوم بدر
والحربُ بعد الحرب ذاتُ مسعر
ما كان عن عتبة لي من صبر
أبي وعمي وأخي ودهري
شفيت (وحشي) غليل صدرى
شفيت نفسي وقضيت نذرى
فشكرُ وحشي عليّ دهري
حتى ترمُ أعظمي في قبري
فأجبتها :

يا بنت جبار عظيم الكفر
خزيت في بدر وغير بدر
صَبَّحك الله قبيل الفجر
بالهاشميين الطوال الزهر
بكل قطاع حسام يفرى
حمزة ليثي ، وعليّ صقري

(٢) تمتد القامة .

(١) الدمامة : القبح .

(٣) الإمامة بالكسر ويضم : الشأن والنعمة والهيئة .

(٤) سبط الشعر : طويله .

(٥) الأتان : الحمار

فقال معاوية لمروان وعمر بن الخطاب: ويلسكا! أنتما عرضتماني لها، وأسمعتاني ما أكره، ثم قال لها: يا عمة أقصدي قصد حاجتك، ودعي عنك أساطير النساء، قالت: تأمرني بألفي دينار، وألفي دينار، قال: ما تصنعين يا عمة بألفي دينار؟ قالت: أشتري بها عينا خروخارة^(١) في أرض خوار^(٢)، تسكون لولد الحادث بن عبد المطلب، قال: نعم الموضع وضعتها، فما تصنعين بألفي دينار؟ قالت: أزوجه بها فتبان عبد المطلب من أكرامهم، قال: نعم الموضع وضعتها، فما تصنعين بألفي دينار؟ قالت: أستعين بها على عسر المدينة، وزيارة بيت الله الحرام، قال: نعم الموضع وضعتها، هي لك نعم وكرامة، ثم قال: أما والله لو كان علي ما أمر لك بها، قالت: صدقت، إن عليا أدى الأمانة، وعمل بأمر الله، وأخذ به، وأنت ضيعت أمانتك، وخنت الله في ماله، فأعطيت مال الله من لا يستحقه، وقد فرض الله في كتابه الحقوق لأهلها ويمنها، فلم تأخذ بها، ودعانا (أي علي) إلى أخذ حقنا الذي فرض الله لنا فشغل بحربك عن وضع الأمور مواضعها، وما سألتك من مالك شيئا فتمن به، إنما سألتك من حقنا، ولا نرى أخذ شيء غير حقنا، أتذكر عليا؟ فض الله فاك^(٣)، وأجهد بلامك، ثم علا بكأوها وجعلت تنرب عليا، فأمر لها بستة آلاف دينار، وقال لها: يا عمة: أنفقي هذه فيما تحبين، فإذا احتجيت فاكتبي إلى ابن أخيك يحسن صفدك^(٤) ومعونتك، إن شاء الله^(٥).

(١) أي تخر الماء . (٢) خواره أي ضعيفة .

(٣) تدعو عليه : أي نثر الله أسنانك .

(٤) الصفد : العطاء .

(٥) العقد الفريد ١ : ١٣٤ ، بلاغات النساء ص ٣٢

محاورة أم البراء بنت صفوان ومعاوية

استأذنت أم البراء بنت صفوان على معاوية فأذن لها ؛ فدخلت عليه وعليها ثلاثة دروع^(١) (بروذي) تسحبها ذراعاً ؛ قد لاثت^(٢) على رأسها كوراً كالمنسف ، فسلبت وجلست ، فقال لها معاوية : كيف أنت يا بنت صفوان ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : كيف حالك ؟ قالت : ضعفت بعد جلد ، وكسبت بعد نشاط ، قال : شتتان بينك اليوم وحين تقولين :

يا زبدُ دونك صارماً ذا رونقٍ غضبَ المهزلة ليس بالخشوعِ
أمرجُ جوادك مسرعاً ومشتمراً للحرب غير معرٍّ لفرار
أجب الإمام وذب تحت لوائه والقي العدو بصارمٍ بتار
يا ليتني أصبحتُ لست قعيدةً فأذب عنه عساكر الفجار

قالت : قد كان ذلك ، ومثلك من عفا ، والله تعالى يقول : عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، قال : هيهات ، أما والله لو عاد لعدت ، ولكنه اخترم^(٣) منك ، قالت : أجل ، والله إني لعلى بينة من ربي ، وهدي من أمري قال : كيف كان قولك حين قتل ؟ قالت : أنسيته ؟ قال بعض جلسائه : هو حين تقول :

يا للرجال لعظم هول مصيبة قد حلت ، فليس مصابها بالخائل^(٤)
الشمس كاسسفةً لفقد إمامنا خير الخلائق والإمام العادل

(١) درع المرأة : قميصها (مذكر) ودرع الحديد مؤنث وقد يذكر .

(٢) اللوث : عصب العمامة ، والكور : لوث العمامة .

(٣) اخترم : هلك .

(٤) المتحول المتغير .

يا خير من ركب المطى ومن مشى فوق التراب لمحتف أو ناهل
حاشا النبي لقد هددت قواءنا فالحق أصبح خاضعاً للباطل^(١)
فقال معاوية : قاتلك الله انما تركت مقالا لقاتل ، اذكرى حاجتك ،
قالت أما الآن فلا ، وقامت فعمرت ، فقالت : تعيس شافىء على^(٢) ، فقال
زعمت أن قالت هو كما علمت ، فلما كان من الغد بعث إليها بجائزة . وقال :
إذا ضيعت فمن يحفظه ؟^(٣)

محاورة دارمية الحوئية ومعاوية

وحج معاوية سنة من سنه ، فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت
بالحجون^(٤) ، يقال لها دارمية الحوئية . وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأخبر
بسلامتها ، فبعث إليها فجاء بها ، فقال : ما حالك يا بنته حام ؟ فقالت : لست
لحام إن عيته إنما أنا امرأة من بنى كنانة ، ثم من بنى أبيك ، قال : صدقت ،
أتدري لم بعثت إليك ؟ قالت : لا أعلم الغيب إلا الله ، قال : بعثت إليك
لأسألك : علام أحببت على وأبغضتني ، وواليتي وعاديتني ؟ قالت : أو تعفيني
يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ، قالت : دأما إذا أبيت فإني أحببت علياً على
عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك
بالأمر ، وطلبتك^(٥) ما ليس لك بحق ؛ وواليت علياً على ما عقد له رسول الله
ﷺ من الولاء^(٦) ، وعلى حبه المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ، وعاديتك

(١) جمع القوة قوى ، وإنما قالت قواء بالمد للضرر .

(٢) أى مبغضه . (٣) صبح الأعشى ١ : ٢٦١ بلاغات النساء ص ٧٨

(٤) الحجون : جبل بمكة .

(٥) الطلبة : الطلاب .

(٦) تشير إلى قوله : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه .

على سفكك الدماء ، وشقك العصا ، وجورك في القضاء ، وحكك بالهوى .
 قال : فلذلك انتفخ بطنك ، وعظم ثدياك ، ورتبت عجزتك ، قالت :
 يا هذا بهند ^(١) ، والله كان يضرب المثل في ذلك لأبي ، قال معاوية : يا هذه
 اربعي ^(٢) ، فإننا لم نقل إلا خيراً ، إنه إذا انتفخ بطن المرأة ثم خلق ولدها ،
 وإذا عظم ثدياها تروى ^(٣) رضيماً وإذا عظمت عجزتها رزن مجاسها ،
 فرجعت وسكنت ، فقال : يا هذه هل رأيت علياً ؟ قالت : إى والله لقد رأيته ،
 قال : فكيف رأيته ؟ قالت : رأيته والله لم يفتنه الملك الذى فتتك ، ولم تشغله
 النعمة التى شغلتك ، قال : فهل سمعت كلامه ؟ قالت : نعم والله فكان يحسب
 القلوب من العسى ، كما يحسب الزيت الطست من الصدا ، قال : صدقت . فهل
 لك من حاجة ؟ قالت . أو تفعل إذا سألتك ؟ قال : نعم ، قالت : تعطينى مائة ناقة
 حمراء فيها خلها وراعيها ، قال : تصنعين بها ماذا ؟ قالت : أعزو بألبانها الصغار
 وأستحيى بها الكبار ، وأكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر ، قال : فإن
 أعطيتك ذلك ؛ فهل أحل عندك محل علي بن أبي طالب ؟ قالت : مانع ولا كصداء ^(٤)

(١) هى أمه هند بنت عتبة . (٢) ربيع : وقف وانتظر وتحبس .

(٣) ارتوى .

(٤) صداء : عين لم يكن عندهم ماء أعذب من ماشا . ويروى عن ابنة هاتى
 ابن قبيصة : أنه لما قتل لقيط بن زرار (من دارم) تزوجها رجل من أهلها ،
 فكان لا يزال يراها تذكر لقيطاً ، فقال لها ذات مرة : ما استحسنت من لقيط ؟
 قالت : كل أموره حسن ، ولكنى أحذرك أنه خرج إلى الصيد مرة ، وقد ابتنى بي
 فرجع إلىى وبقميصه نضح من دماء صيد ، والمسك يضح من أعطافه ، ورائحة
 الشراب من فيه ، فضمنى ضمة ، وشمنى شمة . فليتنى مت ثمة .

فقبل زوجها مثل ذلك ، ثم ضمها وقال لها : أين أنا من لقيط ؟ قالت :
 ماء ولا كصداء .

ومرعى ولا كالسعدان^(١) ، وفقى ولا كالك ، سبحانه الله أو دونه ؛
فأنشأ يقول :

إذا لم أعد بالحلم منى عليكم فمن ذا الذى بهدى يؤمل للحلم
مخذيها هنيئاً ، واذكري فعل ما جد جزاك على حرب العداوة بالسلم
ثم قال : أما والله لو كان على شياً ما أعطاك منها شيئاً ، قالت : لا
ولا وبرة واحدة من مال المسلمين^(٢) .

(١) السعدان : نبت ذو شوك ، وهو من أفضل مراعى الإبل ، ولا تخسب
على نبت حسنها عليه ، وأول من قال ذلك الخنساء بنت عمرو بن الشريد ، وذلك
أنها أقبلت من الموسم ؛ فوجدت الناس مجتمعين على هند بنت عتبة بن ربيعة ؛
ففرجت عنها وهى تنشدهم مراثى فى أهل بيتها ؛ فلما دنت منها قالت : على من
تبيكين ؟ قالت : أبكى سادة مضوا ؛ قالت : فأنشدينى بعض ما قلت ؛ فأنشدتها ،
فقالت الخنساء : مرعى ولا كالسعدان ، ثم أنشدتها ما رثت به أخاها صخرأ ،
وقيل إن المثل لامرأة من طيء .

[(٢) العقد الفريد ١ : ١٣٢ وصبح الأعشى ١ : ٢٥٩ وبلاغات النساء ص ٦٧]

الأدبيات في العصر العباسي والأندلسي

الأدب العربي في ذلك العصر خصب إلى أبعد حدود الخصوبة ؛ ولقد بلغ الأدب شأواً عظيماً ، ومكانة عالية لم يحلم بها من قبل ، ويرجع السبب في ذلك - كما أسلفنا - إلى حب الخلفاء والولاة للأدب وبذلهم النفيس الأدباء والشعراء وهذا ما دفع الأدباء إلى أن يحسنوا إنتاجهم ويتقنوا أدبهم كي يفوزوا بالجوائز الثمينة فضلاً عما يحظون به من القربى للخلفاء والأمراء إذا صادف أدبهم قبولاً لديهم ، فظهر جيل عظيم من الأدباء الأفاضل ، كابن الزيات ، وابن المقفع ، والجاحظ ، وعمرو بن مسعدة ، والمأمون وغيرهم ، وفي الأندلس أبو عامر بن شهيد ، وابن زيدون ، وابن جنيتر ، وابن عبد ربّه وغيرهم ، وقد نبغ في هذه العترة من النساء أدبيات شهد لهن التاريخ بالقدرة الماثقة في الأدب ، وكن أمثلة تحتذى في الأدب والنقد ، يتلأعن بالفصاحة ويتصرفن في فنون القول وينقاد لهن عصي المعنى وليدأ جديداً في البيان واللسان والجمال والحسن والإبداع والتصوير والروعة والاتلاقة والجرس الموسيقي ، ومن هؤلاء : أم جعفر وقد كانت أديبة ناقدة ، وذات ذوق مرهف في قول الأدب ونقده .

يقول صاحب كتاب الأغاني :

لما جلس الأمين في الخلافة أنشده أبو العتاهية :

يا ابن هم النبي خير البرية إنما أنت رحمة للرعية
يا إمام الهدى الأمين المصطفى بلباب الخلافة الهاشمية
لك نفس أمارة لك بالخير وكف بالمكرمات نديه
إن نفساً تحملت منك ما حملت للمسلمين نفس قوية

ثم خرج إلى دار أم جعفر فقالت له أنشدني ما أنشدت أمير المؤمنين
فأنشدها فقالت أين هذا من مدائحك في المهدي والرشيدي فغضب وقال : إنما
أنشدت أمير المؤمنين ما يستملح وأنا القائل فيه :

يا عمود الإسلام خير عمود والذي صيغ من حياء وجود
والذي فيه ما يسلى ذوى أحزان عن كل هالك منقود
والأمين المذهب الهاشمي القرم محض الآباء محض الجدود
إن يوماً أراك فيه ليوم طلعت شمس به شمس السعود

فقالت له : الآن وفيت المديح حقه وأمرت له بعشرة آلاف درهم^(١)
وكما كانت أم جعفر أديبة ناهدة كانت عليّة بنت المهدي كذلك فقد قال عنها
الحصري : وكانت عليّة تعدل بكثير من أفاضل الرجال في فضل العقل وحسن
المقال لها نثر رائع وغناء رائع وشعر ذائع^(٢) .

(١) الأغاني ٢٠ ص ١١ .

(٢) كانت أمها مكنونة ، المغنية ، أنضر جوارى المدينة وجهاً ، وأسميها
منظراً وقد اشتراها المهدي في حياة أبيه المنصور (٧٧٥ — ٧٨٥ م) بمائة ألف
درهم . وقد وهبها من قلبه أكثر من هذا المال وشغف بها . وكان قد أخفى أمرها
حتى وفاة المنصور ، فولدت له « عليّة » .

فنانة ومتعبدة :

نشأت « عليّة » أميرة تستقبل خلافة بعد خلافة . فن خلافة الأب والجد ،
إلى خلافة الأخ وابن الأخ . فشبت زهرة يانعة مدللة ، بين مقاصير الذهب وبسط
الحرير . وثقت بما هو جدير بأمثالها . تقول الشعر الجميل ، وتصوغه لحناً أجمل ،
وتؤديه بأعذب صوت وأبرع أداء . ولها إلى جانب ذلك ملاحاة طبع ، وإيناس
روح ، وجمال دعابة .

ثم فضل الأدبية الشاعرة ، فلقد كانت على بعد مرامها في الشعر بعيدة
العاية في النثر ، وبما قاله إبراهيم بن المهدي فيها : كانت فضل الشاعرة من أحسن
خلق الله خطاباً وأفصحهم كلاماً ، وأبلغهم في مخاطبة ، وأثبتهم في محاوره ،

= وقد جمعت « عليّة » بين شخصية الفنانة البارعة ، وصفات المتعبدة المصلية .
فما تكاد تنال نصيبها من الغناء ، حتى تنصرف إلى تلاوة القرآن وقراءة الكتب
وإنك لتعجب إذا علمت أن هذه الموهظة الجميلة القصيرة قد صدرت عن هذه
الموسيقارة الشاعرة المبدعة حيث قالت : « ما حرم الله شيئاً إلا وقد جعل منه
عوضاً ، فبأى شيء يحتاج عاصيه والمتنكح لحرمانه ، . وكان إيمانها بطهارة تاريخها
ينطفئ بهذا الاعتزاز والفخر إذ تقول : « لا غفر الله لي فاحشة ارتكبتها قط » .

عائية وأخوها إبراهيم :

وقد كتب التاريخ الكثير عن أنباء أخيها إبراهيم بن المهدي ومكافته من
الغناء ، تلك المسكاة التي سامى بها إسحق وأباه إبراهيم الموصلي ، وما كان له من
براعة الابتداع والإشياء في هذا الفن . وما نحن أولاء نرى المؤرخين يقيمون
« عليّة » على أخيها فيقولون : « ما اجتمع في الإسلام أخ وأخت أحسن غناء من
إبراهيم بن المهدي وأخته عليّة ، وكانت تقدم عليه ، . وإنما غلبت شهرة إبراهيم
عليها ، لأنه كان أكثر ظهوراً في المجلس والمناظرات ، ويستطيع التنقل في حرية
وانطلاق ، بينما هي محصورة لا تفتى إلا حين يطلب إليها الخليفة . وهي كثيرة التعبد ،
غنية عن الشهرة ، وليست بحاجة إلى أن يعرف الناس عنها تلك المسكاة في الغناء .

غنى « البنان » المغنى المشهور لحناً بديعاً في حضرة المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢ م)
فابتسم أحد أقطاب الفن من شهدوا ذلك المجلس . وسأل المعتصم عن بواعث ابتسامه
فأجاب : إن سبب اجتماع الشرف من ثلاث جهات على هذا الشعر : في قائله وملحنه
ومستمعه ، أما قائله فالرشيد ، وأما ملحنه فعليه ، وأما مستمعه فأنت يا أمير
المؤمنين . وهذه القصة القصيرة تضع أيدينا على المستوى الذي ارتفعت إليه
الموسيقى في ذلك العصر الزاهر ، وتقننا عند مكاة عليّة الأدبية وصيتها الأدبي الذائع =

ومنهن نزهون الغرناطية فلقـد كانت أدبية فضلا عن كونها شاعرة رقيقة ، وكانت سريعة الحاضرة ، حلوة النادرة .

ومن نوادرها أن ابن قزمان الشاعر جاء لينظرها ، وكان يلبس غفارة صفراء على زى الفقهاء ، فلما رآته قالت إنك اليوم كبقرة بنى إسرائيل صفراء فاقع لونها ، ولكن لا تسر الناظرين ، فضحك الحضور ، وثاد ابن قزمان واندفع يسب ، وتدافع القوم عليه حتى طرحوه في بركة أمام البستان الذى احتفل المجلس به ، وحديث الأدب فى هذا العصر حديث شيق ، وإذا قلت لك إن هناك أستاذات من النساء كن يدارسن بنات الأسر الشريفة ، ويروين الشعر فلا تظن هؤلاء على قدر محدود فيما أخذن فيه من درس وتحصيل ، ولكنهن كن مع أعلام هذا العصر وأقدار رجاله على سواء واحد من العلم والأدب والفهم والتخريج^(١) . وأول أستاذة للأدب فى هذا العصر ولادة بنت المستكفي ، فلقد كان قصرها مهبطاً رحباً ، ومنتدى خصيباً يأوى إليه كل مبدع منقطع النظر من الكتاب والأدباء ، ومن هؤلاء الوزراء والأمراء والعلماء والقضاة والولاة ، فيتجاذبون الأدب ، ويتناولون النقد ، وولادة بمثابة الحكم الذى يقف الأدباء عند حكمه ، ويخضع الشعراء ، لوجهة نظره ورأيه .

وقد عاشت عليّة فى صون حجابها ، على معهود عصرها ، مغنية عازفة شاعرة ملحنة مبتكرة ، معلّمة متعلّمة . كما عاشت ناسكة فى صومعةٍ قنّها ، وخلوة عبادتها . فقد صامت وحجّت ورتلت القرآن ، ثم قالت الشعر الرقيق السهل الممتنع ، وأرسلت الغناء الساحر الذى إن لم نسمعه ، فقد سمعنا عنه ما يكفى .

وقضت «عليّة» سنة عشر ومائتين من الهجرة (٥٢٨ م) ، ولم تتجاوز الخمسين ربيعاً ... حياة كلها صبا وشباب ، عاصرت فيها الرشيد وقاطعت بعده الغناء ودواعيه حزناً عليه ، ثم ألح عليها الأمين فى خلافته فتسكّفت ، وبعد أن قتل الأمين وانتصر المأمون ، عادت أيضاً إلى الغناء فى قلة ، حتى ماتت بين يديه ، وصلى عليها بنفسه . (انظر مجلة «دائرة المعرفة» - مؤسسة الأهرام) .

(١) المرأة العربية ج ٣ : ١٣٦

طبيعة أدب المولدين

إن الأدب الذي ساد هذه الحقبة يسمى الأدب المولد لأن معظم الأدباء في تلك الفترة كانوا مولدين ، أو يدعونهم بالأدب المحدث أى أنه حدث ووجد بعد العصر الجاهلي ، وعصر صدر الإسلام وبنى أمية .

فالأدب بهذا المعنى صار مولداً محدثاً أى لم يكن عربياً خالصاً في معانيه وأساليبه فقد أصبح المعنى دقيقاً ، والأسلوب جميلاً والخيال رائعاً خلافاً ، إذ أن هذا الأدب وليد حضارة عظيمة تعتمد على ثقافة علمية وأدبية لقحت العقل العربي ، ووسعت آفاق المتأدبين بما تعج به من خيالات بارعة ، وتصورات بديعة ، هذا إلى ما جادت به طبيعة بلادهم من مناظر ذات بهجة ، وجنان ذات بهاء ورواء فأضفت على أسلوب أدباء بغداد وقرطبة رقة وسحرًا وجمالاً ، وقد تلفت أدباء قرطبة وبغداد فوجدوا منافع على بعد قرارها أجرى من السلسال وأصفي من الزلال ، ولذلك جروا في ميدانه ، وطاروا في سمائه إلى مدى بعيد ، أنتج ألواناً مبدعة في الأدب والشعر ما جاء فتنة للناظرين كما نلاحظ (١) أن الأدب في هذه الفترة صار أدباً مرن الأسلوب .

ونظرة واحدة نلقها على هذا التراث الأدبي نرى أن البيئة العباسية هي التي أعطت اللغة العربية مرونة الأساليب ، وأداء المعاني الدقيقة وهي التي وضعت نماذج التعبير العباسي البليغ فقد كانت تنفي الألفاظ المنوعرة الوحشية عن كلامها كما كانت تنفي الساقط السوقي فاختارت بذلك لغة متوسطة تقوم على الألفاظ الرشيقة ذات المخارج السهلة ، كما تقوم على ضرب من التلاؤم الموسيقي يكسو الكلام كسوة الازدواج والترادف الصوتي البديع .

(١) الأدب العربي في العصر العباسي : ٥٤ د / محمد بدر

وكان كبار الأدباء في القرن الثاني للهجرة يتخذون هذا الأسلوب الوسط لإمامهم ومثلهم ، وهو أسلوب كان يوازن موازنة دقيقة بين طرافة المعاني وإثارة الجمال في نفس القارئ والسامع ولكن بدون كد ومجاهدة ، فهم لا يبالغون في تكلفهم ولا يستدعون الألفاظ من بعيد (١) .

ونلاحظ أن أدب المرأة في هذه الفترة كان يميل أحياناً إلى السجع وتارة إلى الازدواج والموازنة ، وللتوازن طلاوة ورونق ، وسببه الاعتدال لأنه مطلوب في جميع الأشياء ، وإن كانت مقاطع الكلام معتدلة ، وقعت من النفس موقع الاستحسان (٢) .

ويظهر لنا من مطالعة ما جادت به أقلام الأدبيات في ذلك العهد أن التوازن كان الطابع لنثر ذلك العهد ، ولا يعني ذلك أننا لا نجد فيه شيئاً من السجع أو البديع فيه . واسكنهما لم يكونا منهجاً عاماً يتقيد به الأدباء ، وذلك ما نلاحظه في كلام ونثر المحدثين ، كما نشاهده في مثل المحاورة التي جرت بين الرشيد وأم جعفر ، فأحياناً نجد فيها سجعاً ، وتارة أخرى نجد ازدواجاً وتوازناً ، وهذا ما يعنيه قول ابن أبي الأصم .

« ولا تجعل كلامك كله مبنيّاً على السجع فتظهر عليه الكلفة ، وتبين فيه أثر المشقة ، ويتكلف لأجل السجع ارتكاب المعنى الساقط واللفظ النازل ، وربما استدعيت كلمة للقطع ، رغبة في السجع . فجاءت نافرة من أخواتها ، قلقة في مكانها ، بل اصرف كل النظر إلى تجويد الألفاظ ، وصحة المعاني ، واجهد في تقويم المباني ، فإن جاء الكلام عفواً من غير قصد وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان ، وإن عز ذلك فتركه وإن اختلفت أبعاده ، (٣) .

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ١٣٣ .

(٢) المثل السائر : ١٦٩ .

(٣) صبيح الأعشى ٢ : ٢٣٦ .

وهذا ما جرى عليه المحدثون ، وسارت على ضوئه الأدبيات المحدثات ،
وحديث الأدب النسوى فى هذه الفترة حديث شيق أليف ، وخصوصاً إذا
تكلمنا عن أستاذات الأدب والشعر فى هذه الفترة كعالية ، والعباسة ، وأسماة ،
ولبابة بنات المهدي ، وفاطمة أم جعفر والأديبة العروضية إحدى فتيات
« بالمسيه » فقد فاقت علماء عصرها ، وكانت تحفظ كتاب الكامل للمبرد
والأما إلى للقالى وتشرحهما شرحاً مبيناً ، ولقد يمتد بنا الطريق إذا استوفينا
رسائل تمثل حب الأدب بباقات من روضه .

نماذج للنثر النسائي في هذا العصر

(وصية السيدة زبيدة لعلي بن عيسى بن ماهان) : نعى الشر بين الأخوين (الأمين والمأمون) واستطار شرره وبعث الأمين جيشاً كثيفاً بقيادة علي بن عيسى ابن ماهان لحرب المأمون، وأعد المأمون للقائه جيشاً بقيادة طاهر بن الحسين؛ فلما أراد علي الشخوص إلى خراسان، ركب إلى باب السيدة زبيدة والدة الأمين فودعها فقالت : « يا علي ، إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي ، إليه تناهت شفقتي وعليه تكامل حذري ، فإني على عبد الله بمنعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، وإنما ابني ملك نافس أخاه في سلطانه وغاراه على ما في يده ، والكريم يؤكل لحمه ، ويميته غيره ، فاعرف لعبد الله حق والده ، واخوته ، ولا تجهجه (١) بالكلام ، فإنك لست نظيره ، ولا تقتسره اقتسار (٢) العبيد ، ولا ترهنه (٣) بقيد ولا غل ، ولا تمنع منه جارية ولا خادماً ، ولا تعنف عليه في السير ولا تساوره في المسير ، ولا تركب قبله ، ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شتمك فاحتمل منه ، وإن سفه عليك فلا تراده .

ثم دفعت إليه قيداً من فضة ، وقالت : إن صار في يدك فقيد بهذا القيد ؛ فقال لها : سأقبل أمرك وأعمل في ذلك طاعتك .

وهي وصية عظيمة من امرأة عظيمة ملئت عطفاً وحباً على أبنائها لذا تراها في وصيتها صادقة العاطفة ، ولسانها حلاوة الطبع ، وجمال الوقع وحسن اللفظ وقرب المعنى والبعد عن الاستكراه والتوفيق في الأداء ، إلى

(١) تجهجه بالكلام : أن تلقاه بما يكره (٢) قسره واقتسره : قهره

(٣) لا ترهنه أي لا تضعفه : والغل : القيد

ما فيه من بلاغة الإيجاز فقد ذكرته بحق الأبوة والأخوة وأن يتلطف في معاملته ولا يقسو عليه بقيد أو غل ولا يركب قبله ، ولا يستقل دابته حتى يأخذ بركابه ويحتفى به ، ثم أعطته درساً في الصبر وقوة الاحتمال « إن شتمك فاحتمل منه وإن سفه عليك فلا ترده » .

وقد وفقت زبيدة في أداء المعنى ، وكانت حساسة جداً في استخدام الألفاظ ورسمت الطريق الأمثل في معاملة الأخوة إذا حاربهم أمر أو جد بينهم مكروه ونسوق نماذج أخرى تمثل قدساً لأدبيات هذا العصر .

إن من البيان لسحراً

كانت أم جعفر بن يحيى - وهى فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطية أرضعت الرشيد مع جعفر - لأنه كان ربي في حجرها ، وغذى برسائها ، لأن أمه ماتت عن صغره ، فكان الرشيد يشاورها مظهرأ لإكرامها ، والتبرك برأيها . وكان آلى وهو فى كفالتها أن لا يحجبها ، ولا استشفعته لأحد إلا شفعتها ، وآلت أم جعفر أن لا دخلت عليه إلا مأذوناً لها ، ولا شفعت لأحد مقترفاً ذنباً ، قال سهل بن هارون : فكتم أسير فكتم ، ومهم عنده فرجت ، ومستغلق فتحت .

ولما فتك الرشيد بابنها جعفر ، وقذف بزوجها وبقية أسرتها فى غياهب السجن بعد إيقاعه بالبرامكة - طلبت الإذن عليه فى دار البانوقة ، ومثت بوسائلها إليه فلم يأذن لها ، ولا أمر بشيء فيها ، فلما طال ذلك بها خرجت كاشفة وجهها واضعة لثامها ، محتففة فى مشيها ، حتى صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب فقال : ظئر أمير المؤمنين بالباب فى حالة تقلب شمانة الحاسد إلى شفقة أم الواحد . فقال الرشيد : ويحك يا عبد الملك أو ساعية ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، وحافية ! قال : أدخلها يا عبد الملك ،

فرب كبد غزنتها ، وكربة فرجتها ، وعودة سترتها ، قال سهل :
فما شككت يومئذ في النجاة بطلائها ، وإسعافها بحاجتها ، فدخلت ، فلما نظر
الرشيد إليها داخلة محتفية قام محتفياً حتى تلقاها بين عمد المجلس ، وأكب على
تقبيل رأسها ، ومواضع ثدييها ثم أجلسها معه فقالت : يا أمير المؤمنين ! أيعدو
علينا الزمان ، ويجفونا خوفاً لك الأعوان ويحردك بنا البهتان ، وقد ريبتك في
حجري ، وأخذت برضائك الأمان من عدوى ودهرى ؟ فقال لها : وما ذلك
يا أم الرشيد ؟ قال سهل : فأيسنى من رأفته تركه لـكنيتها آخر ما أطمعنى
من بره بها أولاً ، قالت : ظنرك يحى وأبوك بعد أبيك ، ولا أصفه بأكثر
مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته وإشفاقه عليه ، وتعرضه للحتف في
شأن موسى أخيه ، قال لها : يا أم الرشيد أمر سبق وقضاء محم ، وغضب من
الله نفذ ، قالت : يا أمير المؤمنين يحو الله ما يشاء ويشبث وعنده أم الكتاب .
قال صدقت ! فهذا مما لم يحجه الله ، فقالت : الغيب محجوب عن النبيين فكيف
عنك يا أمير المؤمنين ؟ قال سهل : فأطرق الرشيد ملياً ثم قال :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفـع

فقالت بغير روية : ما أنا إيهي بتميمة يا أمير المؤمنين وقد قال الأول :
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله
يحب المحسنين فأطرق هارون ملياً ، ثم قال يا أم الرشيد أقول :

إذا انصرفت نفسى عن الشيء لم تكـد
إليه بوجه آخر الدهر تقبل

فقالت يا أمير المؤمنين وأنا أقول :

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعنى يمينك فانظرى أى كف تبدل

قال هرون : رضيت ، قالت فبه لي ، فقد قال رسول الله ﷺ : (من ترك شيئاً لله لم يوجده الله فقهه) . فأكب هرون ملياً ، ثم رفع رأسه يقول : الله الأمر من قبل ومن بعد . قالت يا أمير المؤمنين : « يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء » وهو العزيز الرحيم ، واذكر يا أمير المؤمنين أليتك « ما استشفعت إلا شفعتي » ، قال : واذكري يا أم الرشيد أليتك « أن لا شفعت لمقترف ذنباً » ، قال سهل : فلما دأته صرح بمنعها ، ولاذع طلبها ، أخرجت حقاً من زمردة خضراء فوضعت بين يديها . قال الرشيد : ما هذا ؟ ففتحت عنه قملاً من ذهب فأخرجت منه ذوائبه وثناياه قد غمست جميع ذلك في المسك ، فقالت يا أمير المؤمنين استشفع إليك ، وأستعين بالله عليك ، وبما صار معي من كريم جسدك ، وطيب جوارحك ، ليحيى عبدك فأخذ هارون ذلك فلقمه ثم استعبر وبكى بكاءً شديداً ، وبكى أهل المجلس ، ومر البشير إلى يحيى وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له ، ورجوع عنه . فلما أفاق رمى جميع ذلك في الحق وقال لها : لحسن ما حفظت الوديعة ، قالت : وأهل الكفاة أنت . فسكت وأقبل الحق ودفعه إليها وقال : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » . قالت والله يقول : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » . ويقول : « وأوفوا بعهدي الله إذا عاهدتم » . ثم قال : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قالت : ما أقسمت لي به أن لا تهجنيني ولا تمتهنني . قال : يا أم الرشيد أتشرية محكمة فيه ؟ قالت : أنصفت ، وقد فعلت خير مستقبلة لك ، ولا راجعة عنك . قال : بكم ؟ قالت : برضاك عن لا يسخطك قال : يا أم الرشيد أما لي عليك من الحق مثل الذي لهم ؟ قالت : بلى ! أنت أعز عليّ وهم أحب إليّ . قال : فتعكمي في ثمنه بغيرهم . قالت : بلى قد وهبتك وجعلتك في حل منه وقامت عنه ، وبقي مبهوتا ما يحير لفظة . قال سهل : وخرجت فلم تعد ولا والله ما رأيت لها عبرة ، ولا سمعت لها أنثى .

هذى صورة من عاطفة الأمومة الجياشة الصادقة في ودها وعطفها وقد جاءت هذه المحاورة دون تكلف أو تصنع في عبارات مليئة بالحذب والحنان وهي تصور قلب الواله الثا كل حين تأخذها على أبنائها الشفقة بهم والخوف عليهم ، من جراه مسئولية شاقه ألقيت عليه ، أو حمل ثقل ناء به كاهله في حالة حزينة بأئسه تقلاب شماتة الحاسد إلى حنين الوالد ، وشفقة أم الواحد . والمحاورة لوحة فنية مؤثرة استخدمت فيها الأدبية أم جمع كل أدوات البلاغة المؤثرة لعلمها تنفذ بها إلى قلب الرشيد من استفهام يهز شغاف القلوب « أو يعدو علينا الزمان ، ويجفون خوفاً لك الأعوان ويجردك^(١) بنا البهتان ، إلى اقتباسات واستشهاد بالقرآن الكريم : « يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، كما تسرى في جوانب المحاورة ، وبين ثناياها الاستعارات والكلمات والتشبيهات اللطيفة :

وإذا المنية أنشبت أطمارها ألقيت كل تيمة لا تنفع
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

وتظهر في المحاورة سمات الأدب في هذه الفترة من طابع ديني يسيطر على المحاورة والاستمالة بالقرآن الكريم اقتباساً وبالشعر العربي استشهاداً كما تبدو فيها السهولة البادية في وضوح مفرداتها وسلاسة تراكيبها مع جزالة في الأسلوب وقوة في الأداء ، ومن لسرى القول ورائعه ، وجيد القول وبلغه « بعد أولئك الذين ارتضعوا أطاويق البلاغة ، وارتشفوا رحيق البيان وغذوا بلبان الأدب وتوارثوا عن آباؤهم وأجدادهم ملكة أصيلة ، وذوقاً صحيحاً ، يجعلهم يتمسكون ناصية اللغة ويحتلون منها المسكان العلى والذروة الرفيعة ،^(٢) .

(١) يجردك أى يفضيك .

(٢) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول : ١٧٥ وانظر بلاغات النساء .

ألوان أخرى من أدب النساء

حدث الأصمعي قال : سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهي تقول :
والله إن شربك لاشتفاف ، وإن ضجعتك لانعجاف ، وإن شملتك لالفتاف
ولإنك لتشبع ليلة تضاف ، وتنام ليلة تخاف ، فقال لها : والله إنك لسكرواء
الساقين ، قعواء الفخذين مقاء الرفغين مفاضة الكشحين ، ضيفك جائع ،
وشرك شائع .

ولما قتل الفضل بن سهل دخل المأمون على أمه فوجدها تبكي فقال لها :
أنا ابنك مكانه ، فقالت إن ابنا ترك لي ابنا مثلك لجدير أن يبكي عليه .
وقال الأصمعي : دفعت في بعض تطوافي إلى امرأة من ولد ابن هرمة (١)
فسألتها القري ، فقالت : إني والله ممرملة ممسنته ما عندي شيء ، فقالت :
أما عندك جزور ؟ فقالت : والله ولا شاة ، ولا دجاجة ، ولا بيضة ، فقالت
أما ابن هرمة أبوك ؟ فقالت : بلى والله ، إني لمن صميمهم ، قلت : قاتل الله
أباك ! ما كان أكذبه حيث يقول :

لا أمتع العوذ بالفصال ولا أبتاع إلا قرية الأجل (٢)
إني إذا ما البخیل آمنها باتت ضموراً مني على وجل
ووليت فنادت : اربع أيها الراكب ، ففعله والله ذلك أقله عندنا (٣) ،
فقلت : إلا تكوني أوسعتنا قري فقد أوسعتنا جواباً .

(١) أحد الشعراء الأجواد الفرسان .

(٢) العوذ من النياق الحديثات النتاج يقول إنه لا يبقها حتى يعظم فصيلها
وكلا شطري البيت كناية عن تسكرمه بذبح الإبل فلا يبقى منها شيئاً .

(٣) تقول هذا التسكرم أقل ما عنده من الطعام .

وحدث ابن السراج قال : أخبرني بعض الإخوان أن بعض البصريين أخبره قال : كنا لَمَّةً تجتمع ولا يفارق بعضها بعضاً ، فخرجنا من المقام في المنازل . فقال بعضها : لو عزمتم نخرجنا إلى بعض البساتين ؛ فخرجنا إلى بستان قريب منا ، فبينما نحن فيه إذ سمعنا ضجة راعتنا ، فقلت للبستاني : ما هذا ؟ فقال هؤلاء نسوة لمن قصة ، فقلت له أنا دون أصحابي : وما هي ؟ قال العيان أكبر من الخبر ، فقم حتى أريك وحدك ، فقلت لأصحابي أقسمت ألا يبرح أحد منكم حتى أعود ، فنهضت وحدي فصعدت إلى موضع أشرف عليهم وأراهن ولا يرغني ، فرأيت نسوة أربعاً كأحسن ما يكون من النساء وأشكهن ، ومعهن خدم لمن وأشياء قد أصلحت من طعام وشراب وآلة ، فلما اطمأن المجلس بهن جاء خادم لمن ومعه خمسة أجزاء من القرآن فدفع إلى كل واحدة منهن جزءاً ووضع الجزء الخامس بينهن فقرأن أحسن قراءة ، ثم أخذن الجزء الخامس فقرأت كل واحدة منهن ربع الجزء ، ثم أخرجن صورة معهن في ثوب ديبقى فبسطنها بينهن فبسكن عليهما ودعونا لها ثم أخذن في الودح فقالت الأولى :

خلس الزمان أعز مختلس	وبد الزمان كثيرة الخلس
لله هالكة فجعت بها	ما كان أبعدهما من الدنس
أتت البشارة والنعي بها	يا قرباً ماتهما من العرس

ثم قالت الثانية :

ذهب الزمان بأنس نفسي عنوة	وبقيت فرداً ليس لي من مؤنس
أودى بملك لو تفادى نفسها	لفديتها بمن أعز بأنفس
ظلمت تسكمني كلاماً ممطماً	لم أسـتـرب فيـه بشيء مؤنس
حتى إذا فتر اللسان وأصبحت	للدوت قد ذبلت ذبول النرجس

وتمسكت منها بحاسن وجهها وعلا الأنين تحننه بتنفس
جعل الرجاء مطامعي يأساً كما قطع الرجاء صحيفة المتلبس
ثم قالت الثالثة :

جرت على عهدها الليالي وأحدثت بعدها أمور
فاعتضت باليأس منك صبراً فاعتدل اليأس والسرور
فلمست أرجو ولست أخشى ما أحدثت بعدك الدهور
فليبلغ الدهر في مساتي فما عسى جهده يضير
ثم قالت الرابعة :

خدن نقيس من الدنيا فجمعت به أقضى إليه الردى في حومة القدر
ويج المنايا أما تنفك أسهمها معلقات بصدر القوس والوتر
يبلى الحديدان والأيام بالية والدهر يمشى وتبلى جدّة الحجر
ثم قن قن فغان بصوت واحد :

كننا من المساعدة نحيا بنفس واحدة
فأت نصف نفسى حين توى فى الرمس
فما بقائى بعده وشطر نفسى عنده
فهل سمعتم قبلى فيمن مضى بمثلى
عاش بنصف رُوح فى بدن صحيح

ثم تنهجن وقلن لبعض الخدم : كم عندك منهن ؟ قال : أربعة ، قلن :
أنت هن ، فلم ألبث إلا قليلاً حتى طلع بقفص فيه أربعة غربان مكتفات فوضع
القفص بين أيديهن فدعون بعيدان فأخذت كل واحدة منهن عوداً فخذت :

لعمري لقد صاح الغراب بينهم فأوحى قلبي بالحديث الذي يبدى
 فقلت له أفصحت لا طرد بعدها برش فهل للقلب ويحك من رد
 ثم أخذن واحداً من الغربان ففتفن ريشه حتى تركنه كأن لم يكن عليه
 ريش قط ، ثم ضربنه بقضبان معهن لا أدري ما هو حتى قتله ، ثم غنت :
 أشاقت والليل ملأني الجران غراب ينوح على غصن بان
 أحص الجناح شديد الصياح ييكي بعينين ما تهملان
 وفي نعبات الغراب اغتراب وفي البان بين بعيد التدان
 ثم أخذن الثاني فشددن في رجله خيطين وباعدن بينهما وجعان يقلن له :
 أتبكي بلا دمع وتفرق بين الآلاف أفن أحق بالقتل منك ؟ ثم فعلن به
 ما فعلن بصاحبه ، ثم غنت الثالثة :

ألا يا غراب البين لوك شاحب وأنت بلوعات الفراق جدير
 فبين لنا ما قلت إذ أنت واقع وبين لنا ما قلت حين تطير
 فإن بك حقاً ما تقول فأصبحت هومك شتى والجناح كسير
 ولا زلت مكسوراً عدياً لناصر كما ليس لي من ظالمى نصير
 ثم قالت له : أما الدعوة فقد استجيدت ، ثم كسرت جناحيه ، وأمرت
 ففعل به ذلك ، ثم غنت الرابعة :

عشية مالى حيلة غير أنى بلفظ الحصى والخط في الدار مولع
 أخط وأحور كل ما قد خططته بدمعى والغربان في الدار وقع
 ثم قالت لأخوانها : أى قتلة أقتله ؟ فقلن لها علقيه برجليه وشدى في رأسه
 شيئاً ثقيلاً حتى يموت ، ففعلت به ذلك ، ثم وضعت عيدانهم ودعون بالغذاء
 فأكلن ، ودعون بالشراب فشربن ، وجعلن كلما شربن قدحاً شربن للصورة مثله
 وأخذن عيدانهم فغنتين ، فغنت الأولى :

أبكى فراقكم عيني فأرقها إن المحب على الأحباب بكاءً
لا زال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا وريب الدهر عذاب
ثم غنت الثانية :

أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الأمر
لقد تركني أحسد الوحش أن أرى أليفين منها لا يروعهما الدهر
ثم غنت الثالثة :

سأبكي على ما فات منك صباية وأندب أيام الأمانى الذواهب
أحين دنا من كنت أرجو دنوه رمتني عيون الناس من كل جانب ؟
فأصبحت مرحوماً وكنت محسداً فصبراً على مكروه مر العرافب
ثم غنت الرابعة :

سأفنى بك الأيام حتى يسرنى بك الدهر أو تنفى حياتي مع الدهر
عزاء وصبراً أسعداني على الهوى وأحمد ما جربت عاقبة الصبر

ثم أخذت الصورة فعاينتها وبكت وبكين ثم شكوت إليها جميع ما كن فيه ،
ثم أمرت بالصورة فطويت ، ففرقت أن يتفرقن قبل أن أكلهن ، فرفعت
رأسي إليهن ، فقلت لقد ظلمتن الغريبان ، فقلن لو قضيت حق السلام وجعلته
سبباً للكلام لأخبرناك بقصة الغريبان ، قال فقلت إنما أخبرتكن بالحق ،
قلن وما الحق في هذا ؟ وكيف ظلمناهن ؟ قلت إن الشاعر يقول :

نعب الغراب برؤية الأحباب فلذلك صرت أحب كل غراب

قالت إحداهن صغفت وأحلت المعنى إنما قال : بفرقة الأحباب فلذلك
صرت عدو كل غراب ، فقلت لهن : فبالذي خصكن بهذا المجلس وبحق صاحبة
الصورة لما خبرتني بخبركن ؟ قلن لولا أنك أقسمت علينا بحق من يجب علينا

حقه ما أخبرناك ! كنا صواحب مجتمعات على الألفة ، لا تشرب منا واحدة
البارد دون صاحبها فاختُـرمت صاحبة الصورة من بيننا ، فنحن نصنع في كل
موضع نجتمع فيه مثل الذى رأيت ، وأقسمنا أن نقتل في كل يوم نجتمع فيه
ما وجدنا من الغربان لعله كانت ، قلت وما تلك العلة ؟ قلن فرق بينها وبين
أنس كان لها ففارقت الحياة فكانت تذهمن عندنا ونأمر بقتلهن ، فأقل ما لها
عندنا أن نتمثل ما أمرت به ، ولو كان فيك شيء من السواد لفعلنا بك فعلنا
بالغربان ، ثم نهضن فمضين ورجعت إلى أصحابي فأخبرتهم بما رأيت ، ثم طلبتهن
بعد ذلك فما وقعت لهن على خير ، ولا رأيت لهن أثراً .

* * *

وحدث التوزي عن عتبة الغلام قال : خرجت من البصرة والأبلة فإذا أنا
بخباه أعراب قد زرعوا ، وإذا أنا بخيمة ، وفي الخيمة جارية مجنونة عليها جبة
صوف لا تباع ولا تشتري ، فدنوت فسلمت فلم ترد علي السلام ، ثم وليت
فسمعتها تقول :

زهد الزاهدون والعابدون	إذ لمولاهم أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين القريحة فيه	ففضى ليلهم وهم ساهرونا
حسرتهم محبة الله حتى	علم الناس أن فبهم جنونا
هم ألبا ذوو عقول واسكن	قد شجاهم جميع ما يعرفونا

قال فدنوت إليها فقلت لمن الزرع ؟ فقالت : لنا إن سلم ، فتركها وأتيت
بعض الأخبية فأرخت السماء كأفواه القرب ، فقلت لا تينها فأنظر قصتها في هذا
المطر ، فإذا أنا بالزرع قد غرق وإذا هي قائمة نحوه وهى تقول : والذى أسكن
قلبي من طرف سحر بصفى محبة اشتياك لى قلبي ليوقن منك بالرضا ،
ثم التفتت إلى فقالت يا هذا إنه زرع فأنبتته ، وأقامه فسنبله وركبه ، وأرسل

عليه غيثاً فسقاه ، وطلع عليه لحظته ، فلما دنا حصاده أهله ، ثم رفعت رأسها نحو السماء فقالت : المباد عبادك وأدزاقهم عليك ، فاصنع ما شئت ، فقلت لها كيف صبرك ؟ فقالت : اسكت يا عتية :

إن إلهي أغنى حميد لي كل يوم منه رزق جديد
الحمد لله الذي لم يزل يفعل بي أكثر مما أريد
وحدث النوزي أيضاً قال :

رأيت امرأة عند قبرين وهي تقول : بأبي لم تمتك الدنيا من لذتها ، ولم تساعدك الأقدار على ما تهوى ، فأوفرتني كذا ، فصرت مطية للأحزان ، فليت شعري كيف وجدت مقيلك ، وماذا قلت وقيل لك ، ثم قالت : استودعتك من وهبك لي ثم سلبنى أسراً ما كنت بك . فقلت لها يا أمه ! ارضى بقضاء الله عز وجل وسلمي لأمره . فقالت : هاه ! نعم فجزاك الله خيراً ، لا حرمني الله أجرك ولا فتلني بفراقك . فقلت لها من هذا ! فقالت : ابني وهذه ابنة عمه ، كان مسمى بها زفت إليه ثم أخذها وجع أتى على نفسها فقصت وفاتصدع قلب ابني فلاحقت روحه روحها ، فدفنتهما في ساعة واحدة ، فقلت فن كتب هذا على القبرين ؟ قالت أنا ، قلت وكيف ؟ قالت : كان كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين لحفظهما لكثرة تلاوته لهما ، فقلت من أنت ؟ فقالت فزارية ، قلت ومن قائلهما ؟ قلت : كريم ابن كريم ، سخي ابن سخي ، شجاع ابن بطل ، قلت من ؟ قالت : مالك بن أسماء بن خارجة يقولهما في امرأته حبيبة بنت أبي جندب الأنصاري ، ثم قالت وهو الذي يقول (١) :

يا منزل الغيث بعد ما قنطوا وبأولى النعماء والمنا
يكون ما شئت أن يكون وما قدرت ألا يكون لم يكن

(١) أنظر بلاغات النساء والمرأة العربية ج ٣ : ١٢٦ .

يا جارة الحى كنت لى سكناً إذ ليس بعض الجيران بالسكن
أذكر من جارتى ومجالسها طرائفاً من حديثها الحسن
ومن حديث يزيدنى مقة ما لحديث المرموق من ثمن
قال فكنتبها ، ثم قامت مولية فقالت : شغلتنى عما إليه قصدت لتسكين
ما من من الأحران .

وحدث الأصمى قال :

سمعت رجلاً من تميم يقول : أضللت إبلاً فخرجت فى طلبهن ، فردن
بجارية أعشى نورها بصرى ، فقالت ما حاجتك ؟ قلت : لى لى أضللها ، فهل
عندك شىء من عليها ؟ قالت : أفلا أدلك على من عنده عليهن ؟ قلت بلى .
قالت الذى أعطا كهن هو الذى أخذهن ، فاطلبهن من طريق التيقن لا من
طريق الاختبار ، ثم تدهمت وتنفست الصعداء ، ثم بكى وأطالت البكاء
وأنشأت تقول :

لانى ولان عرضت أشياء تضحكنى	لموجع القلب مطوى على الحزن
إذا دجا الليل أحيا لى تذكره	والصبح يبعث أشجاناً على شجن
وكيف ترقد عين حمار مؤنسها	بين التراب وبين القبر والكفن
أبلى الثرى و تراب الأرض جنته	كان صورته الحسناء لم تسكن
أبكى عليه حيناً حين أذكره	حينين والهة حنت إلى وطن
أبكى على من حنت ظهري مصابته	وطير النوم عن عيني وأرقنى
والله لا أنس حبي الدهر ما سجت	حمامة أو بكى طير على فنن

فقلت عند ما رأيت جمالها ، وحسن وجهها ، وفصاحتها وشدة جزعها :
هل لك من لا تدم خلائقه وتؤمن بوائقه ؟ فأطرقت ملياً ، ثم أنشأت تقول :

كنا كخصنين في أصل غذاؤهما ماء الجداول في روضات جنات
 فاجتث خيرهما من جنب صاحبه دهر يكر بفرحات وترحات
 قد كان عاهدني إن خاني زمن ألا يضاجع أنثى بعد مشواتي
 وكنت عاهدته أيضاً فعاجله ريب المنون قريباً منذ سُنياتي
 فاصرف عناك عن ليس يردعه عن الوفاء خلاب في التحيات
 وحدث النوزي أيضاً عن بعض الكتاب قال : دخلت البصرة أنا وصديق لي
 فرأيت فتاة قد خرجت من بعض الدور كأنها فلقة قر . فقلت لصاحبي :
 لو ملت بنا إليها فاستسقيناهما ماء ! ففعل ، فقلنا لها ، جعلنا الله فداك ! استسقيناهما
 ماء ، فقالت : نعم وكرامة ، فدخلت وأخرجت كوز ماء وهي تقول :
 ألا حتى شخصي قاصدين أراهما أقاما فما إن يعرفا مبتغاهما
 هما استسقيتا ماء على غير ظمأ ليستمتعا بالاحظ بمن سقاها
 وحدث محمد بن سلام الجهمي يقول : سمعت رجلاً من بني سليم يقول :
 هويت امرأة من الحمى ، فكنت أتبعها إذا خرجت إلى المسجد ، فعرفت ذلك
 مني ، فقالت لي ذات ليلة : ألك حاجة ؟ قلت نعم ! قالت وما هي ؟ قلت
 مودتك ، قالت دع ذلك ليوم التغابن^(١) . قال فأبكتني والله فما عدت إليها
 بعد ذلك .

ومن حديث أخرى : أن رجلاً رأى أعرابية بمكان خال ، والليل منسدل
 الست فقال : أما من سبيل إليك ؟ فقالت : انظر هل يرانا من أحد ؟ قال
 ما يرانا إلا السكواكب ! قالت : وأين مكوكبها ؟ فهبت الرجل وانصرف
 ذاهلاً ما يتكلم .

(١) يوم التغابن : يوم القيامة ، سمي بذلك لأن أهل الجنة يغفون فيه أهل النار.

نثر الجوّارى

أثر عنهن قطع نثرية ممتازة تجارى أرق وأحسن ما عرف للنثر فى هذه الفترة من ضوابط فنية وحسن تعبير وجزالة وسلامة أسلوب وتدقيق فى المعانى ، وكانت ألفاظها نسمات أسرار فى أساليب لا تشبهها إلا قائلاتها فى خفة أرواحهن ، وصفاء أذواقهن .

ودار نثر الجوّارى بمجمله حول الترتل ، وأخذ صفة التوازن والازدواج وأحياناً نراه يميل إلى السجع الملتزم ، ولكنه يجمع مقبول ، أخذ صفاء البيئـة وحسن روايتها ، وبعضه قصير الفقرات ، وبعضه طويل غير مسرف فى الطول ، وموضوعاته تدور حول التعليقات على شعر نال إعجابهم أو العكس أو التعقيب على قول أو رأى سمعته أثناء انعقاد مجالس الأدب ، وممنهات الشعر أو فى مجالات أدبية أخرى كالتهنئة والاعتذار وغيرهما .

وفى شهادة سعيد بن حميد لبعض الجوّارى بالإجادة ، خير دليل وبرهان على ما بلغته الجوّارى من إتقان هذا الفن ، فقد قال لعبد الله بن المعتز — وقد ظن أن سعيد بن حميد يكتب الرقاع لفضل فتنسبها لنفسها — قال لابن المعتز : « ما أخيب ظنك ليّتها تسلم منى لأخذ كلامها ورسائلها ، والله يا أخى لو أخذ أفاضل الكتاب وأماثلهم عنها لمسا استغنوا عن ذلك^(١) » .

وكان الجوّارى يتأثرن بأساليب الكتّاب المشهورين فى هذه الفترة من ذلك ما لاحظته ابن المعتز من أن عريباً أخذت نحو سعيد بن حميد فى الكلام وسلكت مسلكه^(٢) .

(١) الأغانى ١٧/١٥ دار مكتبة الحياة — دار الفكر .

(٢) نفس المصدر

وما كانت الجوارى لتلتقى بالثر كتابة وتجبيراً ، بل عرف لبعضهن آراء نقدية ، ونظرات صادقة في نقد الكتابة والثر ، وسجل علماء الأدب لمن مواقف مشهورة نقدت فيها أحسن الأدباء والكتاب ، وأرحبهم باناً وفراعاً في هذا المضمار . فقد تسكلم ابن السهاك يرمأ وجارية له تسمع كلامه فلما دخل إليها ، قال لها : كيف سمعت كلامي ؟ قالت : ما أحسنه !! إلا أنك تسكثر ترداده اقال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه قالت : إلى أن يفهمه من لم يفهمه يكون قد مله من فهمه (١) .

وأدب عرب الجارية يقف مثالا حياً ورائماً على جودة نثر الجوارى وطول باعهم فيه ، فقد عتب المأمون على عرب ، فهجروا أياماً ثم اعتلت فعادها فقال لها : كيف وجدت طعم الهجر ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين لولا حلاوة الهجر ما عرفت حلالة الوصل ، ومن ذم بدء الغضب ، حمد عاقبة الرضا ، قال : نخرج المأمون إلى جلسائه فحدثهم بالقضية ثم قال : أترى هذا لو كان من كلام النظام ألم يكن كبيراً ؟ (٢) .

وفي هذا يتبين قدر ما بلغه نثر الجوارى من التقدير والإكبار ، ولا سيما من رجل يقدر الأدباء ويحل العلماء وهو المأمون .

وملاحظة أخرى أحب أن أضيقها كعلامة مميزة بين نثر الجوارى في البيئة البدوية ونثرهن في البيئة الحضرية ، فنثرهن في الأندلس مع ما بلغه من ظرف ورقة لم يبلغ نظيره الذي قيل في البيئة البدوية لأن هذا كان يغذيه طبع المرأة العربية في البادية ، ولكليهما منحى يستخف النفوس والأرواح ، فالمرأة العربية البدوية كانت كأفضل النساء صفاء في الطبع ، رنقاء في النفس ، وسمواً

(١) العقد الفريد والأندية الأدبية : ٢٥٩ .

(٢) الأفا ، ١٨ : ٣٤٤ مكتبة الحياة ببيروت .

في الخاطر ، وجلالا في الغرض وروعة في الأسلوب^(١) ، وكانت الجارية الأندلسية مثار الفتنة والسحر ، وأضفت فنونها وسحرها على درر أدبها لجاء مبهراً للعين ، ومستولياً على الوجدان ومسيطرأ على القلوب ، ولو أن المرأة العربية المتحضرة ، اهتمت برواية الشعر والأدب من منبعها الصافي البادية لانعكس أثر ذلك على أدبها ، كما أنها لو أخذت تراث البادية ، وصقلته على غرار الحضارة وغذته بماء ، النعيم لآتت بأطيب الثمرات^(٢) في نثرها وشعرها

نماذج لنثر الجوارى

كتبت عريب :

« بنفسي أنت وسمعى وبصرى ، وكل ذلك لك ، أصبح يرمنا هذا طيباً ، طيب الله عيشك قد احتجبت سماؤه ، ورق هواؤه ، وتكامل صغافؤه ، فكأنه أنت في رقة شمائلك ، وطيب محضرك ، لا فقدت ذلك منك ، سرى الله وحفظك »^(٣) .

ونلاحظ أن رسالة عريب نحت منحى الإيجاز واتخذت طريق الازدواج والتوازن في كتابتها شأن الكتابة في هذه الفترة ، وفي موسيقاها أثر من آثار البيئة الأندلسية التي أكتسبت الرسالة رقة وتهذيباً وجمالاً .

وكتبت ظريفة :

« جفوتنا من غير استحقاق للجفاء ، وملت إلى غير مذاهب الظرفاء ، وإنى لم أزل واثقة بإخائك ، راجية لحسن وفائك ، وتحقيق ظن مؤملك أولى بك من الوقوف على تجنبك »^(٤) .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(١) المرأة العربية ج ٣

(٣) الأندلسية الأدبية : ٢٥٩

(٤) الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس ص ٨٤

فهل هناك ألطف من هذه المعاقبة ، وأساس من هذا الكلام ، وأروع من هذا الأسلوب ، ويلاحظ أنها سالت نفس الطريقة التي سالتها صاحبها عريب ، إيجاز ، وقصر فقرات ، وظهر فيها التوازن والازدواج .

وقد بلغت السكابة غرضها دون تكلف ومعاناة في رسالة قصيرة بليغة عرضت فيها ، شكاتها وعائبت وأملت ووبخت ، فكان لها ما أرادت بالقول اللطيف والعبارة المهدبة ، والكلمة المعبرة ، والعاطفة الدافقة الفياضة (١) .

وكتبت عريب للسكاتب الكبير إبراهيم بن المدبر ، وقد بلغها أنه صام يوم عاشوراء :

« قبل الله صومك ، وتلقاه بتبليغك ما التمس ، كيف ترى نفسك نفسى فداؤك ، ولم كدرت جسمك في آب أخرجه الله عنك في عافية ، فإنه فظ غليظ وأنت محرور ، وإطعام عشرة مساكين أعظم لأجرك ، ولو علمت لصمت صومك مساعدة ، وكان الصواب في حسناتي دوني ، لأن نيتي في الصوم كاذبة (٢) .

وهي رسالة وجيزة بليغة ، وبلغ من بلاغتها أن ذكرت أمام الكتاب فقال وما يمنعها من ذلك وهي بذت جعفر بن يحيى (٣) .

والتوازن والازدواج صورة بارزة في الرسالة ، وجاءت في عبارات سهلة ، وألفاظ واضحة لا تكلف فيها ، ولا غموض ، ومعان سلسة سائغة ، ولكنها أضعف لغة وأدنى أسلوباً من مثيلاتها الجاريات البدويات كما بينا ذلك آنفاً .

(١) انظر الأندية الأدبية : ٢٦٠

(٢) الأغاني ١٥ : ٢٥٥ دار الفكر ببيروت

(٣) الأغاني ٨ : ١٧٨ (مطبعة ساس)

المتكلمة بالقرآن

وتقدم لنا كتب التراث العربى هذه الصورة الطريفة للسيدة المؤمنة التى آلت على نفسها ألا تتكلم إلا بالقرآن الكريم يرويها عبد الله بن المبارك^(١) على أنها واقعة حقيقية حدثت له بعد انتهائه من الحج والزيارة . فيقول :

« خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام فبينما أنا فى بعض الطريق إذ أنا بسواد ، فتميزت ذاك فإذا هى عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف .

فقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فقلت : سلام قولاً من رب رحيم .

فقلت لها : يرحمك الله ما تصنعين فى هذا المكان ؟

قالت : « من يضلل الله فلا هادى له » .

فعلبت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها : أين تريدين ؟

قالت : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد

الأقصى » .

فعلبت أنها قد قضت حجها وهى تريد بيت المقدس .

(١) عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلى بالولاء ، التيمى المروزي أبو عبد الرحمن الخافظ ، شيخ الإسلام ، المجاهد التاجر صاحب التصانيف والرحلات ، أفق عمره فى الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً ، وجمع الحديث والفقه ، والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء ، وهو من سكان خراسان ومات (بهيت) ، (على الفرات) منصرفاً من غزو الروم . له كتاب فى الجهاد وهو أول من صنف فيه ، والرقائق مخطوط ، توفي ١٨١ هـ ٧٩٧ م (انظر « الأعلام » للزركلى ، ود لغتنا الجميلة » لفاروق شوشة .

فقلت لها : أنت مذكم في هذا الموضع ؟

قالت : « ثلاث ليال سويا » .

فقلت : ما أرى معك طعاماً تأكلين ؟

قالت : « هو يطعمني ويسقين » .

فقلت : فبأى شيء تتوضئين ؟

قالت : « فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً » .

فقلت لها : إن معي طعاماً فهل لك في الأكل ؟

قالت : « ثم أنموا الصيام إلى الليل » .

فأدركت أنها صائمة فقلت لها : ليس هذا شهر رمضان !

قالت : « ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم » .

فقلت : قد أبيع لنا الإفطار في السفر .

قالت : « وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » .

ولما وجدت أنها لا تتكلم إلا بالقرآن الكريم قلت لها : لم لا تكلميني
لمسا أكلك ؟

فقلت : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

قلت : « فن أي الناس أنت ؟

قالت : « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل
أولئك كان عنه مسئولا » .

فقلت : قد أخطأت فاجعليني في حل .

قالت : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم » .

قلت : فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة ؟

قالت : « وما تفعلوا من خير بعلمه الله » ،
يقول عبد الله بن المبارك فأنخت ناقتي .
قالت : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » .
فغضضت بصرى عنها وقلت لها اركبي فلما أرادت أن تركب قفزت
الناقة فزقت ثيابها .
فقالت : « وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم » .
فقلت لها : اصبرى حتى أعقلها .
قالت : « ففهمناها سليمان » .
فعقلت الناقة وقلت لها : اركبي .
فلما ركبت قالت : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين
وإنا إلى ربنا لمنقلبون » .
فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح .
فقالت : « واقصد فى مشيك واغضض من صوتك » .
فجعلت أمشى رويداً رويداً وأثرنم بالشعر .
فقالت : « فافرموا ما تيسر من القرآن » .
فقلت لها : لقد أوتيت خيراً كثيراً .
قالت : « وما يذكر إلا أولو الآلئاب » .
فلما مشيت بها قليلاً قلت : ألك زوج ؟
قالت : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لسكم نسوكم » .
فسكت ولم أكلّمها حتى أدركت بها القافلة فقلت لها : هذه هي القافلة
فمن لك فيها ؟ .

فقالت : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .
فعلبت أن لها أولاداً ، فقلت : وما شأنهم في الحج ؟ .
قالت : « وعلامات وبنا لنجم هم يهتدون »
فعلبت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها القباب والعمارات فقلت : هذه
القباب فمن لك فيها ؟ .
قالت : « واتخذ الله إبراهيم خليلاً ، وكلم الله موسى تسليماً يا يحيى ،
خُذ الكتاب بقوة » فناديت : يا إبراهيم يا موسى يا يحيى ، فإذا أنا بشبان
كأنهم الأقمار قد أقبلوا ، فلما استقر بهم الجالوس قالت : .
« فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أذكى طعاماً فليأتكم
برزق منه » .

ففضى أحدهم فاشترى طعاماً ، فقدموه بين يدي .
فقالت : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية » .
فقلت : الآن طعامكم على حرام حتى تخبروني بأمرها .
فقالوا : هذه أمنا وإن لها أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن
تزل فيسخط عليها الرحمن . فسبحان القادر على ما يشاء .
فقلت : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم .

دراسة وتعقيب

وفي حديث المرأة الذي نقله لنا عبد الله بن المبارك يقدم لنا دليلاً
ملبوساً على نبوغ المرأة العربية وقوة عارضتها ، وبلاغة منطقتها ، ودقة تمثيلها
بالآيات الحكيمية ، والمثل القرآني .
فقد أرتنا سمو القرآن ، وعظمته الأدبية ، وقوته البيانية بما يزخر من

قوة التصوير ودقته وإحكامه ، فليس هناك تصوير أجمع لأطراف المعنى ،
وأشد مداخلة للإحساس وأبلغ إثارة للمشاعر من تصوير القرآن الكريم .
والمتكلمة بالقرآن ، ساقط لنا عن طريق عبد الله بن المبارك درراً غالية ،
ولآلىء ثمينة ، وأمثلة رائعة ، ولا تخفى على السامعين قيمة التأثير المثلّي ، وأثر
الآية الحكيمة في النفس وكيف يودعان في التعبير من الجمال والأسرار
ما يسمو بالمعنى ويصل إلى الغرض منه .

والأمثلة والحكم التي ساققتها المرأة المتكلمة بالقرآن كلها أمثلة غير
صريحة ، فقد جاءت أمثلة كامنة مطوية وهي تمثل الآيات القرآنية التي
لم يصرح فيها بلفظ المثل ، وإنما يفهم من معناها ما يدل على أنها تضاهي من
من الأمثلة المعروفة عند العرب^(١) .

فقد حوت القطعة النثرية صوراً نظيية من أمثلة القرآن : « ومن يضلل
الله فإله من هاد » ، « ولا تقف ما ليس لك به علم » ، « ما يلفظ من قول إلا لديه
رقيب عتيد » ، « واقصد في مشيك واغضض من صوتك » ، « وما يذكر
إلا أولوا الألباب » ، « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم
تسؤلكم » ، « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » ، « وعلامات وبالنجم
هم يهتدون »

وهذه من أمثلة القرآن الرائعة التي تمثل فيضاً من أسلوب القرآن المميز الذي
تحدى العرب وهم قد تسنموا ذروة البلاغة ، وبلغوا في النصاحة أوج السكال .
وقد حوى القرآن أمثلة كثيرة ، بحيث لا يكاد لا تجد في الغالب والكثير
مثلاً أو حكمة عند العرب أو العجم إلا ولهما نظيرهما في القرآن الكريم ،
وقد سئل أحد الحكماء :

(١) القرآن لإعجازه وبلاغته ، المطبعة النوذجية : ٤٨ دكتور عبد القادر حسين

إنكم ترحمون أن القرآن قد حوى أمثال العرب والعجم ، فهل تجد في كتاب الله (اتق شر من أحسنت إليه) فقال أجل ، وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ، قال : فهل تجد : (كما تدين تدان) ؟ قال في قوله تعالى : « من يعمل سوءاً يجز به » (النساء ١٢٣) .

قلت : فهل تجد فيه : (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) ؟
قال : « هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل » (يوسف ١٤) .
قلت : فهل تجد (من أحان ظالماً سلطاناً عليه) .
قال : « كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير » (الحج ٤) .

قلت : فهل تجد فيه قولهم : (لا تلد الحية إلا الحية) ؟
قال : « ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » (نوح ٢٧) .
قلت : فهل تجد في القرآن قولهم : (للحيطان آذان) ؟
قال : « وفيكم سماعون لهم » (التوبة ٤٧) .
ومن ذلك أيضاً قول علي رضي الله عنه (القتل أنفى للقتل) . وفي القرآن :
« ولستم في القصاص حياء » (البقرة ١٧٩) ومن ذلك قول العامة : (من حفر لأخيه بئراً وقع فيها) ، وفي القرآن : « ولا يحق المسكر أن يشرب ماء » (فاطر ٤٣) ، ومن ذلك (مصائب قوم عند قوم فوائد) وفي القرآن :
« وإن تصبكم سيئة ففرحوا بها » (آل عمران ١٢٠) (١) .

وهكذا نجد أن المرأة المشككة أهدت لنا باقة بلاغية وأمثلة عظيمة من القرآن الكريم .

وحبذا لو تمثل بذلك فتياتنا واقتبسن تعبيراتهن ومثلن من وحى القرآن ، واقتدين بأسلوبه الحكيم وآياته المعجزات .

(١) نفس المصدر السابق : ٤٩ .

حديث الجوارى الخمس اللاتي وصفن خيل آبائهن

قال القالى فى أماليه (١) :

حدثنا أبو بكر بن دريد قال : حدثنى عمى عن أبيه عن ابن السكبي عن أبيه قال : اجتمع خمس جوار من العرب ، فقلن : هل سمعن نعت خيل آبائنا .

فقلت الأولى : فرسُ أبى وردة ، وما وردة ؟ ذات كفل مُنرحلق ، ومتنٍ أخلق ، وجوف أخوق ، ونفس مروح ، وعين طروح ، ورجلٍ ضروح ، وبدٍ سبوح ، مبداهتها إهذاب ، وعقبها غلاب .

وقالت الثانية : فرس أبى اللعاب ، وما اللعاب ؟ غيبة سحاب ، واضطرام غاب ، مُترصُ الأوصال ، أشمُ القذال ، مُلاحك المحال ، فارسه مُجيد ، وصيده عتيد ، إن أقبل فظي معجاج ، وإن أدبر فظليم هذاج ، وإن أحضر فعيلج هرّاج .

وقالت الثالثة : فرس أبى مُحذمه ، وما مُحذمه ؟ إن أقبلت فقناة مُقوّمه ، وإن أدبرت فأنفسيّة مللمة ، وإن أعرضت فذبة مُعجّمة ، أرساغها مُترصه ، وفصوصها مُنصّه ، جريها انثرار ، وتقريبها انكدار .

وقالت الرابعة : فرس أبى خيفق ، وما خيفق ؟ ذات ناهق مُمعرق ، وشديق أشدق ، وأديم ملاق ، لها خائق أشدق ، ودسيع مُنفذنف ، وتليل مُسيف ، وثّابه زكوج . سخيفانة رهوج . تقريبها إهماج ، وحضرها ارتعاج .

وقالت الخامسة : فرس أبى هذلول ، وما هذلول ؟ طريدّه محبول ، وطالبّه مشكول ، رقيق الملاغم ، أمين المعاقم ، عبل المحزيم ، يخد مرنجم ،

(١) ارجع إلى المزهري : ٥٣٨ جزء أول .

مُثِيف الحَارِك ، أَشْمُ السَّنَايِك ، مَجْدُول الخِصَائِل ، سَبْطُ القَلَائِل ؛ غُوج التَّلِيل ، صَلَصال الصَّهِيل ، أَدِيمُه صَاف ، وَسَبِيهُه ضَاف ، وَعَفْوُه كَاف .

قال القالى : المُنْزَحَلِق : المَمْلَسُ والأَخْلَقُ : الأَمْلَسُ . وأَخْوَقُ : واسع . ومَرْوَحُ : كثيرة المَرِح . وطَرْوَحُ : بعيدة موقع النظر ، وضَرْوَحُ : دَفْوَع ؛ تريد أنها تَضْرَح الحِجَارَة بِرِجْلِهَا إِذَا عَدَّت . وسَبْوَحُ : كأنها تَسْبِجُ في عَدْوِهَا من سَرْعَتِهَا ، وبَدَاهَتِهَا : لَجَّاءَتِهَا ؛ والبِدَاهَةُ والبِدِيهة واحد . والإِهْذَابُ : السرعة . والعَقَبُ : جَرى بَعْد جَرى . وغَلَابُ : مصدر غَالِبَتْهُ ؛ كأنها تَغَالِبُ الجَرى .

والغَبِيَّةُ : الدَّفْعَةُ من المطر . والغَابُ : جَمْع غَابَةٍ ، وهى الأَجْمَةُ . ومَتَرَصٌ : مُحْكَم . وَأَشْمُ : مَرْتَفِع . والقَذَالُ : مَعْقَد العَذَار . ومُؤْلَاحِكُ : مُدْخَل ؛ كأنه دُخِلَ بَعْضُهُ في بَعْضٍ ، والمَحَالُ : جَمْع مَحَالَةٍ وهى فَقَار الظَّهِير . ومَجِيدُ : صَاحِبُ سَجَوَاد . وعَنِيدُ : حَاضِر ، ومَعَاجُ : مَسْرَع في السَّيْرِ . وَهَدَّاجُ : فَعَّال من الهَدْنَج وهو المَشْيُ الرَّوِيدُ ؛ وَيَكُونُ السَّرِيع . والعَلِيجُ : الحِمَارُ الغَلِيظُ ، وَهَرَّاجُ : كَثِيرُ الجَرى .

وَحُذْنَمَةٌ : فَتْلَةٌ من الحُذْمِ وهو السَّرعَةُ ، وَقِيلَ القَطْعُ . وَقَوْلُهَا قَنَاءٌ مَقْوُومَةٌ ، تريد أنها دَقِيقَةُ المَقْدَمِ ، وهو مَدْحٌ في الإِنَاثِ ، والإِنْفِيسِيَّةُ : وَاحِدَةُ الأَثَافِي . ومُملِلَةٌ : مَجْتَمِعَةٌ ؛ تريد أنها مَدْوَرَةٌ . وَقَوْلُهَا مَعْجَرَةٌ ؛ قال أبو بَكْرُ : العَجْرَمَةُ : وَثْبَةٌ كَوَثْبَةُ الظَّبْيِ وَلَا أَعْرِفُ عَنْ غَيْرِهِ في هَذَا الحَرْفِ تَفْسِيرًا . وَمَعْجَصَةٌ : قَلِيلَةُ اللَّحْمِ قَلِيلَةُ الشَّعْرِ . وَانْتِرَارُ : انْصِبَابُ .

وَحَيْفَقُ : فَيَعْلُ من الحَفَقِ وهو السَّرعَةُ والنَّاهِقَانُ : العِظَامَانُ الشَّاهِصَانِ في خَدَّيْ الفَرَسِ . ومُعْرَقُ : قَلِيلُ اللَّحْمِ ، وَأَشْدَقُ : وَاسِعُ الشَّدَقِ . وَمَعْلَقُ : مَلَأَ . والأَشْدَفُ : العَظِيمُ الشَّخْصُ ، والدَّسِيعُ : مَرْكَبُ العُنُقِ في الحَارِكِ . وَمَنْفَنَفُ : وَاسِعُ . والتَّلِيلُ : العُنُقُ . وَمَسِيْفُ : كَأَنَّهُ سَيْفٌ ، وَزَكُوجُ : سَرِيعَةٌ . والخَيْفَاةُ : الجَرَادَةُ الَّتِي فِيهَا نَقَطٌ سَوْدٌ تَخَالِفُ سَائِرَ لَوْنِهَا ، وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْفَرَسِ :

مخيفانة لسرعتها ، لأن الجرادة إذا ظهرت فيها تلك النقطة كان أسرع لطيرانها .
ورَهوج : كثيرة الرَّمَج ، وهو الغبار . والإهماج : المبالغة في العدو .
والارتعاج : كثرة البرق وتتابعه .

ومخبول : في حباله ، ومشكول : في أشكال والملاغم : الجحافل . والمماقم :
المفاصل . وعبل : غليظ والمخزم : موضع الحزام . ومخد : يخد الأرض ؛
أى يجعل فيها أخاديد أى شقوقاً ومترجم : يرمم الحجر بالحجر . ومنين :
مرتفع والحارك : منسج الفرس . والسنايك : أطراف الحوافر ، واحدها
سُنَيْك ومجدول : مفتول . والفليل : الشعر المجتمع ، والفوج : اللين
المعطف . والصصلة : صوت الحديد ، وكل صوت حاد ، والسبيب : شعر
الناصية ، وضاف : سابغ .

واعل هذا الطرف الذى قدمناه فى أدب الجوارى يدل على مدى ما كان امن
من مواهب أدبية خلاقة ، وأسهموا بإنتاجهم مساهمة كبيرة ظهر أثرها واضحا فى
الأدب العربى كله ، كما أثرن فى شخصيات الآخرين من رواد مجالسهن ، وأصحاب
الأندية ومجالس الأدب تأثيراً عظيماً برز فيما كان من هؤلاء من إنتاج أدبى رائع ،
ما كان ليصدر عنهم لولا ما أثرته فيهم من كوامن العاطفة ومشاعرهن المرفهة ،
وما كان منهن من جميل القول ودرر النثر مما أثار إعجاب الخلفاء والأمراء
واستولى على لب الأدباء ؛ فكان من هؤلاء وأولئك ، أدب ساحر ، وتفنن
عذب ، تودداً للجوارى ومجادة لهن فى الميادين الأدبية المختلفة .

وما أثر عنهن من إنتاج لا يقل جودة وإتقاناً عما أثر عن غيرهن من كتاب
وأدباء ، وبصرف النظر عما أحاط بهن من ظروف قاسية ، كانت تقسو عليهن

إلى درجة تشويه سمعتهم ، وزعزعة مراكزهم ، وتقليص شخصياتهم ، وإلصاق كل ما هو شائن ومعيب بهم .

ومع ذلك فقد استطاع بما توفر لهم من ثقة بالنفس ومواهب أدبية وثقافية أن يثبتن في حلبة الصراع ، فإذا كن قد خسرنا معركة الحرية الشخصية والكرامة وفقدن كيانهن كنساء محترمات ومقرات ، فقد فجرن طاقتهن فيما أتيح لهن من فرص ، فربحن معارك الفن والأدب (١) .

(١) الأندية الأدبية ص ٢٦٠ .

خاتمة

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن قبل أن نضع اللمسات الأخيرة لكتابنا (أدب النساء) فى الجاهلية والإسلام . هذا السؤال هو : لماذا قل نثر النساء . ونتاجهن الأدبى فى فتراتهن المختلفة وبخاصة فى العصر الجاهلى — باستثناء العصر الحديث الذى نهضت فيه المرأة كاتبة وشاعرة ومفكرة وقصصية ، وخطيبة ومحاضرة ومناظرة .

ورداً على تلك التساؤلات نقول :

١ — فى العصر الجاهلى لم تكن هناك الإمكانيات المتاحة التى تهيء لظهور هذا الفن النسائى (النثر الفنى) فالرواة كان جل اهتمامهم منصباً على رواية الشعر وحفظه ، لحب العرب للشعر وتعظيمهم للشاعر ، لأن العرب أمة شاعرة يعتزون بشعرهم ويتخذونه الوسيلة لتخليد مآثرهم والإشادة بفضائلهم فهو عندهم كالأثار المشيدة التى خلفتها بعض الأمم ،^(١) وقد سارعوا إلى حفظه — دون النثر — لأنه أسير على الزمن وأبقى على الدهر ، ولأنه أسرع فى الاستظهار والحفظ من النثر ، إذ النفس إليه أميل والفؤاد به أشد علوقاً ، وأكثر رغبة لارتباطه بالموسيقى والغناء لكونه منهما ، بخلاف النثر الذى تجرد من هذا الارتباط الموسيقى ، فهو معرض للنسيان والترك ، فتراكيه غير منظمة ولا تعطى روايته فرصة الترنم والتغنى به ، مما جعله لم يعمر طويلاً ، أما الشعر فعمره أطول لسهولة حفظه والتغنى به .

٢ — وربما ترجع قلة النثر الفنى النسائى إلى أن الرواة فى عصر الجمع والتحصيل

(١) المرأة فى الشعر الجاهلى : ٦٠٣

كانوا حراساً على الغريب فسكانوا يأخذون عن الأعراب لأنهم يقدرّون في الشعر قيمته اللغوية (١) ولم يحفلوا برواية نثر النساء ربما لقلة غريبه ، أو لأن فيه ليناً وضعفاً فعدلوا عنه إلى الشعر ولم يعباؤا به .

٣ - لم تكن هناك الوسائل الكافية التي تشجع على تسجيل الكتابة النسائية ، أو النشر الفني النسائي ، فبالرغم من أن الكتابة كانت معروفة في العصر الجاهلي ولكن الأدوات الكتابية كانت بدائية وغير ممكنة التداول وليست هناك من الوسائل الحديثة التي تساعد على انتشارها وتداولها وتتناقها الأجيال تلو الأجيال ، وحتى لو وجدت هذه الوسائل فليس هناك - كما قدمنا - من يشجع النشر ، فالاهتمام كله بالشعر والشعراء لأن الشاعر لسان قبيلته يذيع محامدها ، ويهجو خصومها ، ولم تكن المرأة لتقوم من القبيلة هذا المقام ، لذلك قل نثر النساء وكثر شعر الرجال .

٤ - النثر بصفة عامة كان قليلاً جداً لأن العرب استخدموا الكتابة في العصر الجاهلي لأغراض سياسية وتجارية ، ولكنهم لم يخرجوا بها إلى أغراض أدبية خالصة (٢) تبيح لنا أن نزعم أنه وجد هندم نوع من العناية الفنية . ويرى الجاحظ أنهم كانوا يكتبون بعض عهدهم السياسية ، وكانوا يسمون تلك العهود (المهاريق) (٣) .

ويقول الدكتور شوفي ضيف « بما لاشك فيه أنه لا يوجد تحت أيدينا وثائق نستطيع أن ندعى بها أن الجاهليين عرفوا الكتابة الفنية ، إنما الذي نستطيع أن ندعيه أن لهم حقاً عن طريق الوثائق الصحيحة ، هو الأمثال ، فقد أكثروا من ضربها ، وقد سلمت لنا طائفة واسعة من الأمثال تناقلتها الرواة

(١) نفس المصدر ٥٠٦ (٢) الفن ومذاهبه في النثر الفني .

(٣) الحيوان ١ : ٦٩ .

جيلاً بعد جيل مما أتاح لها أن تحتفظ بصورتها الجاهلية ، ومعروف أن الأمثال لا تتغير بل تظل طويلاً على هيئتها التي صيغت عليها .

وأما الخطابة وجمع السكبان فصنعت نصوصهما إلا قليلاً جداً ، إذ بقيت بعض قطع ، وبعض صيغ منشورة في ثنايا السكتب التاريخية والأدبية . (١)

وإذا كان النثر بصفة عامة قليلاً جداً كما بينا ، كان النثر النسائي القفى بصفة خاصة أقل من ذلك بكثير فضلاً عن العوامل الأخرى التي كانت سبباً في قلته وضآلته ، وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً .

هـ - ارتبطت المرأة العربية بالشعر والغناء لأنهما يصدران عن العاطفة ويعبران عنها ، وبواعث الغناء هي بواعث الشعر « والموسيقى أساس الشعر فهما عنصران أساسيان يكمل كل منهما الآخر ، والنساء أليق باحتراف الغناء من الرجال لأنهن في الغالب أندى صوتاً وأحلى ترجيحاً ، وأرق نغمًا ، ولأن الجمالهن وأزوثهن أثرًا في الطرب لهن ، وقد ذهب الجاحظ إلى أن « الغناء المطرب في شعر الغزل من حقوق النساء » ، وينبغي أن تغنى بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصباية النساء اللواتي فيهن نطق تلك الأشعار ، وكما بين أن تسمع الغناء من فم تشتهى أن تقبله ، وبين فم تشتهى أن تصرف وجهك عنه ؟ على أن الرجال دخلاء على النساء في الغناء ، كما رأينا رجالاً ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح ، وبعد فأبما أحسن وأملح وأشبه أن يغنيك فحل ماتف اللحية كثر العارضين ، أم شيخ منخلع الأسنان مغمض أوجه ؟ أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها ياسمينة ، أو كأنها خرطت من ياقوتة أو من فضة مجلوة (٢) .

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ٢٠

(٢) رسالة العشق والنساء ١٦٥ نقلاً عن المرأة في الشعر الجاهلي ٥٦ .

(٣) نفس المصدر السابق .

لذلك نجد أن ميل النساء إلى الشعر والغناء أكثر من ميلهن إلى النثر وتديبج الإنشاء وبالتالي فإن الرواة أحيوا روايتهما وترديدتهما ، والرواية عربى يهزه تغريد الطيور ويأسره هديل الحائم ، وهذا هو السر الذى حفظ تراث الغناء والشعر وأهمل النثر النسائى ، حتى أن هناك كتباً كثيرة ألغت فى الغناء والشعر - وأهمها وأخدها كتاب الاغانى لأبى الفرج الأصفهاني .

٦ - نلاحظ أن أشعار النساء التى نقلتها إلينا الرواة قصائد قصيرة يحملنها أو مقطوعات ، والظاهر أن طبيعة النساء لا تساعدن عادة على إطالة القصائد ، حتى فى قصائد الرثاء الذى هو الفن الأقرب لأذواقهن ، فلا نجد لواحدة منهن قصيدة تضارع قصيدة أبى ذؤيب الهذلى فى طولها ومتانتها أو مراثية كعب بن سعيد الغنوى ، ولهذا نجد فى الكتب التى عانيت باختيار القطع القصار الحساسة أبى تمام مقطوعات لمن (١) ، وهذا يدل على ضآلة القدرة الشعرية عند النساء ، وضيق نفوسهن فى هذا المجال ، وإذا قصر باعهن فى المجال الشعرى كن فى مجال النثر أشد قصوراً وأقل إنتاجاً .

٧ - وفى ظل الإسلام الحنيف ، نشطت المرأة نشاطاً ملحوظاً ، فروت الأحاديث وكانت عضواً فعالاً فى نشر رسالة الإسلام السمحاء وأحكام الدين ورفع منار السنة الغراء ، فروت الحديث عن النبى ﷺ كالسيدة عائشة رضى الله عنها ، فلقد كانت عاملاً كبيراً ذا تأثير عميق فى نشر تعاليم الرسول ﷺ والتفانى فى إعلاء كلمة الله لتخفق رايته على الخافقين .

وأمر خطير كهذا يتطلب استعداداً خطابياً وأديباً ، يؤهلن لاقتران هذا الميدان الجديد .

ولا شك أنه كان لمن روائع نثرية واستعدادات أدبية وتراث أدبى كبير

(١) الدكتور على الهاشمى : ٢٨٤ .

ولكن الظروف التي مرت بها الدولة الإسلامية ، وحروب التتر والمغول ربما أضاعت هذا التراث .

فلا يعقل أن يكون للسيدة عائشة وهي وارثة البلاغة النبوية ، هذه الخطب المحدودة القليلة التي وردت إلينا كما لا يعقل بأى حال أن تجمّع خطب الشيعيات أنصار على قليلة وقصيرة . ولا يخفى أن هذه الفترة التي عاصرت الشيعيات انسمت بالنشاط والازدهار ، وقوى فيها هذا اللون من الخطابة التي تقوم على الحوار والمناظرة ، وتفرق الحكم إلى مذاهب شتى وأحزاب مختلفة ، كل يدافع عن مبدئه وعقيدته التي يؤمن بها .

٨ - من سمات الأدب الحرية والتنقل من مكان إلى مكان لخصود « الصالونات الأدبية » ومشاهدات المؤتمرات الشعرية والمنتديات الفكرية ، والإسلام حينها جاء وضع المرأة في إطار شرعى ملتزم ، فهو محجبة بمنوعة من التحدث مع الرجال إلاّ من وراء حجاب ، كما أنها شغلت بأمور دينها ومناصرتها ، وهذه العوامل تحد من نشاطها الأدبي وتقلل من إنتاجها النثري . وفي عهد المولدين والمحدثين وبخاصة في الأندلس شاع الغناء والطرب والشعر ، ولا يخفى الارتباط الوثيق بين الشعر والغناء ، لأنهما معاً يصدران عن العاطفة .

وكما بينا أن المرأة أميل للغناء ، وما الغناء إلا مقطوعات من الغزل تنشد في قصور الخلفاء ، وتغنى في مقاصير الأمراء ، في سبيل نيل الحظوة والظفر بالأعطيات والأموال ، فشاهدنا تنافساً بين النساء وبخاصة القينات على إجادة هذين الفنين : الغناء والشعر وبخاصة شعر الغزل ليبلغن بهما عند الخلفاء منزلة لا تسامى وحظوة لا ترام ، وزلفى لا تنال ، وقد بلغ من تفوقهن في فن اللحن أنهن كن يعلمنه أبناء « الفرنجة » ، كل على حسب لغته ، وصارت الأندلس معهداً

للغناء والشعر ، يأتي إليه راغبو التعليم من كل فج عميق .
إذا عرفنا هذا وصلنا إلى السر في قلة نتاجهن الأدبي ، وكثرة إنتاجهن الغنائي
والشعري وبخاصة في هذه المرحلة .

٩ - يضيف الدكتور الحوفي رحمه الله عاملا آخر يسوقه تلميذا آخر
لقلة نتاج المرأة الأدبي ، ويرجع ذلك إلى لون من التعصب ؛ فقد ضرب المثل
ببعض الشعراء في إجادة فنون خاصة ولم يضرب بالخنساء في إجادتها للرثاء ،
وإيثار ابن سلام لمتهمين نويرة في الرثاء مع وجود غيره من الشاعرات ، ومثل
هذا كثير في كتب الأدب .

(تم الكتاب بحمد الله - القسم الأول « النثر »)

(ويليه بعون الله - القسم الثاني « أشعار النساء »)

(وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم)

أهم المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - الحديث النبوى الشريف
- ٣ - الأغاني - أبو الفرج الأصبهاني - هيئة الكتاب - مصر
- ٤ - تحت المصباح الأخضر - توفيق الحكيم - مكتبة الآداب - مصر
- ٥ - المرأة في الشعر الجاهلي - د / علي الهاشمي - دمشق
- ٦ - ديوان طرفة - هيئة الكتاب - مصر
- ٧ - شعراء النصرانية - لويس شيخو - مكتبة الآداب - مصر
- ٨ - حضارة العرب - جوستاف لوبون - عيسى الحلبي - مصر
- ٩ - الإصحاح - بيروت
- ١٠ - المرأة في الشعر الجاهلي د / الحوفي - مطبعة نهضة مصر
- ١١ - تحرير المرأة - قاسم أمين - بيروت
- ١٢ - صبح الأعشى - هيئة الكتاب - مصر
- ١٣ - قصة الحضارة - زكي نجيب محمود - لجنة التأليف والترجمة - مصر
- ١٤ - المرأة العربية - عبد الله عفيفي - دار الكتب المصرية - مصر
- ١٥ - الخطابة لأرسطو - إحسان عباس - بيروت
- ١٦ - الخطابة في صدر الإسلام - دار المعارف - مصر
- ١٧ - الأدب الجاهلي - د / محمد بدر وزميله - مطبعة المنار بالرياض
- ١٨ - الوسيط - أحمد الاسكندري وآخرون - دار الكتب - مصر
- ١٩ - جمهرة خطب العرب - أحمد زكي صفوت - مصطفى الحلبي - مصر
- ٢٠ - العقد الفريد - لابن عبد ربه - لجنة التأليف والترجمة - مصر
- ٢١ - مجمع الأمثال - الميبداني - بيروت

- ٢٢ - جمهرة الأمثال - للعسكري - بيروت
٢٣ - البيان والتبيين - للجاحظ - الخانجي - مصر
٢٤ - بلاغات النساء لابن طيفور - بغداد
٢٥ - الأمالي - القالي - دار الكتب - مصر
٢٦ - ذيل الأمالي - القالي - دار الكتب - مصر
٢٧ - الكامل - للبرد - بيروت
٢٨ - سرح العيون - لابن نباتة - بيروت
٢٩ - إنسان العيون - للحلي - المطبعة المصرية - مصر
٣٠ - خزانة الأدب للبغدادي - الخانجي - مصر
٣١ - الوصف في شعر المتنبي - متولى القاسم - مجلة دار العلوم - مصر
٣٢ - صور البديع - د / علي الجندی - مكتبة الشباب - مصر
٣٣ - شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون - بيروت
٣٤ - الحكم والأمثال - دار المعارف - بمصر
٣٥ - الجديد في الأدب العربي - لجنة تربية - بيروت
٣٦ - تطوير الأساليب النظرية - المقدسي - بيروت
٣٧ - النصوص المقررة - عبد الفتاح لاشين وآخرون - الأهرام - مصر
٣٨ - الفن ومذاهبه في النثر العربي - د / شوقي ضيف - دار المعارف - مصر
٣٩ - صحيح مسلم ، صحيح البخاري - مطبعة الشعب - مصر
٤٠ - سبل السلام - للزبيدي - مطبعة الرياض
٤١ - نهاية الأرب - النويري - هيئة الكتاب - مصر
٤٢ - العمدة - لابن رشيقي - بيروت
٤٣ - الخطب والمواعظ - محمد عبد الغني حسن - دار المعارف - مصر
٤٤ - الحياة الأدبية - د / خفاجي - مؤسسة ومكتبة خدمة العلم بالرياض

- ٤٥ — أسلوب المحاوره — د/ عبد الحليم حفي — مصر
٤٦ — الصناعتان — لآبي هلال العسكري — بيروت
٤٧ — دائرة معارف مجلة المعرفة — مؤسسة الأهرام — مصر
٤٨ — الأدب العربي في العصر العباسي — د/ محمد بدر — الأهرام — مصر
٤٩ — الحيوان — الجاحظ — عيسى الحلبي — مصر
٥٠ — الأندية الأدبية في العصر العباسي — الهاشمي — بيروت
٥١ — المزهرة — جلال الدين السيوطي — عيسى الحلبي — مصر
٥٢ — الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس — بيروت
٥٣ — الأعلام — لازركلي — بيروت
٥٤ — القرآن إعجازه وبلاغته د/ عبد القادر حسين — مصر
٥٥ — لغتنا الجميلة — فاروق شوشه — مكتبة مدبولي — مصر
٥٦ — القاموس المحيط — بيروت
٥٧ — تاج العروس في شرح القاموس — بيروت
٥٨ — مرآة شعراء النضرة — لويس شيخو — بيروت
٥٩ — أعلام النساء — لعمر رضا كحالة — بيروت
٦٠ — الدر المنثور — زينب فواز — بيروت
٦١ — شاعرات العرب — عبد البديع صقر — المكتبة الإسلامية — قطر

المحتوى

الموضوع	صفحة
المقدمة	٣
تمهيد	٩
في العصر الجاهلي	١٣
الوصايا	١٦
الوصف	٢٢
أدب الكواهن	٥٦
خطب الكواهن	٥٩
الحكمة والمثل	٨٣
النثر في العصر الإسلامي وبني أمية	٩٣
خطب المناظرة	١١٩
أسلوب المتحاورات	١٣٥
المتحاورات مع معاوية	١٤١
الأدبيات في العصر العباسي والأتندلس	١٥٤
نماذج للنثر في هذا العصر	١٦١
نثر الجوارى	١٧٥
المتكلمة بالقرآن	١٧٩
حديث الجوارى الخمس	١٨٥
خاتمة	١٨٩
أهم المصادر والمراجع	١٩٥

كتب المؤلف

- الأدب في العصر الجاهلي — الأهرام مصر
- الأدب في صدر الإسلام وبنى أمية — الأهرام مصر
- الأدب في العصر العباسي — الأهرام مصر
- محاضرات في الأدب والنقد — الأهرام مصر
- البحث الأدبي
- دراسات حول النصوص الأدبية — الأهرام مصر
- نزعة الجلساء في أشعار النساء — مطبعة الأمانة

تحت الطبع

- أشعار النساء في الجاهلية والإسلام
- شعر المرأة في العصر الحديث
- شعراء الأزهر في العصر الحديث
- دراسة تحليلية لكتاب فن الشعر لأدسطو
- محمد بن عبد الوهاب وأثره في الحياة الأدبية

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٩٩٨ / ١٩٨٣
الترقيم الدولي — ISBN ٩٧٧

طبع بمطبعة مكتبة الآداب المطبعة النموذجية

09

7

,

To: www.al-mostafa.com